الأمبراطورية السودانية

في

القرن التاسع عشر

تأليف

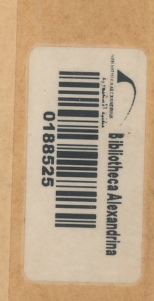
الدكتور محمد صبري

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)

١٩٥٨



الامبراطورية السودانية

في

القرن التاسع عشر

تأليف

الدكتور محمد صبري

القاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

٤٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الدواوين)

١٩٤٨

مقدمة

موضوع الكتاب يبدو فى عنوانه (الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر) وقد يتساءل البعض هل كانت امبراطورية حقا وهو ما بيناه وأثبتناه بالأدلة التاريخية والجغرافية . وللموضوع اتصال وشيج بتطور أفريقيا فى القرن التاسع عشر وسياسة الاستعمار والتقسيم التى جرت عليها أوروبا . ومن هنا تبدو وعورة الموضوع وتشعبه واشتباك الخيوط السياسية والمصالح المختلفة فى جميع أجزائه ونواحيه .

أما طريقة الكتاب ومعالجة الموضوع فهى بصفة عامة الايجاز مع الوضوح وتركيز الوقائع وقد تجنبنا الأسهاب فى بعض النقط كتاريخ القبائل السودانية وتاريخ السودان فى عهد محمد على وسعيد لأن هذه النقط مفصلة فى كتاب نعوم شقير وفى غيره من الكتب ولأننا نعنى بالناحية السياسية قبل كل شىء وهـذه الناحية قد أبرزناها فى عصر اسماعيل وما بعده . وقد استعملنا فى طريقة العرض والبناء طرقا تختلف باختلاف الفصول فمثلا فى الفصل الخاص بالثورة المهدية والسودان من سنة ١٨٨٢ الىسنة ١٨٩٨ جرينا على طريقة ركم الأدلة وترك الوقائع تتكلم من نفسها . كما أننا لم نفرد فصلا خاصا للرقيق ولكننا تكلمنا عنه فى جميع الفصول لأن الرقيق متصل بجميع كليات الموضوع وجزئياته وتشـعباته الكثيرة السياسـية والاقتصادية فى أجـزاء الامبراطورية السودانية وفى أفريقيا . وعلى الرغم من الدراسات والكتابات الكثيرة التى تعرضت للرقيق فان الغموض كان يكتنفه فكان لابد من السيطرة عليه وازاحة الظلمة العالقة بنواحيه ...

وقد كنا أصدرنا بالفرنسية فى سنة ١٩٣٠ تاريخ (الامبراطورية

المصرية فى عهد محمد على) وفى سنة ١٩٣٣ تاريخ (الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل) . وبفضـــل رعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول أمكننا الرجوع الى وثائق محفوظات سراى عابدين لغاية ســنة ١٨٨٢ تقريبا . أما فى أوروبا فقد رجعنا فى فينا الى الوثائق الخاصة بعصر محمد على . وفى باريس الى وثائق وزارة الخارجية لغاية سنة ١٨٧٠ . وفى لندرة لغاية ســنة ١٨٨٩ لأن المحفوظات الانجليزية كان من الميســور للباحثين فى ذلك الوقت الاطلاع عليها لغاية سنة ١٨٨٥ فقط (أى قبل خمسين سنة) ولكن وزارة الخارجية الانجليزية تفضلت بصفة خاصــة وأضافت خمسة أعوام جديدة فكانت هذه يد كبرى لها .

وفى هذين الكتابين كنا استغللنا لغاية ســنة ١٨٧٩ الوثائق التى استخرجناها . وكنا شرعنا فى اعداد الكتاب الثالث . فى هذه الآونة بالذات تحركت المسألة المصرية السودانية بعنف ورأت مصر أن تلجأ الى مجلس الأمن ورأى صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا أن ينوط بى كتابة بحث فى تاريخ السودان فصدعت بالأمر خصوصا وأن الوثائق وأداة البحث كانت معدة . وكنت سعيدا بحمل هذه المهمة لأن المسألة ليست مسألة وطنية فحسب بل هى أكثر من ذلك ، هى أمانة علمية قبل كل شىء ، هى اظهار حقائق علمية حاول الكثيرون طمسها وتشويهها .

وليس أدل على عدم عناية المصريين بتاريخ بلادهم العناية الكافيه ولهم العذر كله أو بعضه من أن أحد كبار نوابنا أدلى حديثا بتصريحات عن أوغندة مملوءة بالأخطاء . وذكرت احدى صحفنا الكبرى الخط الحديدى الذى أنشأه الانجليز بين مونباسة وبحيرة فكتوريا وأثره فى المشروعات الصناعية الكبرى فى هذه المنطقة دون أن تشير الى أن هذا الخط الذى تم انشاؤه فى سنة ١٩٠٢ كان فى الواقع تنفيــذا لمشروع مصرى قديم اذ حاول اسماعيل مرارا أن ينشىء طريق مواصلات منتظمة بين المحيط الهندى والبحيرات وكان هذا الطريق سيمر كالخط الحديث

بين جبلى كينيا وكيليمانجارو وهما من أغنى وأجمل جبال أفريقيا الشرقية ، وكان مشروع اسماعيل يرمى الى توطيد نفوذ مصر بصفة دائمة على جانبى الطريق ويجعل منه سورا على حدود امبراطوريته ، ولكن انجلترا وقفت فى وجه التوسع المصرى مما فصلناه فى هذا الكتاب .

وهذه مسألة المستعمرات الايطالية وكلها ، سواء فيما يتعلق بأريتريا أو السومال ، يؤسفنى أن أقول أن مذكراتنا الرسمية لا تنم عن دراسة وافية لها وأن أخطاء تتسرب اليها أحيانا .

هذا فى مصر . أما فى السودان فقد نشر بعض الوطنيين من أنصار وحدة الوادى وقائع عن الثورة المهدية وأسبابها بعيدة كل البعد من الحقيقة . مثال ذلك :

« وكان السودان ابان هذه الحوادث التى تجرى فى مصر وقبلها استهدف لمظالم شرذمة من الحكام الأتراك يحكمونه باسم والى مصر — أذاقت هذه الشرذمة الأهلين صنوف العذاب وأثقلت كاهلهم بفرض الضرائب المجحفة التى تفوق الاحتمال والتى لم يكن يصل منها الى الخزينة المصرية شيء ولا ينفق منها على تقدم العمران فى داخلية السودان شيء وانما كانت نهبا مقسما بين فارضيها وجامعيها من الحكام الأتراك والباشبوزق وغيرهم — وتفشت الرشوة بين الجميع ففسدت اداة الحكم وأراد الأهلون لها بديلا ، وهكذا قد تهيأت الظروف السياسية ، هذا الى جانب العقيدة الدينية المتأصلة فى نفوس السودانيين ، ولذا عندما ابتدأت الثورة المهدية فى سنة ١٨٨١ وجدت دعوتها مرتعا خصيبا وانتشرت بسرعة فائقة مكنت لها من قلب نظام الحكم وقد وجد الأهلون فيها منقذا ومغيثا ومما ساعد على نجاحها أيضا قيام الثورة العرابية بمصر التى كانت تجاوبا جميلا لها . وقد كانتا من أهم الحركات الوطنية فى وادى النيل وقد تشابهتا فى الأسباب والأغراض » .

هذه هى النظرية الانجليزية بعينها المتداولة فى الكتب الرسمية وغير الرسمية . وقد نلمس أثرها فى كتب المؤرخين الأوربيين جميعا حتى الموالين

منهم لمصر أمثال ديهيران وغيره من جماعة هانوتو . . .

لذلك عولنا على اصدار هذه الطبعة بلغة البلاد وميزناها على الطبعة الفرنسية باضافة فصول جديدة (كالفصل الخاص بحدود الامبراطورية الجغرافية) وبالأطلس الذى اعتمدنا فى وضـــعه على أبحاثنا وتحديدنا وتحقيقنا نحن . فساعدنا ذلك على الاهتداء الى نتــائج كبرى جديدة حسبها أنها جعلتنا نحن الذين نشتغل بالموضوع منذ حوالى ثلاثين عاما نفهمه أكثر من ذى قبل ونفهمه كل الفهم فى ضوء وضاح . ويجب أن لا يفوتنا أن نقرر أن مشروع الســودنة والفصل بين مصر والسودان واحتلال منابع النيل وممالكه ومعظم المشاكل الحديثة يرجع تاريخها الى سبعين أو ثمانين عاما مضت وجميع مقدماتها وأصولها واضحة فى تاريخ الامبراطورية السودانية .

ولسنا بحاجة الى القول أننا فى دحض الحجج المغرضة لم نخرج عن الأسلوب « الموضوعى » العلمى واجتهدنا قدر المستطاع فى الاستناد الى وثائق ومستندات انجليزية — أكثرها لم يسبق نشره — لأن للتاريخ فى أعناقنا ذمما لا بد أن نؤديها . واذا كان الاعتدال من مميزات الروح السياسية فهو من باب أولى من مميزات الروح التاريخية التى يجب أن تهيمن على نفسها أولا حتى تستطيع أن تهيمن على الموضـــوع وتلبسه فى يسر .

ولا بأس من أن نقول فى الختام أننا اذا كنا قد أصدرنا كل كتبنا التاريخية أولا بلغة أوربية كالفرنسية مثلا فما ذلك الا لأن هذه اللغة لغة علمية كثيرة التــداول ولأن الأمانة العلمية وقوة الحكم والتقــدير متوفرتان عند الأوربيين ولأن مصــدر تشويه الحقائق ونشرها شرقا وغربا هو فى أوربا نفسها .

على أننا نعاهد القراء على أن ننشر بالعربية كل ما كتبناه بلغــة غير لغتنا حتى نوفى ديننا نحو البلاد . وها نحن أولاء نبدأ بنشر تاريخ الامبراطورية السودانية والله المعين .

الكتاب الأول

الفصل الأول

تمهيد

السودان من محمد على إلى سعيد

١ — السودان ومصر القديمة :

ان العلاقات بين مصر والسودان كائنة منذ القدم . يقول الأستاذ رايزنر : « ان البلاد التي كان يسميها القدماء (الأراضى الجنوبية) كانت تشمل جميع منطقة النفوذ المصرى غير المحددة الممتدة شطر أفريقيا الوسطى والشرقية . وتدل النقوش على أن أهل هذه المنطقة كانوا من الرجال الحمر الذين يقطنون بلاد (بنت) الشهيرة الواقعة على ساحل الصومال ، والرجال السود فى البلاد الجنوبية ، والنوبيين فى وادى النيل ، والليبيين فى الصحراء الغربية والبدو فى الصحراء الشرقية [١] » .

وقد نجح ولاة مصر من أوائل حكم محمد على (١٨٢١) الى آخر حكم اسماعيل فى رد الحدود القديمة الى السودان المصرى . وانتشر فى عهدهم كما انتشر قديما نفوذ المدنية المصرية فى أرجاء تلك « الأراضى الجنوبية » فكان النيل والبحر الأحمر ناقل المدنية الفرعونية تارة والمدنية العربية طورا الى هذه الأقطار . كتب جونستون : « أيا كان الأمر وسواء أكانت

(١) Sudan Notes and Records, V. I. 1918.

التجارة المصرية أو السيطرة المصرية قد اتصلت أو لم تتصل بطريق مباشر بتلك الأصقاع المحيطة بمنابع النيل فان نفوذ المدنية المصرية القديمة قد تغلغل فى أفريقيا السوداء . واذا استثنينا بعض النباتات والحيوانات الأليفة التى جلبها البرتغاليون من البرازيل أو التجار الأسيويون من الهند فان بقية الحيونات والنباتات قد أتت كلها من طريق مصر . ومن مصر أيضا أتى التفكير فى صنع القوارب المركبة من ألواح الخشب ، كالقوارب التى يستعملها سكان أوغندة ، ورسم الآلات الموسيقية الراقية المجردة من تلك البساطة البدائية التى نجدها فى الطبول والبوقات المتخذة من قرون بقر الوحش . ولا شك أن أعواد أوغندة هى عين الأعواد التى تبدو صورتها على الآثار المصرية . ومما يدعو الى الدهشة حين نطالع وجوه الباهيا (أرستقراطية حامية السحنة منتشرة فى غرب أوغندة ، والأونيورو ، وطورو ، وفى الجنوب الشرقى من بحيرة فكتوريا والشمال الشرقى من بحيرة تانجانيقا) أن نرى وجوها مصرية بحتـــة فى هيئتها وملامحها ولونها الذى لا يكاد أحيانا يتميز بسمرته [1] »

٢ — السودان ومصر فى السياسة الدولية :

كان محمد على (١٨١١ — ١٨٤٩) أو نابليون الشرق يريد توطيد الامبراطورية السودانية فى حدودها القديمة التاريخية والجغرافية ولكن عمله الذى لم يتحقق كله قد قدر له أن يتم على يد حفيـــده اسماعيل (١٨٦٣ — ١٨٧٩) . وقد كان هذان العاهلان فى الوقت نفسه يعملان على تحقيق استقلالهما التام ازاء تركيا من الناحيتين : القانون والواقع . ولكن أوروبا ما كانت بغافلة ، فمنذ سنة ١٨٣٦ فى ابان حرب المورة وقد بدأت مصر تلعب بأسطولها وجيشها دور دولة كبرى أخذ السياسى

(١) هارى جونستون (حماية أوغندة) مجلدان بالانجليزية · انظر الجزء الأول صفحة ٢١٠

النمسوى المحنك مترنيخ يحذر الدول من « قيام دولة افريقية جديدة ، باعتبارها خطرا طالما أعلن فى أوروبا أنه من أجل الأخطار التى تهددها [1] » .

وسواء اتجهت مصر فى توسعها صوب آسيا أو صوب أفريقيا أو صوب الاثنتين معا كان لابد لها أن تلقى فى كل مكان « قدم انجلترا » — على حد تعبير محمد على — وأوروبا . وهذا مايفسر لنا موقعة ناوارينو (١٨٢٧) التى دمر فيها الأسطول المصرى على غرة ، والألب الدولى الذى أرغم مصر سنة ١٨٤٠ على استبقاء السيادة التركية وترك امبراطوريتها الأسيوية (بلاد العرب ، فلسطين ، الشام ، كليكيا ، وجزيرة كريد) الى تركيا .

---

(١) بروكش أوستن (تاريخ انحطاط اليونان) فى خمسة أجزاء بالألمانية . انظر الجزء الخامس .

الفصل الثانى

السودان من ١٨٢١ إلى ١٨٦١

لقد حكم السودان منــذ فتحه حكام قادرون مصلحون . أولهم الميرالاى عثمان بك (١٨٢٥ — ١٨٢٦) ولكن هذا الوالى كان ظالما فعم القحط والبلاء البلاد فى أيامه وقد مات بداء السل فى أبريل سنة ٢٦ . وحسبه أنه أول من جعل الخرطوم مركزا له فنقل اليها أقلام الحكومة والمخازن والأشوان وصارت من ذلك الوقت عاصمة السودان .

وقد خلفه فى الولاية محو بك (١٨٢٦) فبقى بضعة أشهر وكان رجلا عادلا وهو أول من فكر فى اشراك الأهلين أى السودانيين فى حكومة بلادهم اشراكا فعليا ، وقد هدته حصافته وذكاؤه الى الاستعانة برأى الشيخ عبد القادر ود الزين « وكان اذ ذاك شيخ خط فقلده شياخة قسم الكوع وكساه كسوة فاخرة » وقد بنى محو بك بناية خاصة للادارة الحكومية فى الخرطوم .

خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٩) أول حاكم نظم السودان وأسس مدينة الخرطوم وأقام فيها المنشآت وعمل على تعمير البلاد وارجاع السكان الذين هجروها فى عهد الدفتردار وعثمان بك . يروى أنه لما حضر واليا على السودان (يونيه ١٨٢٦) استقبله محو بك فى أم درمان وخلا به مدة ثم أحضر الشيخ عبد القادر وقدمه اليه وقال : « ان عمران البلاد برؤوسها أهل الرأى فخذ برأى هذا » ثم توجه الى القاهرة واجتاز خورشيد باشا النيل الى الخرطوم فعمل بوصية محو بك وقرب اليه

الشيخ عبد القادر ثم جمع مشايخ البلاد وسألهم أن يختاروا شيخا لينوب عنهم لديه فى تعديل الضرائب فاختاروا الشيخ عبد القادر فاستعان به على تعديلها وقلده المشيخة على جميع البلاد من حجر العسل الى جبال الفونج وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

وقد ذهب فى بداية ولايته الى سنار وتفقد أحوالها وما أصاب أهلها من قحط فجمع هناك مجلسا من رؤساء الادارة ، وقد سجل محضر اجتماع ذلك المجلس الكبير فى ٨ محرم سنة ١٢٤٢ هـ (١٢ أغسطس ١٨٢٦) فى تقرير طويل بعث به خورشيد باشا الى محمد على ، وهذا التقرير (سجلات القلعة القديمة) يبين عن جميع عيوب الادارة السابقة من اهمال وظلم فى جباية الضرائب وفساد فى الادارة وقد كان اقليم سنار يبابا بعدما جرده القحط وخف آهله فلم يبق فى ١٤٥ قرية الا ٥٩٩ قطينا وكانت المجاعة والهجرة والوباء قد فعلت فعلها فى سكانه ، ولم يكن من الميسور تحصيل الضرائب من قوم مدقعين . وقد قرر المجلس وضع حد لهذه الحال وتشجيع الزراعة ببناء السواقي لرى الأرض وايجاد نظام جديد للضرائب يتناسب مع الحالة العامة ومقدرة كل فرد وبالجلة العمل على نشر الثقة والطمأنينة حتى يعود المهاجرون وتعود الأمور الى مجاريها .

وقد عمل خورشيد منـذ سنة ١٨٢٦ على تنفيـذ ذلك البرنامج الإصلاحى الذى وافق عليه والى مصر وبادر بارسال ١١٨ اخصائى لتعليم سكان سنار والسودان زراعة الأرض كما بادر بارسال رؤساء عمال لنشر الصناعة ومبادئها وخصوصا صناعة الفخار وبناء السفن .

ومن أجل أعمال خورشيد باشا منشآته بالخرطوم . كانت هـذه المدينة قبل أن يستوطنها المصريون بضع عشش للصيادين مبعثرة بالقرب من ملتقي النيلين . فجعل فيهـا الحاكم المصرى مركز الادارة العـامة للسودان وأوجد الثكن والترسانة والمبانى العامة المشيدة بالآجر والرياض

وحدائق الخضر والفاكهة . وهو أول من اجتذب السكان الى المدينة وحثهم لأول مرة على بناء منازلهم بالطوب المجفف فى الشمس وكانوا لا يعرفون قبل ذلك الا البناء بالقش وأعواد الشجر وجلود البقر .

وقد حدثت رحلة والى مصر محمد على الى السودان فى أواخر سنى حكم خورشيد باشا (١٨٣٨ — ١٨٣٩) بعد أن سلخ السبعين فكانت رحلة كلها يمن واسعاد .

ظهر وصف هــذه الرحلة بالتركية فى وقائع ٦ صفر سنة ١٦٥٥ هـ (٢١ أبريل سنة ١٩٣٩) . وهذا أهم ما جاء فيه :

« بدأ سموه الرحلة فى ١٥ أكتوبر ســنة ٣٨ . فبلغنا الخرطوم فى ٦ نوفمبر .

« مدينة الخرطوم ، العاصمة الحالية لسنار ، تقع على درجة ١٦ من خط العرض على بعد ربع فرسخ من ملتقى فرعى النيل . ولم تكن من خمس عشرة ســنة خلت الا مجموعة من عشرة أكواخ « توكول » فلما رأى خورشيد باشا حسن المكان وطيب هوائه دعا أسرا عــديدة من سنار وبعض عرب الصحراء الى الاقامة فيه وبناء منازلهم . وقد أصبحت الخرطوم اليوم مدينة مكونة من خمسمائة بيت مشيد بطريقة نظامية ، ومستشفى ، ومخازن وأشوان كبيرة وحدائق مختلفة ينبت فيها وينضج فى الشتاء التين والعنب ...

« (واد مدنى) مدينة عظيمة بسبب السوق التى تقوم فيها كل عام وتدوم ثلاثة أشهر . وسكانها ثلثمائة أسرة جيدة المسكن . وهى كالخرطوم لها ثكنتها ومستشفاها وشونها .

« و (سنار) كانت مقر الملك فى مملكة سنار القديمة . ومنازلها مبنية بالآجر وهى فى مجموعها حسنة المنظر .

« غادر سمو الوالى الرصيرص فى ١٠ يناير فوصل الى جبال فازوغلى فى الثامن والعشرين منه .

« وينقسم سكان السودان الى ثلاث طبقات : سكان القرى ، والبدو أو سكان الصحراء ، وسكان الجبال . وللقرويين والبدو لون نحاسى ، يشبهون الأحباش فى هيئة أجسامهم وملامحهم ، وهم مسلمون على مذهب ابن مالك . أما الجبليون فهم وثنيون يعبدون الأشجار ، وهم من جهلهم فى ليل لائل لا يكادون يميزون بين الأرض والسماء .

« ومن عاداتهم أنهم عند الغزو تتعالى صيحاتهم الخادة ، ويرجحنّون فى المعارك ، وتصحبهم نساؤهم فى الحروب لحمل الماء والزاد . وهم يبيعون أسراهم ، ولا يهاجمون فى الليل أحدا . وفى النهار شجعان مغامرون لا يرحمون ، يسرق بعضهم بعضا محاصيل الذرة والنساء والأطفال يتجرون فيها . وقد أعلن سمو الوالى فى كل مكان تحريم الغزوة ...

« ومن فازوغلى ذهب الوالى الى فازانجورو ثم هبط من جبال فازانجورو فى ٣١ يناير الى السهل حيث يصب خور العادى فى النيل الأزرق ، وقد اختار هذا الموقع لانشاء مدينة جديدة .

« وأرض سنار غاية فى الخصب والجودة .. وان تكن الزراعة فيها لا تزال مهملة كل الاهمال . وقد توجد فى دنقلة بعض الآلات الزراعية ، ولكن فى البلاد الواقعة فوق هذه المنطقة يكتفى الزراع باثارة الأرض بقطع خشبية غالظة . وقد وزع الوالى مائة فدان من الأرض علاوة على أجرهم الثابت على المهندسين المصريين الذين اشتغلوا فى ريف مصر وصعيدها وخبروا الزراعات المختلفة ، وقدم لهم الآلات والحيونات الضرورية ، ثم ألحق بكل منهم طائفة من شباب كل اقليم سودانى ، ليتعلموا فى كنفهم شؤون الزراعة ، وأعفاهم من الضرائب خمسة أعوام . ولاشك أن هذه المزارع النموذجية سيعم نفعها وسيكون أهم ما ينبت فيها قصب السكر والقطن والنيلة ...

« ثم جمع الوالى بعد ذلك حوله بعض كبار المشايخ وخلع عليهم الخلع وخطب فيهم ونصحهم ان يقتدوا بالشعوب الأخرى التى كانت متوحشة ثم تمدنت وانتقلت من حالة الخشونة والجهل الى حالة الأنس والمعرفة .

« أبهر الوالى فى خطابه فأعلن جميع المشايخ على الفور رغبتهم فى ارسال أبنائهم الى مصر ، وكان أكبرهم الشيخ عبد القادر لا ولد له فما عتم أن التمس ارسال ابن أخته .

« وأعلن الوالى حرية تجـارة النيلة التى يغزر زرعها فى مديريات دنقلة وبربر وأمر الحاكم العام بتقديم الآلات اللازمة وكل مالابد منه لتقدم هذه الزراعة .

ثم قفل راجعا فى ٣٠ ذى العقدة (١١ فبراير) وعاد الى القاهرة فى ١٤ مارس سنة ٣٩ .. »

أحمد باشا أبو ودان [1] (١٨٣٩ — ١٨٤٤) . وطد أحمد باشا الأمن فى ربوع السودان ونظم الدواوين والادارة وعمل على ترقيـة الزراعة والصناعة والتجارة وشجع الملاحة وبنى سفنا كثيرة كانت نواة البحرية التجارية فى السودان . ومن أكبر مآثره احتلال اقليم التاكه فى سنة ١٨٤٠ وتوسيع الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى ، وقد قصد بجيشه بلاد الحلانقة وكانت اقامتهم على نهر القاش فدانوا له بالطاعة وأمّر عليهم محمد إيّله . فلمـا رأت قبيلة الهدندوة ذلك ، وهى قبيلة ذات بأس وعدد وشَحَنٍ على الحلانقة ، تمردت عليه وجمعت جموعها شمالى كسلا فى غابتى وهياى والكلتياب فحول أحمـد باشا مجرى القاش فعطشوا ويبس الزرع والشجر فأشعل النار فى الغابتين فذعروا فلحق بهم وأعمل فيهم القتل وأسر شيخهم فدانوا له بالطاعة وأخذ منهم الجزية .

(١) ذكر نعوم شـقير بك فى « تاريخ السـودان » ان رحـلة محمـد على حـدثت فى أيام أحمـد باشـا أبو ودان أى فى المـدة من ١٥ أكتوبر سنة ٣٩ الى ١٤ مارس ١٩٤٠ والحقيقة أنها حدثت فى سـنتى ٣٨ و ٣٩ كما ذكرنا .

وعاد أحمد باشا الى الخرطوم بعد أن ولى مديرا على كسله ثم أرسل البكباشى الياس أفندى الى بنى عامر فقاتلهم وأخضعهم وضرب عليهم الجزية .

وبعد فتح التاكه قسم السودان الى سبع مديريات : فازوغلى وسنار والخرطوم وكسله وبربر ودنقلة وكردفان .

أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ — ١٨٤٥) — قال نعوم شقير انه لم يمكث الا قليلا بالخرطوم حتى عاد أهل التاكه الى الثورة فجرد جيشا لمحاربتهم وسار لقتالهم ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر والشيخ أحمد أبو سن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم الى الخرطوم فضرب رقابهم ، وفى أواخر سنة ١٩٤٥ عاد الى مصر ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين فأكرمهما محمد على وأعجب بذكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال « ماكنت أظن أن بلادا ليس فيها شيء من أسباب التمدن والتهذيب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل » .

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١) — عمل على اصلاح الادارة التى اختلت فى عهد سلفه خالد باشا فأزال المظالم ونشر العدل وهو الذى جدد ديوان الحكمدارية أو سرايها فى الخرطوم فبقى الى الثورة المهدية وأنشأ مدرسة أميرية برئاسة رفاعة بك الطهطاوى وبيومى بك اللذين نفاهما عباس باشا وقلد الشيخ عبد القادر وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ عموم الجزيرة .

على باشا شركس (١٨٥٥ — ١٨٥٧) — أهم حوادث ذلك العهد اثنتان الأولى انتشار الهواء الأصفر وموت خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار وقد خلفه ابنه الزبير فبقى فى الخرطوم زمانا ثم ذهب الى مصر فعين معاونا فى نظارة الداخلية .

والثانية زيارة سعيد باشا للسودان وقد أعلن سعيد باشا رغبته فى ترك السودان ولكن السودانيين خشوا مغبة الترك وعودة الفوضى الى البلاد فحاولوا دون تحقيق هذه الفكرة الشاطة واكتفوا بالمطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات العاجلة . وقد أنقص الوالى الضرائب وأنفذ اجراءات كثيرة مطابقة لرغبات السكان وكان من أهم ما قام به تعيين أراكيل بك نوربار حاكما للسودان (١٨٥٧ — ١٨٥٩) ولاشك أن تعيين مسيحى فى ذلك المنصب دليل على روح التسامح عند الوالى وتقديره لما اشتهر به أراكيل من حزم وعدل وكفاءة فى الادارة وتصريف الأمور وقد تجلت هذه الصفات والمواهب حين همت طائفة من السكان بالثورة على هذا التعيين وسرعان ما انقادت له الأحوال واستقرت .

الكتاب الثانى

السودان فى عصر اسماعيل

الفصل الثالث

السودان من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٧

كان ابراهيم يقول بعد تفكك الامبراطورية المصرية فى سنة ١٨٤١ ان عظمة مصر الحقيقية وميدان توسعها فى السودان وكان نوبار باشا كبير وزراء اسماعيل أول من آمن بهذه الفكرة ونصح الوالى بنبذ كل فكرة توسعية ناحية الشام على أن تكون مهمة مصر الكبرى وغايتها الأولى نشر الحضارة فى أفريقيا . [1]

جعل اسماعيل هذه الفكرة محور سياسته وقطب الرحى فيها سيما وأن مصر كانت دولة أفريقية . وغير خاف أن الهمجية وعاداتها كانت سائدة فى القارة السوداء حتى تسرب اليها نفوذ العرب والاسلام قبل نزوح الأوربيين اليها بزمن حاملا لواء مدنية عالية .

وقد كان الاحتلال الرومانى بدء اجتذاب العرب فى أفريقيا . وفى أوائل القرن الثانى الميلادى كانت مصر ومراكش وجميع البلاد الواقعة على الساحل فى شمال أفريقيا واقعة فى قبضة الغزاة المسلمين الذين نشروا فى ربوعها حياة جديدة زراعية وتجارية وأدبية وأسسوا دولا قوية وعواصم

(١) مذكرات نوبار باشا المحفوظة فى باريس فى خزانة الأسرة

حضارة زاهيـــة زاهرة فى القاهرة وقيروان وفاس . وأوغل العرب النازحون تدريجيا فى داخل أفريقيا ، فى جميع المناطق التى يستطيع أن يعيش فيها الجمل وينعم .

نزح العرب الرحل من وادى النيل الأعلى أو من سواحل البحر الأحمر وأوطنوا السودان والبلاد التى يسقيها مجرى النيجر الأعلى وأسسوا على ساحل أفريقيا الشرقى مقدشو وقيلوه وبراوة وميلندة وومونباسة .

وامتد الاسلام الى زنجبار وجزء من الحبشة وهرر وبلاد الصومال وكردفان ودار فور ووداى وقانم وسكوته وباجرمه وبلاد أخرى كثيرة .

وكان النفوذ العربى الاســلامى قبيل تقسيم أفريقيـــا ، فى حوالى سنة ١٨٨٠ ينتشر رويدا فى قلب أوغندة والقارة السوداء .

١ — السودان من سنة ١٨٦٣ لغاية ١٨٧٧ :

موسى باشا حمدى (١٨٦٢ — ١٨٦٥) .

كان موسى باشا حاكم السودان وقت ولاية اسماعيل (١٨٦٣) . وقد كان ذا خبرة طويلة بشؤون البلاد وكان يريد وضع حد لشكاية السكان وجفوتهم من جراء فداحة الضرائب وعلى الأخص الطريقة العسوف التى يستعملها الباشبوزق فى جبايتها وهم جنود السلطة غير النظاميون وعمالها . وقد أصدر قرارات تحدد مقدار كل ضريبة فى سجلات الحكومة وسلم دافعى الضرائب دفاتر أو سراكى يقيد فيها الموظف المختص كل مبلغ يدفع من أصل المبلغ الموزع على ثلاثة أقساط فى العام . وعين من السكان رؤساء ووكلاء مراكز .

جعفر باشا مظهر (١٨٦٦ — ١٨٧١) :

أعقب جعفر باشا مظهر جعفر باشا صادق الذى كان حاكما للسودان فى سنة ١٨٦٥ . ومن أهم أعماله انشاء المحاكم والمدارس وتحسين ترسانة

الخرطوم . وكانت سياسته فى مجموعها سياسة اصلاحية . وهو الذى أخمد ثورة الجنود فى كسلا التى ابتدأت فى عهد حمدى باشا سنة ١٨٦٥ ، وكان أكبر عون له فى ذلك آدم بك المشهور الذى صار فيما بعد باشا وقائد الجيوش المصرية فى السودان .

وآدم باشا عربى سودانى مسقط رأسه فى كردفان وفى رواية زنجى من الدنكا ، وقد تلقى العلم صغيرا فى مصر ، وصحب ابرهيم باشا فى حروبه فى الشام . وفيها أظهر شجاعة نادرة وكفاءة ممتازة . وقد ذكر الخديوى اسماعيل كل ذلك لرفيق أبيه القديم فأجزل له من العطاء والرتب واستمرت بذلك تقاليد مشاركة السودانيين فى الحكم مع المصريين . وكان فى ذلك الوقت سودانى آخر ، حسين باشا خليفة ، حاكما على مديريتى بربر ودنقلة .

اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧) :

من سنة ١٨٧١ لغاية ١٨٧٣ كان ممتاز باشا حاكما للسودان . وهو شركسى عالى الفطنة محب للاصلاح . وحسبه انه أول من أدخل زراعة القطن المصرى فى السودان وعنى بصناعاته ولكن تقارير وصلت الى القاهرة تتهمه بالرشوة فألقى القبض عليه وحقق معه وظل فى سجنه بالخرطوم الى أن مات سنة ١٨٧٥

كان خلفـه اسماعيل باشا أيوب أحسن منـه حظا . كتب السير صاموئيل بيكر فى أثناء رحلة العودة من السودان فى يولية ١٨٧٣ يقول : « لقد أدخل اسماعيل باشا تحسينات كبيرة فى مدينة الخرطوم . وهو الذى أكمل بناء مستشفى الحكومة الذى بدأه سلفه ممتاز باشا ، وهو شركسى مثله . وهو مثله أيضا فى قوة ذكائه . وبفضل عنايته تحولت أراض واسعة جرداء الى حديقة عامة تصدح فيها كل مساء الموسيقى العسكرية .

« وفى أيامه أيضا بدئت أعمال الرى بواسطة البخار على الضفة الشمالية من النيل لزراعة القطن .

« وقد قضينا أياما فى الخرطوم ثم ودعنا صديقنا الجليل اسماعيل باشا أيوب وسافرنا الى مصر فى باخرة .

« وقد تركت لاسماعيل باشا غلامَيَّ سعد وبلال لينشئهما تنشئة موسيقية أو عسكرية ، وكانت الأخيرة أقرب الى مشتهاهما . وكانت فى الخرطوم فى ذلك الوقت مدرسة لتعليم أذكى الشبان السود الذين يصير من الميسور تحريرهم من تجار الرقيق .

« ولما بلغنا بربرا وجدت تحسنا ظاهرا فى حالة البلاد اذ بدأ العرب فى اعادة بناء سواقيهم على ضفاف النهر الخصبة . وتلك احدى نتائج اصلاح حكيم قام به الخديوى : وهو تقسيم السودان الى مديريات يحكم كل مديرية مدير مسئول لايخضع ثمت للحاكم العام الذى كان يقيم فى بلد قصى كالخرطوم [1] » .

وكتب مسيو جيجلر ، مدير البرق بالخرطوم ، يقول :

« لقد عاد اسماعيل باشا أيوب من دارفور من شهر مضى بعد غيبة عامين . وقد كان استقباله عظيما . وهو محبوب حبا جما فى جميع البلاد التى يحكمها بحزم وعدل . وقد وجدت فى الخرطوم تحسينات عظيمة وفتحت فيها شوارع واسعة فسيحة وأصبحت المدينة أكثر بهاء ، وأهم من ذلك ، أصبحت مصحة بعد أن كانت كثيرة الأوباء [2] » .

وكتب أحد قناصل فرانسا قديما بالخرطوم يقول :

« انه محبوب جدا فى السودان حيث بدأ ينشىء مزارع قطن ونيلة ويعدل نظام الضرائب بمنع مشايخ العرب من جبايتها وايجاد نوع من الرقابة لايزال باقيا الى اليوم [3] » .

---

(١) صموئيل بيكر (اسماعيلية) فى مجلدين بالانكليزية. انظر الجزء الأول ص ٤٨٧ – ٤٨٨ .

(٢) Douglas Murray and Silva White. Sir Samuel Baker. A Memoir خطاب من جيجلر الى صاموئيل بيكر بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٧٦

(٣) Louis Vossion. Khartoum et le Soudan d'Egypte. Nouvelle Revue Mars, 1883

وقد لعبت تجارة الرقيق فى عهد ذلك الحاكم كما لعبت فى عهد جميع الحكام السابقين واللاحقين دورا كبيرا فى تاريخ السودان . وكانت أهم مراكز هذه التجارة فى أقاليم كردفان وبحر الغزال ودارفور الجنوبية النائية . وكانت دارفور فى سنة ١٨٧٤ لارقابة لمصر عليها فكان لا بد من اخضاعها لسلطانها قبل أن يسيطر عليها تجار الرقيق الذين كانوا بفضل ثروتهم وعصاباتهم المسلحة الأجيرة سادة أفريقيا الوسطى وخطرا يتهدد السيادة المصرية الفعلية على هذه الأقطار .

ومنذ سنة ١٨٦٩ فقط بدأت مصر تنظر الى النخاسة والنخاسين كخطر سياسى تخشاه ولكنها كانت لاتريد استعمال العنف لمحاربة النخاسة الا عند الضرورة القصوى على أن يكون ذلك بمنتهى الحكمة والمصانعة حتى لاتثور ثائرة المصالح المختلفة المرتبطة بهذه التجارة المشروعة القديمة .

وقد بلغ من مهارة حكام السودان المصريين أنهم كانوا عند ضرورة الالتجاء الى القوة ضد النخاسين يدفعون بعضهم الى مهاجمة البعض ويؤكدون بذلك ، دون تضحية ، سلطانهم عليهم .

وهذا ما حدث فى سنة ١٨٦٩ عينها فان نخاسى بحر الغزال قد أحسوا بقوتهم وارادوا تحدى الحكومة المصرية فامتنعوا عن دفع المبلغ السنوى المتعاقد عليه . وكان على رأس أولئك النخاسين العصاة زبير رحمت الذى ذاع صيته فى أرجاء السودان وكان فى الواقع أكبر شخصية سودانية فى القرن التاسع عشر .

زبير رحمت من سلالة العباسيين الذين نزحوا من بغداد الى مصر فأعالى النيل على أثر غزو التتر فى سنة ١٣٧٨ هجرية . وكان متصفا بالذكاء والفطنة والشجاعة والاقدام فساعدته هذه الصفات ، وكان وكيلا فى بحر الغزال لعلى عمورى التاجر بالصعيد ، على أن يصبح فى سنوات

قلائل ملكا غير متوج له قصر وجيش وحصون وزرايب فى طول خط أعالى النيل وترسانة وسفن وثروة ضخمة .

وكان الخديوى اسماعيل ألب عليه فى سنة ١٨٦٩ بلال أحد النخاسين وعينه مديرا لبحر الغزال ليوطد فيها سلطته المزعزعة ويحتل دارفور بعد ذلك ولكن زبير أوقع بلالا فى كين وقتله ومزق الحملة التى كان على رأسها شر ممزق .

وفى أثناء ذلك قامت أسباب نزاع وعراك بين السلطان ابراهيم سلطان دارفور ورحمت زبير الذى بدأت قوته المتزايدة تقلقه وتخيفه . فما كان من الزبير الا أن أخذ يعد العدة لغزو دارفور من الجنوب ويعمل على بسط سلطانه ونفوذه بطريقة لا تتلاءم مع مصالح مصر .

وكان اسماعيل باشا أيوب يعلم ذلك ويرقب الحوادث فشرع من ناحيته يتأهب لغزو دارفور من الشرق على أن يترك زبير يغزوها لحساب مصر . وكان الزبير قد استولى فعلا على بحر الغزال وعلى شاكه وهى القسم الجنوبى من دارفور فما كان من الخديوى الا أن بادر بتعيينه حاكما على البلاد التى فتحها وأمره باتمام فتح دارفور بالتعاون التام مع أيوب باشا .

وما عتم الزبير أن كتب له النصر فى دارفور فى سنة ١٨٧٤ على أثر معركة حاسمة قتل فيها السلطان ابراهيم واثنان من ولده وصارت دارفور كلها فى قبضة المصريين . عندئذ أنعم الخديوى برتبة الباشوية على الزبير الذى لم يرض بها اذ كان يطمع بحق فى وظيفة الحاكم العام للمديرية الجديدة .

لذلك قرر الزبير الذهاب الى القاهرة ليرفع ظلامته الى الخديوى شخصيا . وقد حل محله ابنه سليمان فى أثناء غيبته التى طال أمدها على غير انتظار . ذلك لأن الخديوى تذرع بكل الوسائل لابقائه فلاينه وجر له الوعود .

وكان أول أثر لاحتلال المصريين دارفور ودخول قواتهم العسكرية فيها انتشار الأمن والنظام فى ربوعها . أنشأ اسماعيل أيوب فى مختلف أصقاع السودان مراكز صحية علاجيـــة منتشرة من البحر الأحمر الى النيل ، بين سواكن وبربر ، ومن النيل الى حدود واداى وفى دار فرتيت بين الخرطوم ودارفور .

* * *

يبدو مما تقدم جليا أن السودان فى عهد الادارة المصرية منذ عهد محمد على كان فى تقدم مستمر على الرغم من جميع الأخطاء والمصاعب التى لا محيص عنها فى عصر انتقال وتجارب وتكاليف توضع فيه الأسس الأولى للنظام والعمران ، فى عصر يعتبر بحق أشق مرحلة من مراحل الانشاء .

وقد حدثت فى جميع الميادين اصلاحات كبرى أو محاولات اصلاحية واسعة كان لها أثر كبير عاجل أو آجل فى الحياة العامة . وقامت المدن واتسعت وســاد « السلم المصرى » فى كل مكان . ورجعت الصحراء والقوى الرجعية المضطربة القهقرى أمام التوسع المصرى .

وعلى الرغم من كثرة النفقات التى يتطلبهـا الفتح والتنظيم كان السودان خاليا من الديون تفى ميزانيته بحاجاته . كتب المالى الشهير (كيف) ، الذى أرسل الى مصر لبحث حالتها المالية ، فى تقريره الذى صدر سنة ١٨٧٦ يقول : « ان المعلومات التى استخلصناها تدل على أن السودان بلد غنى بأرضــه وسكانه وقمحه . ويتبين من الاحصاءات الرسمية انه بعد خصم تكاليف حملة دارفور وحملة البحيرات الكبرى يبلغ الفائض فى الخزانة مائة وخمسين ألفا من الجنيهات هى مقدار الدخل » .

والواقع أن الاختلال المالى كان جرثومة فى البحيرات الاستوائية (حملة بيكر ١٨٧٠ — ١٨٧٤) ، ثم استفحل فيما بعد فى دارفور (ادارة غردون ١٨٧٧ — ١٨٧٩) وكانت السياسة الانجليزية هى القاضية على معظم النتائج الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى حصل عليها الحكم المصرى بكل مشقة فى مسافة نصف قرن وأكثر .

الفصل الرابع

امتداد السودان إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى

السومال وهرر

(١٨٧٠ — ١٨٨٠)

ابتداء من سنة ١٨٦٥ أخذ اسماعيل يتبع سياسة ايجابية فى البحر الأحمر ليضمن لمصر السيادة التامة على الساحل الأفريقى لذلك البحر الذى كانت تركيا تهيمن على ساحله الأسيوى .

وكانت الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف هى تنازل الباب العالى لوالى مصر عن ميناءى سواكن ومصوع .

فى سنة ١٨٦٦ ، بتاريخ ٢٧ مايو ، صدر فرمان يمنح « الحكومة الوراثية فى مصر وفى جميع الملحقات والأراضى التابعة لها وفى قائمقاميتى سواكن ومصوع » .

وما كادت تفتتح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ وتظهر للعالم أهمية البحر الأحمر حتى كان اسماعيل قد مد سلطان مصر على سواحل البحر الأحمر الأفريقية وكان احتلال مين السومال المواجهة لعدن بصفة خاصة يقلق السياسة الانجليزية .

ظهرت أثار هذا القلق وبوادره فى العلاقات الانجليزية المصرية منذ شق القناة : من ذلك ان عراكا نشب بين قبائل بلهار وبربرة على خليج عدن فذهب جمالى بك ليصلح بين الطرفين ويوطد السلام فما كان

من حاكم عدن القائد ادوارد راسيل بمجرد علمه بوصول جمالى بك فى هذه الأصقاع الا أن كتب اليه يسأله عن سبب مجيئه وعما اذا لم يكن الدافع له فكرة الفتح والاستيلاء (أبريل سنة ١٨٧٠)

وقد وجه شريف باشا وزير الخارجية المصرية بهذه المناسبة ، الى قنصل انجلترا العام ، بتاريخ أول يونية سنة ١٨٧٠ ، خطابا يؤكد فيه حقوق مصر ، قال فيه : « ان الأراضى المذكورة ليست مستقلة ، انها تظل كما كانت دائما عثمانية . وهى ضمن البلاد التى تنازل عنها الباب العالى للحكومة المصرية بمقتضى فرمان سلطانى نص فيه على مديريات مصوع وسواكن وملحقاتهما . على أن مصر لاتزال تدفع جزية سنوية مقابل ذلك .

« فلا يسع الحكومة المصرية مطلقا أن تترك الحقوق الثابتة التى لها على هذه البلاد [١] » .

حقيقة الأمر ان انجلترا كانت تريد أن تعقد مع قبـائل السومال كما عقدت من قبل مع قبائل عدن معاهدات تجارية وأن توجد معها علاقات وارتباطات تجذبها فى دائرة نفوذها .

ولكن اسماعيل لم يكن غافلا . اذ كان أسطوله فى البحر الأحمر بقيادة جمالى بك مكونا من ثمان سفن ، وكانت محطات الأسطول فى بورسعيد والاسماعيلية والسويس وجميع الساحل الافريقى لغاية أقصى نقطة فى شرقى خليج عدن .

وفى يونية سنة ١٨٧٠ عين ممتاز باشا حاكما عاما على جميع الساحل الأفريقى من السويس الى جردفواى .

ولاشك أن وجود سلطات مصرية فى هذه الأرجاء كان عاملا فى ايجاد

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية مجلد ٣١٨٦ .

النظام ووضع حد للحروب المستمرة بين القبائل وما الى ذلك من عادات همجية كسرقة الأطفال لبيعها أو بيع الأطفال لشراء البقر .

ولم تمض سنوات قلائل حتى ظهرت آثار المدنية المصرية فى تلك الأقطار النائية وأخذت مدينةبربرة فى بلاد السومال منذ سنة ١٨٧٣ تحيا حياة جديدة وتنعم بالسلم والأمن بعد حياة الفوضى والنهب والسلب والقتل .

كتب الكولونيل استانتون من الاسكندرية بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٤ الى وزير الخارجية الانجليزية يقول :

« لعل مولاى يسمح لى بأن أقرر أن ايجاد ادارة منتظمة على ساحل السومال تقضى على أسباب النزاع الداخلية بين القبائل وعلى المعارك التى تعطل التجارة فى هذه الأرجاء خير لنا ولأملاكنا فى عدن من معاهداتنا التجارية مع مشايخ بربرة وزيلع وتاجورة [١] » .

وقد تنازل الباب العالى لمصر عن زيلع فى يونية سنة ١٨٧٥ مقابل دفع ١٥٠٠ جنيه تركى سنويا فأخذ اسماعيل ينشىء فى تارجورة وغيرها حكومات تتصل بسكان البلاد الداخلة وتفتح الطرق للتجارة .

كتب الضابط وود الى السير اليوت سفير انجلترا بالآستانة فى ٦ أغسطس سنة ١٨٧٥ يقول : « ان التنازل عن ميناء زيلع والاستيلاء على بربرة يجعلان ساحل البحر الأحمر الغربى كله فى قبضة مصر ، ولا ريب أن المناطق التى كانت من قبل مستوحشة لايستأنس بها أخذ المصريون يصلونها عاجلا بالعالم المتمدين ، وقد اختصر « التلغراف » بينها وبين سواكن زهاء نصف البحر الأحمر الجنوبى ، ومن السهل الاتصال بهذا الميناء من أى نواحى الساحل اذ يوجد فى كل قرية موظف مصرى ومعه طائفة من الجند لحفظ النظام ويوجد بريد شهرى منتظم بين السويس ومصوع تحمله سفن بخارية تجرى بالقرب من الساحل الغربى بين

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ ، مجلد ٣١٨٧ .

الصخور ، وكثيرا ما تلمح هذه السفن اشارة الاستغاثة » .

وقد ختم كلمته بتعديد خدمات السلطات المصرية فى البحر الأحمر للملاحة والمدنية [١] .

كان هدف اسماعيل العام التقدم فى الساحل والايغال فى داخل البلاد فى وقت واحد مع تدعيم احتلاله بتنفيذ سياسة اصلاحية واسعة وهذا ما حدا به بمجرد احتلال هرر فى سنة ١٨٧٥ — مما سنبينه فيما بعد — الى التعجيل باتمام الاستيلاء على ساحل السومال صوب المحيط الهندى لتحقيق مشروع عاجل يتصل اتصالا كليا بالمشروع العام : امتلاك منفذ جهة الشرق فى موازاة خط الاستواء لانشاء مواصلات مع المديريات الاستوائية التى تم فتحها ، مواصلات أسهل وأقصر من مواصلات النيل واقامة سور امبراطوريته فى أقصى الجنوب الشرقى على خط يصل بحيرة فكتوريا بساحل أفريقيا الشرقية فى مونباسة .

وهـــذا المشروع الضخم ستعمل انجلترا على احباطه بكل الوسائل لتقوم هى بتنفيذه فيما بعد .

والواقع أن التفكير فى المشروع يرجع الى سنة١٨٧١ أى منذ الشروع فى بسط نفوذ مصر لغاية خط الاستواء والبحيرات وكانت آخر محاولة فى تنفيذه فى سنة ١٨٧٦

ما كاد اسماعيل يكلف صموئيل بيكر (فبراير ١٨٧٠) بقيادة حملة أفريقيا الوسطى حتى أعد مشروعه الذى نحن بصدده فى القاهرة فكان خط السير المرسوم للكولونيل الأمريكى بيردى Purdy النزول فى مونباسه والوصول منها الى بحيرة فكتوريا من الطريق الذى يمر بين جبلى كينيا وكيليمانجارو .

ولأجل اخفاء الغرض الحقيقى من المشروع جرت اشاعة فى سنة ١٨٧١

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ ، مجلد ٣١٨٨ .

ان كارثة حلت بتجريدة صموئيل بيكر وان الحملة المرسلة لانقاذه يجب أن تدخل أفريقيا من نقطة قريبة من زنجبار .

روى بونولابك فى مؤلفه (مصر والجغرافيا) : « ان الضباط والجنود والسفن والمؤن كانت كلها معدة . ولكن أحداثا سياسية طارئة حالت دون تنفيذ هذا المشروع » .

وكان اسماعيل سلم الكولونيل بيردى خطابا يشتمل على تعليماته ليفتحه عند وصوله الى بلاد كيليما ، أوصاه فيه بأن ينشىء نقطة عسكرية فى مناطق جبال كيليما وأن يعمل « كمن يريد الاقامة والتوطن وأن يتبع مع تجار العاج والرقيق سياسة حكيمة معتدلة لأن الشعوب المحلية يجب أن تفهم أن مهمتنا لايربطها بمهمة أولئك التجار أى غرض مشترك ، والتجار يجب أن يفهموا أنك لاتذهب للاضرار بمصالحهم » .

وقد لخص اسماعيل فكرته العظيمة التى كانت محور سياسته الافريقية بقوله : « يجب على شعوب مناطق منابع النيل أن يكونوا من اليوم أصدقاء وحلفاء خديوى مصر » .

ومعلوم أن جبلى كيليما نجارو وكينيا من أعلا جبال أفريقيا وأجملها وأطيبها مقاما للأوربيين وهما الآن فى حوزة انجلترا وكان أولهما فى أفريقيا الشرقية الألمانية . .

وكان من المقرر انشاء خط على الساحل بواسطة البواخر من مصوع الى مونباسه وخط آخر خلاف خط مونباسه يمتـد من مين الساحل الشمالى (خليج عدن) بربرة وزيلع الى هرر فشوا فالجالا فالكافا حتى منابع النيل .

ويظهر أنه لما حيل بينه وبين مشروعه فى سنة ١٨٧١ فضل اسماعيل التريث حتى حل غردون محل بيكر مأمورا لمديرية خط الاستـواء فى سنة ١٨٧٤ واتفق مع غردون على تنفيذ مشروعه من جديد وارتأى أن

يكل رئاسة الحملة هذه المرة الى انجليزى ، ماك كيلوب باشا ، رئيس مصلحة المنارات ، بدلا من أمريكى ، عل انجلترا تسكن اليه وتهدأ ثائرة أطماعها .

على أن ذلك لم يمنع اسماعيل من مراقبة ماك كيلوب باشا بواسطة شاييه لونج الأمريكى الذى أشركه معه فى الحملة وبواسطة كبار القواد والمهندسين المصريين أمثال رضوان باشا حاكم بربرة الذى كان قائدا لمركبين حربيين وجمالى باشا وعبد الرزاق نظمى وحسن واصف وغيرهم .

وقد وصلت الحملة بربرة فى أواخر سبتمبر ثم اتجهت الى رأس حافون حيث وصلت فى ٥ أكتوبر (سنة ١٨٧٥) ، وفى اليوم التالى رفعت الراية المصرية على المدينة فأظهر الأهالى اغتباطهم بحكومة « السلطان اسماعيل » وقد استقبلهم هناك عم السلطان بتلك الجهة وقدم فروض الطاعة . ومن هناك ساروا الى براوة فقدم لهم أميرها كل مساعدة ، وقد وصلوا بعد ذلك الى قسمايو التى سميت بورت اسماعيل واحتلوا تلك الجهة بعد طرد الحامية التى كانت فيها من قبل سلطان زنجبار ثم بلغوا نهر الجب فى ٢٧ أكتوبر وأخذ حسن واصف فى اكتشاف ما وراء النهر باعتباره جزءا من بلاد السومال ورسم خريطة للنهر .

جاء فى ملحق تقرير « عن حوادث مأمورية سواحل أفريقيا الشرقية مقدم من عبد الرازق بك رئيس أركان حرب المأمورية وناظر المدرسة الحربية » مؤرخ فى ٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ هـ (٦ ديسمبر سنة ١٨٧٥) ، ثلاث وقائع هامة مرتبطة بعضها ببعض : الأولى أن ماك كيلوب باشا وفريد ريجو باشا والكولونيل ورد بك قاموا على رأس قوة لاستكشاف جهة لامو وفرموزة » — لامو وجزيرة فورموزة فى طريق مونباسة — وأن أحد أمراء جزر القومور « أخبر بوجود معدن فحم حجرى ونحاس غربى مونباسة وأن أهالى تلك الجهة يودون التتبع للحكومة المصرية » .

والثانية أن الأمير محمد نجل السلطان عبد الله سلطان جزيرة جوهَنَّه والأمير محمد نجل السلطان عبد الرحمن من جزيرة حنزوان ومعه كتاب من سلطان جزيرة القومور الكبرى عن رغبتهم التتبع للحكومة المصرية ، وكذا جزيرة مُهلَّة وبندر منياص « وصلوا قسمايو بقصـــد التوجه الى المحروسة فى ظل الحكومة الخديوية » .

وهذه الجزائر المختلفة تسمى جزائر القومور (Comore) وهى واقعة فى الشمال الغربى من جزيرة مدغشقر .

وقـــد روى شاييه لونج فى كتـــابه (حياتى فى أربع قارات) أن سيد على أخ السلطان عبد الله الذى كان حاكما على جزر القومور جاء يقدم الى مصر التاج الذى اغتصبه عبد الله وأن هذه الجزر قد وضعت فيما بعد تحت حماية فرنسا وصار الأمير على سلطانا على جزيرة قومور الكبرى .

ولاشك أن هذه الواقعة تبين الى أى حد بلغ نفوذ مصر الأدبى والسياسى فى أفريقيا خصوصا فى الأصقاع العربية .

أما الواقعة الثالثة فهى وصول كتاب من قومندان براوة يقول : « أنه بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وصلت سفينة حربية انجليزية بالقرب من براوة وان قومندان السفينة يصحبه أحد القناصل الانجليز وترجمان وبعض الجنود الانجليز أرادوا النزول الى البر ولكن اليوزباشى قومندان براوة أفهمهم أنه لا يستطيع الاذن لهم بانزال جنود مسلحين على أرض تحتلها القوات المصرية » وانه بتاريخ أول ديسمبر سلم أحد ضـــباط السفينة خطابا الى اليوزباشى يبلغه فيه « انه لم يُمنع قط من قبل من انزال جنود مسلحين فى هذه المناطق » فرد اليوزباشى « أن هـــذه البلاد أصبحت تابعة لمصر » عندئذ غادرت السفينة براوة قاصدة زنجبار . وجاء فى الختام « ان هذه السفينة كانت مكلفة بقمع تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا الشرقية » .

والواقع أن براوة وقسمايو كانتا تابعتين اسما لسلطان زنجبار الذى احتج على احتلال مصر وقد بادرت انجلترا بتأييده والتدخل فى القاهرة ونجحت فى حمل اسماعيل على ارجاع حملته .

اضطرت القوات المصرية الى الانسحاب دون أن تتمكن من وصل هذه الأقطار بالبحيرات وتدعيم نفوذ مصر فى جميع مناطق السومال .

وقد قام رؤساء الحملة ومهندسوها وبالأخص عبد الرزاق بك بأعمال جليلة فى أمد قصير .

كتب رضوان باشا الى مهردار الخديوى فى ١٨ شوال سنة ١٢٩٢ هـ (٢٨ نوفمبر سنة ٧٥) مشيرا الى هــذه الأعمال فى منطقة نهر الجب فذكر انشاء بستان مساحته فدان وقال ان الأشجار كثيرة على ضفاف النهر وأن خشبها يشبه الخشب الذى يرد من تركيا وطلب ارسال حطابين ونجارين وبنائين لتشييد بيوت من الحجر .

وفى ١٤ نوفمبر استقبل ماك كيلوب فى قسمايو ٢٠٠ من عقال وسكان أوجادين الذين أظهروا اغتباطهم وفرحهم بالحــاق بلادهم بالحكومة المصرية . وفى اليوم التالى وصل من سكان الجب وبراوة خطاب ممضى من عثمان شيغو وعلى القاضى والحاج محمد بن عبد القادر ومحمد بشير يقولون فيه انهم كانوا منذ ثمانية أعوام فى نزاع مستمر مع قبائل كبلالة وهرات وانهم يريدون الآن أن يعيشوا معهم على سلم وصفاء كاخوة . وفى الغد (١٦ نوفمبر) اجتمع على ظهر الباخرة محمد على عقال وشيوخ قبائل تونة وكبلالة وهرات وبراوة والجــزر التابعــة لتونة . روى عبد الرزاق نظمى فى يومياته : « وقــد أصلحنا بينهم وأقسموا جميعا على المصحف والسيف أن يظلوا متحدين وأن لا يهاجم بعضهم بعضا وأن يظل كل فريق منهم فى دياره يعمل على رفاهيتها وزراعة أرضها فى ظل الحكومة الخديوية . وقــد حلفت هــذه اليمين بحضــورنا أمام

ماك كيلوب ورضوان باشا وعلى بك شكرى قومندان المركب وآخرين من الضباط » . [1]

وكتب ماك كيلوب باشا فى ١٤ ذى القعدة (١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥) يقول ان عبد الرزاق بك يطلب ثلثمائة واثنى عشر رجلا من جميع الحرف والمهن من أطباء ومهندسين ونجارين وزراع وخبازين وذكر أشياء أخرى كثيرة لترقية المدائن .

هذه لمحة تكشف عن سياسة المصريين واتجاهاتهم العمرانية فى جميع مناطق البحر الأحمر والمحيط الهندى .

ومعلوم أن سلطان زنجبار مدين لانجلترا بالتخلص من التبعية لامام مسقط ، وكان الانجليز الآمرين الناهين فى الجيش والبريد وكان ممثلهم يوحنا كيرك مستشار السلطان برغش السياسى (١٨٧٠ — ١٨٧٨) . وبواسطة زنجبار كانت انجلترا تريد الاحتفاظ بأفريقيا الشرقية فى دائرة نفوذها .

ابتدعت سيدة البحار وسيلة جديدة تساعدها على انتهاج سياسة تدخل فى بحار أفريقيا الشرقية . ذلك أنها تحت ستار « مصالح الانسانية » أعلنت حربا لاهوادة فيها على تجارة الرقيق وأرغمت مصر وزنجبار ، فى سبيل القضاء على هذه التجارة ، على قبول شروط ومواثيق لاتتلاءم مع استقلالهما .

وقد فاتح السير اليوت سفير انجلترا فى الآستانة نوبار باشا أثناء وجوده بهذه المدينة فى عقد اتفاقية لالغاء النخاسة ولكن وزير مصر لم يوافق عليها خوفا من نتائجها واجتذاب « الزنابير الحمر الانجليزية الى سواحل مصر وحصونها » .

ولكن انجلترا تمكنت فى النهاية من حمل اسماعيل فى ٤ أغسطس

---

(١) من يوميات عبدالرازق نظمى بتاريخ ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ (سجلات عابدين) .

سنة ١٨٧٧ على توقيع اتفاقية الرقيق المشهورة .[1]

تقول المادة الرابعة من هذه الاتفاقية : « لأجل الوصول الى محاربة تجارة العبيد أو الأحباش بطريقة فعالة ناجعة فى البحر الأحمر توافق الحكومة المصرية على أن تقوم الطرادات البريطانية بزيارة وتفتيش — وعند الاقتضاء حجزها لتسليمها الى أقرب أو أنسب سلطة مصرية ، لمحاكمتها — كل سفينة مصرية تضبط وهى تتجر بالعبيد السود أو الأحباش ، وكذلك كل سفينة مصرية يرتاب فى أنها مرصدة لهذه التجارة أو تكون قد زاولتها فى أثناء الرحلة التى حدث لقيانها فيها .

« ويجوز استعمال حق التفتيش أو الحجز فى البحر الأحمر ، وخليج عدن ، وعلى طول ساحل بلاد العرب وساحل أفريقيا الشرقية وفى مياه مصر البحرية ومياه ملحقاتها ... » .

ولأجل ضمان تنفيذ اتفاقية ٤ أغسطس الجديدة وقع اختيار وزير بحرية انجلترا على القبطان ملكولم الذى عين بمرسوم خديوى بتاريخ أول يناير سنة ١٨٧٨ مديرا عاما لمصلحة الرقيق فى البحر الأحمر . وكانت له سلطات مدنية وقضائية ، وكان مقر عمله فى مصوع .

وكان أول طلب له على أثر تعيينه ، باسم تنفيذ المعاهدة ، طرد حاكم زيلع أبى بكر باشا ، بحجة أنه كان يشجع تجارة الرقيق . متجاهلا نفوذه العظيم ومنزلته بين أبناء قومه وعشيرته من سكان هذه المناطق . ولذلك

---

(١) فى سنة ١٨٧٧ أمضت انجلترا مع اسماعيل اتفاقيتين : الأولى بتاريخ ٤ اغسطس وهى خاصة بالرقيق والثانية بتاريخ ٧ سبتمبر وهى خاصة باعتراف انجلترا بسلطان الحكومة الخديوية على بلاد السومال لغاية رأس حافون وبتعهد الخديوى بعدم التنازل لأية دولة أجنبية عن أية قطعة من هذه البلاد وبتخويل الحكومة الانجليزية الحق فى تعيين مأمورى قنصليات فى جميع المين والجهات الموجودة على ساحل البلاد المذكورة . وتوجد فى هذه المعاهدة فى الشطر الأخير منها بنود خاصة بتجارة الرقيق .

اعترض غردون على هذا الطلب مراعاة لمصالح مصر التى ما كان فى وسعها أن تخمد ثورة يثيرها أبو بكر فى ذلك البلد القصى .

فلما رأى ملكولم أن غردون يقف فى سبيله وان الحكومة المصرية فطنت لأغراضه التى ترمى الى الجرى على سياسة العنف والارهاق لبذر بذور الفتنة والاستياء فى أقطار مصر النائية أظهر استعداده للاستقالة منذ شهر مارس أى بعد ثلاثة أشهر من تولى وظيفته .

علم بذلك وزير خارجية انجلترا فكتب الى قنصلها فى مصر فيفيان بتاريخ ٢ أبريل سنة ١٨٧٨ يقول : « سيكون من دواعى الأسف البالغ أن يضطر ملكولم الى التخلى عن منصبه اذ لايخفى عليكم أن فى وجود موظف ذى حزم وعزم لا ينى ولا يكل فى محاربة تجارة الرقيق الأمل الوحيد فى القضاء عليها قضاء مبرما لاسيما فى بلد تتغاضى فيه السلطات جميعا عن النخاسة والنخاسين [١] » .

وقدكانت الحكومة الانجليزية تميل بالطبع الىالتهويل من شأن النخاسة وانتشارها فى البحر الأحمر وذلك على الرغم من أن القبطان ملكولم نفسه أعلن فى تقرير له أن مجموع العبيد الذين يصدرون سنويا من الساحل الافريقى الى الساحل العربى لايزيد عن ١٧٠٠ ، وهذا العدد أقل بمراحل من ٣٠,٠٠٠ وهو العدد الذى وضعه نائب القنصل وايلد وتقدمت به الحكومة الانجليزية [٢] » .

أما فيما يتعلق بعزم ملكولم فقد كشف غردون عن مكنونهما . كتب فيفيان الى حكومته بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٨٧٨ يقول : « ان الكولونيل غردون كان يخشى أن تؤدى كل محاولة تعمل دفعة واحدة بغير روية وأناة لتنفيذ المعاهدة الى هدم كل عمله الشاق فى السودان

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ مجلد ١٥١١ . خطاب من فيفيان الى حكومته بتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٨٧٨ .

ذلك العمل الذى ينشئه بوسائل ناقصة مستعينا فيه بمصانعة الأهالى والترفق عليهم وحساب ألف حساب لمعتقداتهم الدينية الوراثية .

« وكان يخيل الى غردون أن انجلترا قد فرضت المعاهدة فرضا على الخديوى وأننا فرضنا عليه هو (غردون) بعد ذلك القبطان ملكولم كشبه جاسوس واننا لم نكتف بذلك بل أثقلنا ميزانية السودان بحمل نفقات هذا الموظف الذى لم تكن له حاجة اليه [1] » .

والواقع أن غردون رجل غريب الأطوار تجتمع فيه الأضداد ينزو ويلين وقد ينزو ولا يلين وقد يلين طويلا ثم ينزو وبين هذا وذاك تتجاذبه عوامل مختلفة مدا وجزرا من نزاهة أصيلة فى الطبع وسياسة أجنبية تريد أن تملى عليه خدمة مصالح معينة يستقبلها كما يستقبل الحرباء الشمس ويدور معها كيف دارت .

وهذا مايفسر لنا سر اضطراب سياسته وحنق معظم الساسة الانجليز الرسميين عليه . وقد أبدت الحكومة الانجليزية استياءها من مسلك غردون ازاء ملكولم فكتبت الى قنصلها ، فى ٣١ مايو سنة ١٨٧٨ ، تقول : « ان الكولونيل غردون يسوف ويهادن النخاسين كمن لايحس فى نفسه القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

ظاهر من هذا التحريض ما ترمى اليه الحكومة الانجليزية فى حالة اضطرارها الى التضحية بملكولم. وفعلا استقال ملكولم فى يونية سنة ١٨٧٨ فبادر القنصل فيفيان بناء على تعليمات حكومته الى التصريح بأن « الخديوى وغردون يجب أن يكونا مسؤولين عن الاجراءات الناجعة الواجب اتخاذها للقضاء على النخاسة التى لايزال شرها مستفحلا فى مين سواكن وزيلع وتاجورة [2] » .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ ٠ مجلد ١٥١١ ٠

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ٠ رقم٨٤ مجلد ١٥١١ ٠ الاسكندرية فى ٩ يونيه سنة ١٨٧٨ ٠

وسنرى ، فيما بعد ، انه ابتداء من ذلك الوقت (يونيه سنة ١٨٧٨) سيجرى غردون فى السودان على الرغم منه على سياسة رسمتها له انجلترا وسيقيم فى أرجائه الواسعة حكومة حرب وارهاب .

الواقع أن غردون وبيكر وملكولم قد فرضتهم انجلترا على اسماعيل فى السودان . ومن حسن الحظ أن اسماعيل قد فطن الى مرامى السياسة الانجليزية فعمل جهده ، ولم يلن ، فى الاحتفاظ بالمناطق النائية الممتدة من بربرة الى هرر للحكام المصريين وللادارة المصرية البحتة التى ظلت تعمل فى صمت على احياء هذه البلاد وفتح سبل المدنية فيها .

* * *

من بربرة أخذت الحضارة المصرية توغل فى البلاد وكان أول عناية رضوان باشا مأمور بربرة وزيلع وملحقاتهما توطيد الأمن فكانت الحكومة المصرية ترسل الى بربرة مركبا حربيا يرسو فيها طوال فصل الشتاء وكان قائد المركب مسئولا عن النظام فى المدينة .

وعلى ظهر هـذا المركب كان يقيم جماعة من المهنـدسين المصريين كعبد الرازق نظمى ومحمد بهرام الذى خلفه لاستكشاف ما وراء الميناء ، وقد عنوا بادىء ذى بدء بدرس الينابيع والمجارى القديمة التى عفى عليها الزمن ورسموا خرائط وافية للمناطق الداخلة وأعدوا تصميمات لاستحداث مجار ومدينة جديدة منفردة عن منزلة العشش .

فى ظرف خمسة أعوام ، من سنة ١٨٧٢ الى سنة ١٨٧٧ ، نشأت بالقرب من الشعب أو القرية القديمة المدينة التى أسسها المصريون ، فيها منارة تهدى السفن ، وفيها مراس وأرصفة من الحجر ، وفيها مخازن مشحونة بالفحم لتموين المراكب البخارية ، وفيها بيوت منتظمة وشوارع مصفوفة نظيفة لا أثر فيها للأقذار المتراكمة التى كانت مصـدر أوبئة وأمراض ، وفيها بستان جميل وجامع فخم .

وقد فاض الماء الحلو فى أرجائها آتيا من جبل الدوبار فى مواسير

ممدودة ، ولما كان الماء عند تفجره من الصخر فى سفح سلسلة الجبال البحرية ترتفع درجة حرارته ارتفاعا كبيرا بنيت صهاريج لتبريده قبل مروره من السهل الى الخزانات ، ولا يزال الحصن القديم الذى بناه المصريون فى الدوبار يحرس المنبع الى اليوم .

وكان فى المدينة مستشفى ، كما كان الأمر فى زيلع ، وصيدلية ، ومخابز وطواحين ومكتب بريد ضمن حدود اتحاد البريد العام ، ومصابيح مضيئة بالغاز كنظائرها بمصر وشوارع الأزبكية ، وانتشرت العملة المصرية وشاع أمرها بالقرى والجبال على مسافة ثلاثين يوما فأقبل عليها التجار للتعامل بها .

وبالجملة صارت بربرة ميناء تتضاءل أمامه عدن ، وقد اعترف هنتر قنصل انكلترا فى السومال فى رسالة مؤرخة ٦ يونيه سنة ١٨٨٤ بأن المصريين « أنجزوا فى بربرة من الأعمال العمومية الأساسية ما يصح أن تفاخر به أية ادارة » .

وقد بلغت تكاليف المبانى فى بربرة لغاية سنة ١٨٧٧ زهاء ٧٠,٠٠٠ جنيه عدا أربعين ألف جنيه أنفقت على الجنود والسفينة المرابطة بالميناء .

ولما أرغم الانجليز اسماعيل بمعاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ على جعل مينائى بربره وبلهار حرين أعفيت صادراتها من الرسوم والعوائد الجمركية فأصبح دخل المدينة لايزيد عن ١٧٠ جنيها فى السنة مع أن المركب الحربى وحده كان يكلف الحكومة ٣٠٠ جنيه فى الشهر .

كانت بربرة تصدر الى عدن فى العام ١٠,٠٠٠ بقرة و ٦٠,٠٠٠ خروف عدا الزبدة . كتب رضوان باشا الى المعية السنية فى ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ (٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦) يقول : « انه قبل مجىء المراكب الخديوية الى هذه الأصقاع كانت عدن فى ضيق مستمر طوال أشهر الخريف من مايو الى سبتمبر وذلك لأن الزبدة والأبقار والخرفان كان

من الصعب شحنها على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العواصف ، وكان ثمن رطل اللحم فى عدن خمسة قروش وكانت الزبدة لا وجود لها بالمرة ولكن بعد احتلال المصريين ومرور مراكب البريد المصرية فى مياهها أصبح من الميسور ارسال الزبدة والبيض والغنم والأبقار الى عدن فى كل وقت وصار ثمن رطل اللحمة قرشا واحدا وكثرت الزبدة » .

وقد ترتب على انتشار المعاملات طبقا للأحكام السياسية والشرعية وازدياد العمران والأمن والراحة أن قبيلة عيال أحمد السومالية التى كانت كغيرها لا تقيم فى بربرة الا فى فصل الشتاء أخذت تبنى بيوتا ودكاكين تقضى فيها العام كله .

ولا ريب أن استقرار السومال فى بربرة بعد حياة التنقل والقتال يذكرنا سياسة ابراهيم باشا فى سوريا اذ كان أكبر همه تثبيت البدو الرحل وتحضيرهم حتى تتغير طباعهم ويجدوا فى الزراعة والعمران معاشا لهم .

كتب جبرائيل فيران ، الذى كان قنصلا لفرنسا ثم وزيرا مفوضا ، على أثر زيارة عملت فى سنة ١٨٨٣ : « أنشأ المصريون فى بربرة بمعزل عن الحى الوطنى مدينة أفريقية صغيرة عليها نضرة ونعيم ، وأتوا بالماء من جبل الدوبار الذى يبعد اثنى عشر كيلو مترا من الساحل وأقاموا مبانى من محافظة ، ودار للشرطة وسجن ، وبيت للحاكم على الطراز الأندلسى بداخله حديقة لاقامة الزوار الغرباء ، وكان أسلوب البناء مطابقا لمقتضيات الجو وحره المستعر ،

« وكانت العناية توجه كل يوم لتنضير قطع الرياض والزهر وزراعة الخضروات طوال السنة ، وكان فى الميناء منارة تبدو على بعد خمسة عشر ميلا ورصيف يسمح بتفريغ وشحن المراكب الكبرى وتزويدها بالماء .

« ولا ريب أن هذا العمل يدعو الى الاعجاب لاسيما اذا تذكرنا أن

الذى قام به حاكم شرقى وأن بربرة كانت تملك وقتئذ موارد واستعدادات للتموين أعظم ألف مرة من موارد واستعدادات جميع موانى أفريقيا الشرقيــة من السويس الىموزانبيقة فى متسع من الساحل لا يقل عن سبعة آلاف كيلو متر » .

وقد زار بربرة كاتب انجليزى ، مستر جيمس ، فى مارس سنة ١٨٨٤ وكانت لاتزال تقيم بها حامية مصرية ، ثم عاد فزارها فى شهر نوفمبر ، وكان قد أخلاها المصريون فأتيح له أن يحيي الراية الانجليزية « التى كانت تخفق على أنقاض الادارة المصرية السيئة » ولكن المؤلف قد ناقض نفسه بنفسه اذ وصف بربرة فى مكان آخر من كتابه فقال : « ان المدينة الحديثة قد بلغت من الحسن والتأنق حدا لا زيادة فيه لمستزيد ... كانت دار الحاكم السابق يزينها روض نضير ترويه « فسقية » ذات روعة بنيت بضروب مختلفة من المرجان ... وتوجد منازل مصرية بهيجة .

« وقد زرنا احدى هذه الدور التى كانت فى الأصل مخصصة للحاكم فلما ألقينا فيها رحلنا خيل الينا أننا نقيم فى منزل من منازل الرومان فى عصر بومباى ، بصحنه وبستانه والرواق الذى يحيط به ويوصل الى الشقق المختلفة والى حمام فسيح فى أكمل حال » .

وقد أدخل المصريون تحسينات كثيرة على ميناء بلهار حيث ظلت فى مكان المدينة الجديدة بعض العشش من الحصر لغاية الاحتلال المصرى للسواحل بعد سنة ١٨٧٠ . وسرعان ما أنشأ المصريون منارة فى أعلا دار اقامة الحاكم وأربع بنايات عمومية أهمها مبنى الجرك الذى كانت ترد اليه البضائع من الداخل لتصديرها . وقد شيد أيضا بالحجر بيتان صغيران لسكنى موظفى الحكومة .

وكان المصريون يقيمون فى بلهار طوال الفصل المعتدل حتى اذا أقبل الخريف المزعج الذى يغطى البيوت بالرمل هاجروا الى بربرة [١] .

(١) D. Brockman, British Somaliland, 1912.

استحدثت اصلاحات فى زيلع ولكن أهميتها التجارية لم تتحقق لأنها الميناء الطبيعى لمملكة شوا الحبشية فكان لا بد من فتح طريق القوافل الذى يمر بأوسه الى شوا بين قبائل الدناكل الغادرة المنتشرة على ساحل البحر الأحمر من مصوع الى باب المندب ومنه ينتشر السومال الى المحيط الهندى . على أن حملة مونتسنجر لم تنجح فى الاستيلاء على هذه البلاد اذ تمكن شيخ أوسه وحلفاؤه الأحباش من استدراجه فى الصحارى وقتله غيلة عند بحيرة أوسه فى نوفمبر سنة ١٨٧٥

وقد انتعشت تجارة زيلع قليلا بفضل احتلال هرر واستتباب الأمن والمواصلات بين الميناء والبلاد النائية فى محيطه .

* * *

من زيلع نزل محمد رؤوف باشا ، فى ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ ، على رأس جيش مصرى لاحتلال هرر وقد اخترق أراضى السومال ولم يلق صعوبات فى طريق زحفه الا ابتداء من جورجورا على حدود النولى — جالا حيث يصير الطريق دربا ضيقا يشرف عليه الجالا من عل . ولكنه مزق شملهم ودخل مدينة هرر فى ١١ أكتوبر ورفع الراية المصرية عليها بين تهليل السكان وتكبيرهم ، وكانت المدينة تئن تحت ظلم أميرها محمد عبد الشكور منذ عشرين سنة فانتظم أمرها وأخذت تستقبل عهدا جديدا . ويحسن بنا هنا أن نذكر كلمة عن تاريخ مملكة هرر .

انتشر العرب فى أفريقيا الشرقية فى أواخر القرن السابع وقد أسس مدينة هرر جماعة نزحت من حضرموت أو اليمن ثم قامت دولة عادل الشامخة وكانت زيلع عاصمتها ، وكانت بربرة التى أسسها البطالسة قديما جزءا منها فى القرن الثالث عشر ، وكانت دولة عادل بفضل مناعتها تُدل على الحبشة المسيحية وتنافسها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

ولما ملك الأتراك فى القرن السادس عشر مصر وبلاد العرب احتلوا جميع السواحل فانتقلت عاصمة الملك من زيلع الى هرر فى سنة ١٥٢١

ثم أخذ الأتراك يمدون اخوانهم فى الدين بالمدافع والأسـلحة وكان البرتغاليون يزحون من الهند لنصرة الأحباش وقد تمكن سلطان هرر من الاستيلاء على معظم الحبشة ولكنه هزم فى النهاية ، من ذلك الوقت (١٥٥٣) أخذ الاضمحلال يدب فى دولة عادل القديمة .

وكان يحكم هرر فى أواخر القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر أمراء من أشراف مكة وقد أخذت حدود الأمارة تضيق حتى انحصرت فى جدران المدينة فبعد أن كان أمير هرر يسيطر على قبائل الجالا والسومال المنتشرة بين المدينة والساحل صار عرشه تحت رحمتهم ، وكان يظلم المدينة ويستعدى عليها حلفاءه الجالا ليؤيدوا سلطته بسلاحهم .

والسومال أمة عربية تمتد مملكتهم الواسعة داخل مثلث قاعدته جبال الكافا أو خط وهمى من خليج تاجورا الى نهر تانا وضلعاه ساحل خليج عدن (١١٠٠ كيلو متر) وساحل المحيط الهندى (٢٢٠٠ كيلو متر) .

وهى مملكة غنية بمواردها من صمغ ومر وبخور ومطاط وخيل وأنعام لا عدد لها بفضل جبالها وسهولها ومراعيها الزاهية وشجرها ، أهم أنهارها الجب الذى ينبع فى هضبة الجالا ، وهى على اتصال بمملكة شوا الحبشية وهضبة هرر الخصيبة .

والسومال قوم أشداء رحل بطبعهم يعيشون من تربية الأنعـام والتجارة ولكن نزوعهم الى النهب والسلب كان سببا فى كساد التجارة فى بلهار وبربرة .

تنقسم قبائلهم الى جماعات أربع :—

الجماعة الأولى — جماعة الشمال أهم عشائرها حبر أول وعيسى والجادا— بورسى ويبلغ عددها زهاء ١٣٠,٠٠٠ جميعهم مسلمون أميون . والثانية جماعة هرر ، والثالثة سومال الأوجادين وهى واقعة فى داخل السومال لم يدخلها أوروبى لغاية سنة ١٨٨٣ ، وكان فى كل قبيلة أدباء وشعراء

يرتجلون الشعر . والرابعة – جماعة الجنوب أو ســاحل بنادر كانت منتشرة على جوانب نهر وبى ومنطقة الجب السفلى .

وتمتد أرض الجالا فى الشمال الشرقى من بحيرة فكتوريا بين هضبة الحبشة فى الشمال ومملكة السومال فى الشرق وبلاد العروس وبوران فى الجنوب .

وكان تعــداد الجالا يزيد على العشرة ملايين وهم أكثر الأجناس الأفريقية بهاء وروعة ، رآهم المبشر « كرابف » فأعجب بطلعتهم الحربية وطول قامتهم ، وهم وثنيون أذكياء يقيمون حول هرر فى المناطق الجبلية الخصبة ولهم فيها مراع نضرة وأنعام كالهياكل .

وهم قوم ذوو شجاعة واقدام يتجمعون فى المكان الوعر من أعالى الجبال للبطش بأعدائهم ، كانوا يقطنون سواحل خليج عدن فى القرن الخامس عشر ولكن حروب الغزو والفتوحات جرتهم الى مملكة شوا وجنوب الحبشة حيث أقاموا ثم ما لبثوا أن احتلوا حوالى سنة ١٧٠٠ هضبة هرر فأذلوا أميرها وأرهقوا القوافل .

وينقسم جالا هرر الى جماعات ست : النولى ويقيمون فى الشمال بين محطة جلديسة وهرر فى بلاد جبلية غزيرة الأمطار يترعرع فيها القمح والأذرة ، وقبائل الجارسو فى شرق هرر والآلا فى جوارهم وفى الجنوب والغرب ، والعروس والأنبيا فى الجنوب ، والايتو فى الغرب .

وكانت كل قبيلة تنقسم الى أفخاد وبطون وفصائل لا حصر لها شأنهم فى ذلك شأن السومال الذين بدلا من أن يؤلفوا خمس قبائل كبرى متجانسة كانوا موزعين بين خمس وثمانين قبيلة .

ولا ريب أن تكاثر العشائر ، وتضاؤل مملكة هرر بينها وانتشار الجهل والبدع والفوضى فى جميع الأرجاء كانت أكبر عوامل الاضمحلال .

لم يكن هناك أثر للصناعة لأن حاجات القوم فى المسكن والملبس

والمأكول محدودة . وقد كانت هرر المدينة الوحيدة المبنية بالحجر ، وكانت الزراعة لا تزيد عن حاجة المراعى وقد اقفرت أراض واسعة صالحة للزراعة بسبب الاهمال .

وكانت التجارة المرتزق الوحيد وكانت مقصورة على فصل الشتاء : ذلك أن معظم السومال والجالا كانوا يقيمون فى الصيف على الهضاب يتمتعون بجوها المعتدل ويرعون قطعانهم الضخمة من غنم وأبقار وخيول وبغال حتى اذا جاء الشتاء وقف هطول الأمطار على الهضاب العالية واستمر فى الأراضى السفلى منذ أواخر سبتمبر ، فيبرد الجو ويزكو النبات ، وحينئذ يطمئن التاجر الى توفر الماء والعشب فى الطريق للسائمة فيرحل قاصدا ميناءى بلهار وبربره زمن الموسم .

وكانت ريح الشتاء تساعد السفن الشراعية من ناحية أخرى على اجتياز البحر والوصول الى الموانى ، وكانت بربره الميناء الطبيعى لهرر والأقاليم المجاورة وخير مرسى للسفن ولذلك كانوا يقولون : « ان الذى يهيمن على بربره يمسك بيده ذقن هرر » .

كان تجار الداخل يفــدون من جهة الحبشة وهرر الى بربره بالبن والعاج وريش النعام والجلود والصمغ والغنم والأبقار والزبدة وكانت السفن الآتية من عدن وحضرموت ومسقط واليمن تحمل الأرز الهندى والبلح والأقمشة القطنية والدخان والحديد والنحاس والسكر والشاى والأنبــذة ، وكان التعامل من طريق المقايضة لأن العملة كانت قليلة الاستعمال .

ولكن عــدم توفر الأمن كان من شأنه شــل الحركة الاجتماعية والاقتصادية فان القوافل الآتية من الداخل كانت تدفع الضرائب الفادحة لأمير هرر والقبائل التى تمر بها ، وكان تجار الخارج هدفا لقبائل الساحل التى كانت ترغم كلا منهم على اصطحاب رجل من العشيرة يسمى « القبان» كان يقاسمه ربحه نظير حمايته له .

وكانت البضائع أحيانا — بدلا من أن تصل من هرر الى الساحل فى خمسة عشر يوما — تقطع الطريق فى عام ونصف أو عامين مما أدى الى تدهور زيلع وبلهار وبربره .

وكانت بربره — كموانى الساحل كلها — مجموعة عشش أو بيوت من الخشب ، مقفرة فى فصل الصيف موحشة لا تعرف الحياة الا أشهر الشتاء الستة اذ يبلغ عدد السكان من ٢٠ الى ٢٥ ألفا .

الاحتلال المصرى — كان الاحتلال المصرى لهرر فى الداخل بعد احتلال الساحل ذا أثر بعيد فى حياة البلاد .

تقع مدينة هرر فى سهل مخصب تطالعه من كل جانب تلال مخضرة تعلوها خمائل البن والقات ، يبلغ سكانها ثلاثين ألفا وكلهم مسلمون على مذهب الشافعى .

كان أمير هرر محمد بن عبد الشكور كما قلنا مستبدا برعيته يحرم أكل الأرز والبلح والثريد بحجة أن أمثال هذه الأطعمة اللذيذة من حق الملوك وحدهم وكان يحتكر تجارة العاج وريش النعام والبن الذى هو أعلى من البن اليمنى يزكو زرعه فى ضواحى المدينة ولكن فى أراضى الأمير وحدها وأراضى أعوانه .

وكان يحرم على السكان أن يغطوا رؤوسهم وقاية من البرد أو الحر . وبلغ من تعسفه أنه اذا هم بالبصق تسابق الحضور الى تقديم كم قميصهم .

وقد ألغى رؤوف باشا الحكر كلها وبدأ يعنى بترقية الزراعة فزار البـــلاد المختلفة وتبين له أن نصف الأراضى التى كانت تملكها القبيلة الواحدة كان مزروعا والنصف الآخر الذى هو أصلح للزراعة كان متروكا فحث الأهالى على الزراعة وكان يلجأ الى القوة أحيانا ليرغمهم عليها . وقد وزع الأراضى بينهم فكان الجراد (أو العمدة) يفد عليه ويقدم له خمس بقرات كضريبة فيمنحه قفطانا من الشيت وطاقية وعمامه

من بفتة بيضاء ويرسل معه مندوبا من قِبله يحدد له ألف فدان لاستثمارها وكان الملاق (أو شيخ البلد) يحضر بقرتين فيعممه بأربعة أذرع ويحدد له خمسمائة فدان .

وقد دأب رؤوف باشا على محاربة الفوضى والبدع واهراق الدماء فقاتل الجالا مرارا وضربهم بيد من حديد . أما قبائل عيسى السومالية المسلمة فقد عمل على تأديبهم بمحاربة الأمية الفاشية بينهم وبث تعاليم الاسلام الصحيحة .

كان السومال يفاخرون بقتل الجالا غدرا وكانوا كلما وفقوا الى ذلك غرسوا فى شعورهم ريشة نعام بيضاء تقوم مقام الوسام . ولطالما نهاهم رؤوف باشا عن هذه العوائد الهمجية وحاول اعادة الأمن وتسهيل تجارة القوافل فعبد الطريق الذى يصل هرر بزيلع وجعله صالحا للعربات وأنشأ عليه محطات عسكرية مزودة بالماء .

ذكر « بوليتشكا » فى كتابه عن هرر أن انشاء مدينة جلديسا الهامة عند تقاطع طرق هرر وشوا وزيلع فى أراضى عيسى والجادابورسى يرجع الفضل فيه الى المصريين وحدهم وبالأخص مختار بك .

وقد ساعد انشاء المحطات فى تعميم التجارة حتى أن القوافل التى كانت تصل من الساحل الى هرر فى عصر الأمراء وكان عددها لا يزيد على السبعين صار عددها أربعمائة فى السنة فى عهد الادارة المصرية وكان من عوامل انتشار التجارة فى البلاد حلول العملة المصرية محل البدل أو عملة الأمير التى كانت قليلة الانتشار لاقيمة لها .

وقد عنى رؤوف باشا بالصناعة المحلية فكان الحاكم وكبار الموظفين من المصريين يلبسون ملابس مصنوعة فى المدينة ليقتدى بهم السكان فيقتنوا ملابس مفصلة بدلا من الأثواب أو الشقق التى كانوا يتلفعون بها .

وضع رؤوف باشا فى الوقت نفسه برنامجا واسعا للمنشآت

اللازمة لتجميل المدينة وتوفير أسباب الرفاهية والعمران فيها واستعان بالجند لتشييد معظم المبانى الحكومية وبيوت الموظفين .

وخلاصة القول أحدث رؤوف باشا ثورة اصلاحية عامة فى هرر فى ثلاثة أعوام . وقد عاد الى مصر فى سنة ١٨٧٨ على أثر خلاف حدث بينه وبين غوردون حكيمدار السودان . وقد خلفه رضوان باشا الذى أنشأ بربره فجرى على سياسة سلفه ، ولما كانت هرر ينقصها الماء الصالح للشرب ابتنى رضوان باشا حوضا فى المدينة جلب له الماء من عين قريبة ووزعه بنظام كامل من المجارى واجتهد فى محاربة تعاطى البوظة وغيرها من المخدرات التى كانت تفتك بالجهاز العصبى والحيوية .

وكان محمد نادى باشا الذى أعقب رضوان باشا فى يونيه سنة ١٨٨٠ حاكما ممتازا وفى عهده عين أحمد بك وعدى رئيسا لأركان حرب الجيش فنجح فى ادخال قبائل كثيرة فى حوزة الحكومة .

زار الرحالة الايطالى « أنطوان سيكى » هرر فى أيام نادى باشا (١٨٨١) فلاحظ رفاهة المدينة وتبين له « أن حالتها المعنوية تطابق حالتها المادية وأن المصريين تبـدو عليهم سيماء الفاتحين الرافعين لواء الحضارة اذ يعلمون الأطفال القراءة والكتابة والفتيان الصلاة والشريعة السمحاء ، ولا ينكر انسان أن الطريقة التى يتعهدون بها الأمن فى المدينة وضواحيها جديرة بكل اعجاب واطراء . ومن التحسينات الكبيرة التى أدخلوها النظام القضائى الذى أصبح — على الضد من نظام الأمراء السابقين — يقضى بالعدل من غير هوادة ولا ابطاء » .

وكان آخر حكام هرر من المصريين على رضا باشا (ديسمبر سنة ١٨٨٢ — أكتوبر سنة ١٨٨٤) ، واليه يرجع الفضـل فى مطاردة المتطببين والمشعوذين .

وسنرى فيما بعد كيف أرغمت انجلترا مصر على اخلاء هرر وبربره

وزيلع فى سنة ١٨٨٤ لتستولى هى على الساحل ومينه وتترك الحبشة تحتل هرر فى سنة ١٨٨٧ .

نتائج الحكم المصرى — فى مدة لم تتجاوز التسعة أعوام فى هرر (١٨٧٥ — ١٨٨٤) والاثنى عشر فى بربرة (١٨٧٢ — ١٨٨٤) وصلت الادارة المصرية البحتة فى هذه الأقطار النائية الى نتائج باهرات لم تبلغ بعضها الادارة المصرية الأوربية فى السودان وقد كانت هذه أجمل صفحة فى تاريخ اسماعيل والحكم المصرى .

وحسبنا أن نذكر أن الزراعة قد امتدت فى مناطق الجالا وظهرت للبن مزارع واسعة باسقات ، وقد عمم المصريون زراعة الكرم واللوز والخوخ والليمون والبرتقال والمشمش والموز وجميع بقول الدلتا وحبوبها من قمح وقصب سكر وبطاطس وقرع وبنجر وشمام وبطيخ وخيار وقثاء .

أجل كان الهرريون لا يجهلون بعض أشجار الفاكهة ولكنها كانت نادرة الوجود فلم يكن فى مملكة هرر كلها حين دخول المصريين الا أربع عشرة كرمة ولم يكن بها خضروات قط .

وقد انتعشت التجارة بفضل ظهور محصولات جديدة فى السوق كالبن والقطن ، وتأمين الطرق وخلق المدن وتوافد التجار الأجانب والعمال الأوروبيين فى داخل البلاد والعناية بتربية الأنعـــام وانتشار العملة .

ووجدت لأول مرة فى هرر ادارة منظمة وبوليس وجيش وجمرك وقضاء وقوانين ولوائح ، فحتم المصريون اعلان الزواج وتسجيل عقود البيع الخاصة بالعقـــار والبيوت والبساتين وأنشئت مصلحة للصحة ومستشفى كبير ، وصدرت أوامر تنص على عدم خروج أى جثة من أبواب المدينة دون اعلان السلطات المختصة .

وكان يقيم فى هرر ١٤,٥٠٠ مصرى من مدنيين وعسكريين تزوج منهم

من أهل المدينة واقتنوا أملاكا وأنفقوا ما استطاعوا فى بناء البيوت عملا بأوامر الحكومة التى كانت تريد أن تعطى مثلا للسكان ليتنافسوا فى الأخذ بأسباب العمران ، فلما أخلى المصريون هرر على عجل بيعت أملاكهم بالمزاد فخرجوا صامتين .

ولو دام الحكم المصرى — كما اعترف بذلك قنصل انجلترا فى السومال — لاعتنق الجالا الاسلام ، الذى هو خير ألف مرة من الوثنية ، ولهيمنت مصر على الملايين من قبائلهم المنتشرة فى قلب أفريقيا ، ولو دام ذلك الحكم لانتقل السومال من حالة الفطرة والجهل الى حال أخرى ولدخلوا فى ميدان الحضارة أفواجا ولتحققت أمنية محمد مختار رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى بداية الفتح اذ كتب فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٥ متمنيا « أن تؤلف مصر فى ظل حكومة اسماعيل حكومة واحدة من البحر الأبيض الى خط الاستواء وأن تصل مملكة هرر الى أعلى درجة فى الرفاهة والتقدم فى الشرق بعد مصر » .

وقد قام محمد مختار وأعوانه المصريون بأعمال جغرافية جليلة كانت فتحا جديدا ، من ذلك :

أولا — اكتشاف المناطق بين زيلع وهرر ووضع خريطة للمدينة وضواحيها من صنع محمد مختار وعبد الله فوزى .

ثانيا — اكتشاف ومسح المناطق بين بربرة والدوبار ووضع خريطة لها من رسم عبد الرازق نظمى .

ثالثا — اكتشاف المناطق بين تاجورا وبحيرة أوسا بواسطة محمد عزت .

رابعا — اكتشاف مناطق نهر الجب وقسمايو بواسطة صدقى وعبد الرازق وحسن واصف .

خامسا — وضع خرائط متنوعة دقيقة لهرر وملحقاتها عملت بمعرفة أحمد وعدى وعبد الكريم عزت .

وقد اعترف كثيرون من علماء الأجانب بآثار الحكم المصرى . زار المهندس الايطالى بريكيتى هرر سنة ١٨٩٦ ورأى ما آلت اليه حالها فقـال : « ان تباشير العصر الذهبي طلعت على هرر فى أيام المصريين اذ أخذت البلاد تفيق من غفلتها وتحيا حياة جديدة وظهر النشاط فى الأرض فخرجت من غضون الوديان الوعرة جنات فاكهة وحقـول حنطة » .

وكتب (بوليتشكا) النمسوى فى كتاب رحلته يقول : « ان الاحتلال المصرى حادث كبير فى تاريخ هرر وكيف لايكون كذلك وقد تمكن المصريون من ادخال ثقافة شرقية فى بلد همجى ونشروا التجارة وأمنوا السبل وبالجملة أحدثوا انقلابا خطيرا فى أحوال هرر . وان الذى يعرف الشرق — ولا سيما البلاد الافريقية الخالية من أبسط مبادىء الثقافة — لا يسعه الا أن يقرر أن المدنية المصرية تحتل مكانة عالية من المدنية عامة . ومن الثابت أن استيلاء المصريين على هرر وزيلع وبلهار وبربرة وجميع الساحل لغاية رأس جردفون كانت له ، فى مجموعه ، نتائج ثورية لا فى هرر فحسب بل فى جميع القسم الشمالى من أفريقيا الشرقية ، نتائج لا أظن أن احتلالا آخر وصل اليها فى أفريقيا » .

الفصل الخامس

امتداد السودان صوب منابع النيل

أخطأ اسماعيل فى حسابه اذ توهم انه قد يكسب عطف انجلترا ومعونتها فى تنفيذ سياسته الأفريقية بالاستعانة بموظفيها فى حكم السودان وبسط حدوده جنوبا . فالى هذه الادارة المختلطة التى ظلت من سنة ١٨٧٠ لغاية سنة ١٨٧٩ ترجع معظم أسباب ثورة المهدى واضطراب الأحوال فى السودان . وقد هيمنت هذه الادارة أولا على شؤون أواسط أفريقيا وأقاليم خط الاستواء (صاموئيل بيكر ١٨٦٩ — ١٨٧٣ وغردون ١٨٧٤ — ١٨٧٦) ثم على شؤون السودان كافة بتعيين غردون فى وظيفة الحاكم العام (١٨٧٧ — ١٨٧٩) .

ويلاحظ أنه بينما كانت الأمور آخذة فى الاستقرار وحركة الاصلاحات فى تقدم مستمر فى مناطق الادارة المصرية البحتة فى هرر وسواحل البحر الأحمر كانت شؤون السودان المالية والاقتصادية والسياسية والعمرانية فى هذه الفترة فى ارتباك مستمر .

١ — صاموئيل بيكر فى أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ — ١٨٧٣) :

يجب أن نذكر أولا أن انجلترا كانت مهتمة منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر بتمهيد سبيل الاستعمار فى أفريقيا بواسطة المبشرين والمكتشفين فكان المبشر الألمانى (كرابف) مندوبا لجمعية المبشرين الانجليزية وهو الذى اكتشف جبل كينيا فى سنة ١٨٤٩ . واكتشف الرحالة

الانجليزى (اسبيك) بحيرة فكتوريا نيانزا (نيانزا بمعنى بحيرة) نسبة الى الملكة فكتوريا (١٨٥٨ م) وهى أكبر بحيرات القارة تقع فى شمالها أوغندة وفى جنوبها أفريقيا الشرقية الألمانية القديمة . ولا تبعد من المحيط الهندى بأكثر من ٦٥٠ كيلو مترا وهى تعد لهذا السبب فى منطقة أفريقيا الشرقية . وقد كانت وجهة اسبيك اليها من طريق زنجبار والساحل وهو الطريق الطبيعى . وقد زار اسبيك فى أثناء رحلته أوغندا وملكها امتيزا .

وكان الرحالة بيرتون Burton يصحب اسبيك فى اكتشافاته وكلاهما كان تابعا لشركة الهند الشرقية ، وقد اشتركا معا قبيل الوصول الى منطقة البحيرات فى اكتشاف هرر وزيلع وبربرة وما اليها .

كل ذلك يلقى ضوءا واضحا على أغراض السياسة الانجليزية المبيتة وعلى بعد نظرها وقدرة منفذيها .

وقد اكتشف بيكر فى سنة ١٨٦٤ بحيرة ألبيرت أو البيرت نيانزا وهى أهم منابع النيل بعد فكتوريا ، وكانت هذه الرحلة الأولى لحساب الحكومة الانجليزية ، وكان طريقه فى الذهاب والعودة يمر بالقاهرة والخرطوم وغوند وكورو ، وقد زار بيكر مملكة الأونيورو المجاورة لأوغندة ، وزار مليكها .

وظاهر من كتابات أولئك المستكشفين جميعا أن كراهية العرب الذين نزحوا الى أفريقيا وتغلغلوا فيها متأصلة فى نفوسهم سيما وأن أولئك العرب كانوا يمثلون المدنية وسط الهمجية والوثنية بلباسهم وعقائدهم ومعاملاتهم التجارية وصقلهم فكانوا المنافس الأول للأوربى الطامع .

وحسبنا ما كتبه بيكر نفسه فى كتابه (ألبيرت نيانزا) سنة ١٨٦٤ — وقد كان ذلك التاريخ يوازى بداية حكم اسماعيل — ففيه تبدو خطة قديمة معينة لتحقيق أهداف بعيدة كل البعد من الأهداف العلمية

أو الجغرافية البحتة . قال بيكر فى مقدمته : « ان المكتشف يفتح الطريق للمستعمر وأن هذا الأخير بدوره هو الأداة التى يتم بواسطتها بسط المدنية فى العالم » وقال : « ان انجلترا تملك الوسائل التى تساعدها على نشر لواء المدنية وان الطبيعة قد رسمت لها مهمة استعمار العالم » .

وقد حمل بيكر فى غضون كتابه على النخاسة وقال ان تجارة الرقيق مزدهرة فى الصعيد وان مصر لاتعمل على التضييق عليها فى ربوع النيل واقترح أن تمنح الدول الأوربية قناصلها فى مصر والسودان السلطة الكافية للتدخل والاستيلاء على السفن المحملة بالعبيد وتحرير الأرقاء أيا كانوا وقال : « اذا بدأت احداها أسرعت الدول الأخرى الى التدخل حتى تحول بينها وبين الاستئثار بوطأة النفوذ فى مصر » .

فمحاربة النخاسة مبدأ انسانى والكشف عن منابع النيل غرض علمى وتحت ستار هذين الغرضين يجب فتح أفريقيا للتجارة والاستعمار .

فطن اسماعيل الى هذه الأغراض الواسعة البعيدة ففكر منذ سنة ١٨٦٥ فى امتلاك الساحل الافريقى للبحر الأحمر . ولا ريب أن العامل الأول الذى ساعد على سرعة انتشار نفوذ مصر فى هذه الأقطار هو انتشار العرب المسلمين فى داخل أفريقيا وبالأخص على سواحلها الشرقية وقد كان اسماعيل يعلم ذلك تماما ويعلم أن العنصر الوطنى هو العنصر الوحيد الذى يجب أن يوكل اليه مهمة الفتح والتوسع فى أفريقيا لحساب مصر .

ولكن انجلترا لم تكن بغافلة فانها أرادت التدخل كما رأينا تحت ستار محاربة النخاسة وادخال العنصر الأجنبى فى مصر وفتوحاتها ليمهد الطريق لها .

وقد وفد على مصر فى سنة ١٨٦٩ ولى عهد انجلترا ومعه الرحالة بيكر وطلب الى الخديوى تكليف هذا الأخير بمهمة فى أواسط أفريقيا لحساب مصر وكانت أهداف المهمة :

أولا — اخضاع البلاد الواقعة فى جنوب غوند وكورو لحكم مصر .

ثانيا — الغاء تجارة الرقيق واحلال تجارة نظامية مشروعة محلها .

ثالثا — أن تفتح للملاحة بحيرات خط الاستواء الكبرى .

رابعا — تأسيس سلسلة محطات عسكرية ومستودعات تجارية فى أفريقيا الوسطى على أن تكون غوندوكورو قاعدة تموين لها .

وقد وكل اسماعيل بالاتفاق مع ولى العهد الى بيكر قيادة الحملة لمدة أربع سنوات تبتدىء من أول ابريل سنة ١٨٦٩ .

وظاهر أن اسماعيل قد أفهم أن فى مقدور بيكر احتلال جميع بلاد أعالى النيل وتنظيمها وضمها الى مصر فى خلال السنوات الأربع وربما كان ذلك ميسورا لو أن بيكر كان من المنظمين أو لو أن الغاء تجارة الرقيق التى ألفها النـــاس مئات الأعوام وأصبحت جزءا لايتجزأ من نظام حياتهم ومعاشهم كان من طريق آخر غير طريق العنف والطفرة .

وليس أدل على أن روح بيكر كانت روح مغامر خيالى لايعالج المشاكل على وجوهها من أنه كان يعتقد أن مجرد انشاء نقطة عسكرية فى منطقة من المناطق من شأنه القضاء على تجارة النخاسة فى هذه المنطقة .

كانت تجارة العـــاج من العوامل الرئيسية فى تجــارة الرقيق لأن مطاردة العبيد وحدها كانت لاتأتى بالربح الوفير اذا سيق أولئك الى الساحل فارغى الأيدى فكان التجار العرب أو البرتغاليون فى غزواتهم المسلحة ينتهبون العاج ويحملون الرجال والنساء والأطفال أسرى وعبيدا .

وكان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما بالخرطوم محتكرين تجارة العاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو زرائب بالقرب من بحر الغـــزال ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع وأعوان فى كل مكان فكانت مصانعتهم أمر لابد منه .

وصل بيكر الى الخرطوم فى سنة ١٨٧٠ وبعد أن قضى فيها عدة أشهر غادرها فى ١١ ديسمبر فبلغ غوندوكورو فى ١٥ أبريل سنة ١٨٧١ ، وفى ٢٦ مايو أعلن ضمها رسميا الى مصر وسماها « الاسماعيلية » نسبة الى اسماعيل .

وقد ألف بيكر فيما بعد كتابا خاصا بهذه الرحلة عنوانه (الاسماعيلية أو تاريخ الحملة المرسلة فى أفريقيا الوسطى للقضاء على تجارة النخاسة) .

ظاهر من هذا العنوان ومن كل أعمال بيكر أنه على الرغم من أن القضاء على النخاسة لم يكن الا أحد الأهداف المرسومة لحملته فقد تجمعت الأهداف كلها وتضاءلت فى ذلك الهدف وحده وفى وسائل العنف التى اتبعت لتحقيقه .

كان مقام بيكر فى غوندوكورو نذير شر لأنه أساء معاملة قبائل البارى الضاربة حوالى مدينتى غوندوكورو ولادو ، وقد استعان فى قتالهم بطائفة من الجند المصريين المدربين يرأسهم الكولونيل المقتدر عبد القادر بك [1] . ولئن تغلب عليهم فانه لم يخضعهم ولم يكسب مودتهم بعد أن أعمل فيهم القتل والنهب واستولى على قطعان أبقارهم وخرافهم وعلى ذرتهم لتموين جنوده .

من أجل ذلك ظلت الحالة قلقة مقلقة وكان الأجناد عاكفين فى داخل المدينتين لا يجرؤ أحدهم على الخروج حتى لا يعرض حياته للخطر .

كتب جيسى الايطالى الذى صحب غردون خليفة بيكر وهبط مدينة لادو فى أكتوبر سنة ١٨٧٤ يقول : « ان سكان لادو نزلت بهم فوادح كثيرة فى أيام بيكر من ذلك أن بيكر طلع ذات يوم على المدينة وبصحبته ثلثمائة مقاتل وباغت السكان مستوليا على اثنى عشر ألفا من البقر ولم يترك لهم فى الوقت نفسه من الأذرة شيئا . ومن ذلك الوقت ازداد الفقر فى المدينة وكان لابد لها من سنوات طوال تستعيد فيها عدد البقر الذى فقدته وكان المصدر الوحيد لثروتها [2] .

---

(١) الكولونيل عبد القادر بك غير عبد القادر باشا حلمى وزير السودان وحاكمه بعد رؤوف وغير اسماعيل باشا عبد القادر حاكم سواحل البحر الأحمر وقد كان الثلاثة من العبقريين .

(٢) ظهر بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٧٤ مقال فى جريدة « الميل » دفاعا عن بيكر وقد رد على هذا المقال فى نفس الجريدة بتاريخ ١٢ أغسطس مستر وليام « رئيس الميكانيكيين فى حملة البحر الأبيض » أى رفيق بيكر بمقال جاء فيه : =

« وبصحبتى الآن اسماعيل أغا وهو أحد الضباط الذين أبلوا بلاء حسنا فى عهد بيكر وقد قص على هو وجنوده أعمالا ارتكبها الحاكم العام بلغ من فظاعتها ان القلم لايطاوعنى فى وصفها [1] » .

وفى يناير سنة ١٨٧٢ اتجه بيكر صوب الجنوب . وأنشأ فى أثناء الطريق نقطة عسكرية فى فاتيكو التى كانت مركز النخاسين .

ولما بلغ مازندى عاصمة الأونيورو كان فظا فى معاملة ملكها كباريجا الذى ذهب ليستميله الى الحكم المصرى فحاول أن يسيطر عليه بالخوف وعامله باحتقار ونظر اليه نظرة السيد الى « العبد الخصى » — على حد تعبير الملك نفسه — فانتهز خصومه هذه الفرصة للايقاع به فما كان منه الا أن أعلن رسميا عزل كاباريجا من الملك وضم مملكته (١٤ مايو سنة ١٨٧٢) ، على أن ذلك لم يمنعه من الاضطرار عاجلا الى الفرار والعودة بعد تدويخ رجاله وارهاقهم فى بلاد وحروب وعرة .

وقد قام بيكر فى أغسطس بحملة جريئة فى فاتيكو ضد أبى السعود العقاد فتمكن من القبض عليه ومصادرة العاج فى جميع شونه .

عاد بيكــر الى غوندوكورو فى أول ابريل سنة ١٨٧٣ اذ ينتهى أمد مهمته وهنــاك دلف الى القاهرة تاركا القيــادة الى رءوف بك (رءوف باشا حكمدار هرر فيما بعد) .

قلنــا ان بيكر لا يفكر الا فى العنف وفى وسائله وقــد بلغ به الأمر أنه كان يفكر جديا فى انشاء قوة جديدة من عصابات أبى السعود المسلحة يستعين بها فى تحقيق مهمته يتضح ذلك من خطاب هام وجهه

= « اننى افضل عدم ذكر تفاصيل فظائع هذه المجازر التى ارتكبت بكل هدوء . وان طائفة من الهجمات العديدة التى شنت على الوطنيين الآمنين فى ضواحى غوند وكورو قد قام بها صموئيل بيكر شخصيا ، وكان يستولى فى هذه الهجمات على ٣٠٠٠٠ رأس خروف ، ويعمل السلب والنهب فى المساكن ثم يشعل النار فيها . وكانت سرقة البهائم ليس الغرض منها ايجاد غذاء للجنود فحسب بل توزيعها على القبائل الأخرى بشرط أن تنضم الى بيكر وتعمل تحت رايته . . »

(١) أنظر كتاب جيسى باشا (سبعة أعوام فى السوذان) الطبعة الانجليزية أو الايطالية .

اليه الخديوى فى فبراير سنة ١٨٧٢ جاء فيه « لقد وصلنى التقرير الذى بعثت به فى أكتوبر من محطة الاسماعيلية حيث وصلت بعد رحلة استغرقت أكثر من خمسة أشهر ... ان المهلة التى منحتها العقاد لمغادرة السودان وترك تجارته فيه قد أوشكت أن تنتهى ومن رأيك ضم رجاله الى جنودك واحلالهم محلهم تدريجا اننى أخالفك فى هذا الرأى اذ أن مهمتك فى أساسها مهمة سلام وتقــدم ، انك مكلف باستمالة السكان الى الرجال « البيض » الذين ما دخلوا بلدا من بلادهم الى الساعة الا للقتل والنهب والاستيلاء على الأسرى والعبيد . ان الشقة بينك وبين الخرطوم طويلة صعبة فوطد مركزك ودعمه فى غوندوكورو واجتذب الناس اليك لقد أظهرت بأسك لقبائل البارى فأظهر الآن عدلك نحوهم وترفق عليهم ليطمئنوا اليك والى غاياتك ... كل هــذا العمل المادى والروحانى يتطلب منك وقتا طويلا لا أدرى كم مداه ولكن الذى أعلمه انك متى أديته الى حد ما وأنت مقيم فى غوندوكورو فسينفتح أمامك الطريق الى البحيرات ويصبح ميسرا [١] » .

الفقرات التى نشرناها من هذا الخطاب تدل بصراحة على بعد المسافة بين وجهتى النظر الانجليزية والمصرية ، فاذا تعمد بيكر تجاهل وجهة نظر مصر أو عجز عن اداء المهمة التى نيطت به فالتبعة عليه .

وقد كلفت هذه الحملة مصر أكثر من مليون جنيه وكانت نتائجها تافهة لاتعدو انشاء ثلاث نقط عسكرية وخط حدود خيالى تتألف منها مديرية خط الاستواء ، ولم يكن الطريق بين هذه النقط غوندوكورو — فاتيكو — فويرا — مأمونا معبدا .

على أن نتائجها الأدبية فى تسوىء سمعة مصر وانقاص هيبتها بين سكان تلك المناطق النائية كانت كبيرة . ولعل ذلك كان فى صالح السياسة الانجليزية فقد كتب عضو فى الوزارة الانجليزية الى بيكر على أثر عودته الى لندرة فى أواخر سنة ١٨٧٣ يقول « مهما كان من أمر تجارة الرقيق

---

(١) سجلات عابدين . خطاب من الخديوى اسماعيل الى صاموئيل بيكر فى فبراير سنة ١٨٧٢ .

فان حملتك لابد أن تكون أدت الى بسط النفوذ الانجليزى فى مصر . كم سننتظر من الوقت حتى يكون لنا سفن بخارية حاملة العلم الانجليزى فى البحيرات ويكون لنا خط مواصلات منتظم يصل البحيرات بالقاهرة ؟ اننى لا أعرف فى الوقت الحالى فى العالم شيئا يعدل فى عظمته التقـدم المطرد السريع الذى يصحب تغلغلنا فى قلب أفريقيا ، ومن الثابت الذى لا ريب فيه أن الطريق يمر معظمه فى الأراضى المصرية »

وبعد ذلك بأربعة أعوام فى سنة ١٨٧٨ ، أى قبل خلع اسماعيل بسنة واحدة كتب بيكر نفسه يقول بمناسبة الجدل الذى حدث وقتئذ حول المسألة الشرقية بعد امضاء معاهدة برلين « لا يسعنى الا أن أنظر مغتبطا الى التغييرات التى حدثت فى مصر والى اطراد ازدياد النفوذ الانجليزى فيها منذ سنة ١٨٦٩ اذ وظف الخديوى لأول مرة انجليزيا ومنحه السلطات المطلقة للقضاء على تجارة النخاسة فى أفريقيا الوسطى . وقد كان ذلك الاجراء بمثابة الحجر الأولى فى أساس الاصلاحات التى تمت بعد ذلك . فما كادت مهمتى تنتهى فى سنة ١٨٧٣ حتى عين غردون خلفا لى فسار على النهج . وقد ساعدت محاربة تجارة الرقيق على فتح الباب للتدخل الانجليزى فأصبح ملكولم باشا فى خدمة الحكومة المصرية للقضاء على هذه التجارة فى البحر الأحمر وأصبح ماك كيلوب ايضا باشا وبذلك أسبغت سلطات واسعة على أربعة من كبار الانجليز .

« والواقع أن بلدا مهاجما — كانجلترا فى كل عصورها — ليس فى مقدوره أن يقف كما يشاء فى زمان أو مكان يرتضيه . نحن مدفوعون الى الأمام ومضطرون بقوة الظروف الى مد حدودنا ولو لم يتفق ذلك مع رغباتنا (١) » .

ولا شك أن هـذه الحقائق الصريحة تلقى ضوءها على حملة بيكر وتكشف عن العوامل الرئيسية الثابتة التى أدت الى فشلها وفشل مهمة غردون وغيره من الانجليز أو الأجانب الموالين لهم الذين منحتهم مصر ثقتها لاعلاء كلمتها ونشر نفوذها فى ربوع أفريقيا .

(١) Murray & Silva White, Sir Samuel Baker

الفصل السادس

٢ – غردون فى أفريقيا الوسطى

(١٨٧٤ – ١٨٧٦)

عاد بيكر الى القاهرة فى أغسطس سنة ١٨٧٣ وقدم استقالته من وظيفة حاكم « مديرية خط الاستواء » . وفى العام التالى (١٨٧٤) خلفه غردون فى نفس الوظيفة . وكانت مهمته الرسمية توطيد سلطة مصر ومدها الى البحيرات ، وقد نجح الى حد فى تنفيذ الشطر الأول ولكنه تردد وتلكأ فى تنفيذ الشطر الثانى تحت ضغط السياسة الانجليزية .

بلغ غردون الخرطوم فى ١٣ مارس سنة ١٨٧٤ ومعه الضابط الأمريكى شاى لونج والمهندس المصرى ابراهيم فوزى والضابط حسن واصف والمهندس الايطالى روميلوس جسى والمهندس الفرنسى لينان وطائفة أخرى من الضباط والمهندسين الانجليز .

وفى أواخر سنة ١٨٧٤ جعل غردون عاصمته فى لادو وكان يفكر جديا فى ايجاد مواصلات منتظمة بين النيل والبحيرات وتسيير سفن بخارية فى بحيرة فكتوريا نيانزا ، ولكن شغله الشاغل الأول كان حل مشكلة المواصلات بين مديريته ومصر اما عن طريق الشمال (الخرطوم – النيل) واما عن طريق الشرق (أوغندة – ساحل أفريقيا الشرقية) .

جاء فى يومياته بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٨٧٥ : « لقد اقترحت على الخديوى أن يرسل سفينة بخارية الى خليج مونباسة الواقع على

بعد ٢٥٠ ميلا فى شمال زنجبار وأن ينشىء هناك محطة للتقدم منها صوب امتيزا ملك أوغندة . فاذا نجحت فى تنفيذ هذه الخطة جعلت قاعدتى فى مونباسة وتركت الخرطوم والمراكب البخارية ومتاعبها .

« وبهذه الطريقة يمكن فتح الطريق الى أواسط أفريقيا بطريقة عملية ناجعة خصوصا وأن أجمل البقاع فى هذه المناطق هى الأراضى العليا الوشيكة من امتيزا فى حين أن البلاد الواقعة جنوبا ، من لادو الى الخرطوم كلها مستنقعات » .

وكان تدبير الأمر يقتضى عودة لونج الى مصر ليتولى بنفسه اعداد الحملة المتفق عليها بين الخديوى وغردون . وقد تمكن لونج قبل عودته من امضاء معاهدة مع امتيزا ملك أوغندة ، بتاريخ ١٩ يوليه سنة ١٨٧٤ ، يعترف الأخير فيها بحماية مصر .

وقد سبق ذكرنا أن هذه الحملة التى اشترك فيها لونج ورأسها ماك كيلوب باشا (سبتمبر — ديسمبر ١٨٧٥) قد بلغت نهر الجب فى اتجاه مونباسة وفى أقصى حدود « السومال الايطالى » ولكن انجلترا باسم حقوق زنجبار على الساحل أرغمت مصر على اخلاء جميع المين التى احتلتها بين رأس حافون ونهر الجب .

وكان اسماعيل فى بداية حملة الجب وقبل احتلال المين على ساحل المحيط الهندى يرى أن بلاد السومال جميعها تؤلف منطقة النفوذ المصرى ، يدل على ذلك ما كتبه الى غردون بتاريخ ١٧ سبتمبر (١٨٧٥) فى كتاب يقول فيه : « ان مصب نهر الجب تابع لهذه المنطقة ، — وهو النقطة التى تفصل على الساحل بين أراضى زنجبار وأراضى السومال . وجميع الخرائط تبين هذا الحد . ولاشك أن جميع أراضى السومال التى نحتل الآن فعلا القسم الشمالى منها أصبحت تابعة لنا بساحلها الشرقى كما تتبعنا بساحلها الجنوبى . فاذا ما فتحنا طريقا بين البحيرات ومصب الجب فتحناه

فى أرضنا نحن . ولا يزيد هذا الطريق الا بمقدار مائة ميل عن طريق فورموزة (الذى اقترحه غردون من قبل) وحسبه أنه بمأمن من العوائق الخارجية (اشارة الى الانجليز) » .

وفى سنة ١٨٧٦ (بعد فشل حملة الجب) قرر اسماعيل فتح طريق بين هرر وبحيرة فكتوريا للاتصال بقوات غردون وايجاد مواصلات سهلة للتجارة بين البحيرات والساحل (زيلع وبربرة) . وقد صدرت التعليمات الى قائد هرر « بأن يفتح بالتدريج طريقا لغاية كابتزا Capitzza على سواحل فكتوريا » .

ولأجل فتح هذا الطريق الأخير كان يجب أن توطد مصر قدمها أولا على سواحل فكتوريا وفى أوغندة ولكن انجلترا كانت لها بالمرصاد على أن الطريق من ناحية هرر بفضل تقدم المدنية المصرية وانتشار الاسلام كان ينفتح رويدا رويدا خصوصا من ناحية الجالا . ومعلوم ان هذه القبائل كانت تحيط بالحبشة وان الحبشة احتلت هرر سنة ٨٧ (بعد أن أرغمت انجلترا مصر على اخلائها سنة ٨٥) وان منليك الثانى الذى أصبح ملكا فى نوفمبر سنة ١٨٨٩ هو أول من دعم ممالك الحبشة المختلفة وأخضع لأول مرة اخضاعا فعليا قبائل الجالا فى شرق الحبشة وفى الجنوب والغرب . فتمكن من زيادة مساحة الامبراطورية الى الضعف تقريبا ، وذلك بضم مناطق واسعة من الأراضى اليها . واذا أضفنا الى ذلك أن الحبشة استولت على منطقة أوجادين الواقعة فى وسط شبه جزيرة السومال والتى كانت فى صميم منطقة النفوذ المصرى تبين لنا مقدار ما أصاب مصر وعاق تقدم المدينة فى هذه الأرجاء . وقد ظل سكان هضبة أوجادين مستقلين فعلا تحت راية المهدى عبد الله الذى ظل منذ سنة ١٩٠١ يجاهد ويعلن الحرب المقدسة على المشركين .

كان موقف انجلترا الحاسم من التوسع المصرى من ناحية مونباسة

والساحل ومن ناحية أوغندة ومنابع النيل من أكبر العوامل التى ربكت غردون فى أداء مهمته فانقلبت غيرته الظاهرة على المصـالح المصرية فى سنة ١٨٧٥ الى تردد وحيرة واضطراب فى سنة ١٨٧٦ .

كتب غردون من موجى فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ يقول : « انه سيتقدم صوب البحيرات ليرفع هناك الراية قبل استانلى .. لأن مصر يجب أن تهيمن على البحيرتين جميعهما : فكتوريا وألبيرت » ..

وقد أرسل فى يناير سنة ١٨٧٦ الضابط المصرى نور أغا (نور بك محمد) وزوده بالتعليمات الآتية : « سل امتيزا اذا كان يريد قوات مصرية فى أوروندوجانى فاذا قال « نعم » فزره واذا قال « لا » فاذهب الى نياميونجو لأن هذه المحطة الأخيرة كانت تابعة لكاباريجا وقد أصبحت تابعة لنا الآن بعد أخذنا امرولى » .

وعلى الرغم من مظهر التردد والاضطراب الذى ظهر به غردون فى مسلكه فان امتيزا اعتقد أن ممثل الدولة « الحامية » جاد فى أمره وتقدم لاستقبال الحامية المصرية ، لا فى أوروندوجانى ، ولكن فى عاصمته ، روباجا .

علم بذلك غردون فى ٢ أغسطس (١٨٧٦) من خطاب أرسله نور أغا فكتب اليه : « بما أن هذه هى رغبة امتيزا نفسه فانى سأترك المائة وستين جنديا هناك . وهو وحده المسئول عن ذلك . وقد كنت أريد أن يحتفظ باستقلاله ولهذا السبب كنت اخترت طريق النيـــل — أوروندوجانى وكوسيتزا (شلالات ريبون) — ولكن الآن وقد أصبحت لنا حامية فى عاصمته فان قوة صغيرة تكفى لحراسة هذه الأماكن ، وسيكون نصيبه الأسر اذا لم يلتزم الهدوء . وانى أرى الآن فى قبضة يدى تجارة زنجبار كلها . الواقع أن استقلال امتيزا أصبح فى حكم المفقود [١] » .

(١) Colonel Gordon In Central Africa.

والعجيب أن غردون منذ ارسال ضابطه فى يناير كان يجب عليه أن يستمر فى اتجاهه نحو الجنوب وأن يذهب على رأس قوة جديدة الى بحيرة فكتوريا وعاصمة امتيزا (وهى تقع فى شمالها) ليؤيد مبعوثه ، ولكنه بدلا من ذلك اتخذ طريق الشمال وقفل راجعا طارحا مهمته وراءه .

ومن أعمال غردون التى تنم عن قلقه وعدم استقراره مبادرته بتبليغه برقيا الخديوى ماحدث فى أوغندة . وقد بادر الخديوى من ناحيته بمنحه النشان المجيدى ولكن فى الوقت الذى وصل فيه رد الخديوى كان غردون قرر من تلقاء نفسه اخلاء أوغندة التى احتلها المصريون شهورا بحجة أن الجنود كانت فى « موقف حرج » وانه لم يكن من « حسن السياسة » إجابة طلب امتيزا .

وقد عادت الجنود من عند امتيزا فى ٩ سبتمبر وكان برفقتها الدكتور أمين الألمانى (ادوارد اشنيتزر) الذى أرسله غردون لمفاوضة الملك فى أمر انسحابهم [١] .

---

(١) كتب برنارد الن فى كتابه (غردون والسودان) الذى ظهر فى سنة ١٩٣١ يقول : « بعد احتلال مازندى عاصمة الأونيورو أرسل غردون فرقة من الجنود لاحتلال ماجونجو فى أقصى حدود مملكة كاباريجا الغربية وعلى سواحل بحيرة البيرت . ثم سار جنوبا بعد أن أقام خمسة أيام فى فويرة واستقر فى امرولى حيث أنشأ محطة أو نقطة عسكرية . وكان فى نيته وقتئذ أن يمعن فى تقدمه نحو الجنوب ويحتل نقطة على ضفاف بحيرة فكتوريا ، ولكنه فضل بعد لأى العودة صعدا الى الشمال . وقد اكتفى بتكليف الضابط المصرى نور اغا بالذهاب الى اوغندة لانشاء نقطتين احداهما فى أوروندوجانيا على حدود امتيزا الشمالية والأخرى فى كوسيتزا على بحيرة فكتوريا .

« وقد غادر غردون امرولى فى ٢٤ يناير وبينما كان يكتشف النيل من دوفيلة الى البحيرات وصله فى ماجونجو كتاب من نور اغا انه بناء على طلب امتيزا وضع حامية فى عاصمته روباجه على ضفاف بحيرة فكتوريا » .

وكتب الدكتور فيلكين فى تعليقه على مذكرات أمين باشا وهو من المبشرين الانجليز الذين جابوا أواسط افريقيا فى عهد الحكم المصرى وزاروا =

وقد استمر غردون فى طريقه شمالا حتى وصل الخرطوم فى أكتوبر ، ومن هناك يمم القاهرة ثم لندرة ...

وظاهر أن غردون اذ منع مصر من توطيـد قدمها فى أوغندة وعلى ضفاف فكتوريا ، بعد أن احتلت عاصمتها ، قد فعل ذلك لتفادى اغضاب الحكومة الانجليزية فقد كتب من امرولى بتاريخ ٩ سبتمبر (١٨٧٦) يقول : « لقد عادت الجنود من دوباجة (يريد روباجة) . ان امتيزا على اتصال مستمر بزنجبار .. ويظهر أنه يجهل أن بعثة انجليزية (مؤلفة من قسيس وضابط بحرية وعمال ..) فى طريقها اليه . وقد سحبت جنودى قبل وصولها .. »

وفى أول سبتمبر سنة ٧٦ أرسل غوردون من امرولى مذكرة خاصة بالبعثة الانجليزية فى أوغنـدة الى رئيس أركان حرب الجيش المصرى (وصلت فى ١٣ نوفمبر) جاء فيها : « مما لاشك فيه أن ارسال بعثـة مسيحية عند الشعوب الوثنية أمر لا اعتراض عليه .ولـكننا إذا درسنا تكوين بعثة أوغندة ظهر لنا أنها ليست مسيحية فى جوهرها اذ أنها تتألف

= أوغنده : « وقد أظهر لى امتيزا مرارا كل تقدير للطريقة التى حافظ بها أمين على استقلاله وقت أن كان مهددا بتصرفات نور بك غير الحكيمـة (كذا) . وكان نور بك قد ذهب الى عاصمته على رأس ثلثمائة جندى مصرى ليضم أوغندة الى مصر . وقد كان تصرف نور بك يتعارض تماما مع أوامر غردون باشا » .

نضيف الى ذلك أن أمين باشا هذا الذى خلف غردون فى مديرية خط الاستواء ذهب فى مارس سنة ١٨٨٢ الى الخرطوم لزيارة عبد القادر باشا حلمى ونجح فى الحصول منه على أمر باستدعاء نور بك محمد الذى كان وقتئذ القائد العام لقوات خط الاستواء ، والضابط بخيت بك بطرقى كبير ضباط مركز مكراكا .

ويرى (فيتا حسان) وهو يهودى تونسى كان يشتغل مع أمين ومؤلف كتاب بالألمانية عن مديرية خط الاستواء « ان استدعاء هذين الضابطين المجربين سببه غيرة أمين وخوفه من نفوذهما » .

من قسيس ، وضابط من البحرية الملكية ، وطبيب ومهندس معمارى ، ومهندس ميكانيكى ، وأستاذ ، ورجل زراعى ، واختصاصى فى بناء السفن .

« فهذه البعثة اذن أشبه بتجريدة استعمارية ، وبهذه الصفة يجب أن تنظر اليها الحكومة المصرية ..

« وانى واثق أن تنظيم هذه البعثة التمدينية من عمل صموئيل بيكر ، وقد وصلنى من انجلترا خطاب يشتمل على نبذة من خطاب كتبه صموئيل بيكر الى الرحالة جرانت جاء فيها :

« اننى متعب من تلك الفتوحات المصرية ... وانى لأعجب كيف لايذهب أحد الفتيان ومعه مائة بندقية سنيدر ليحمى امتيزا وينظم جنوده . ولولا عوائق الأسرة لذهبت بنفسى » .

« ولا ريب أنه من الأفضل كثيرا فى الوقت الحالى أن يستخدم سمو الخديوى الضباط الأمريكان بدلا منى ، لأنى لا أحب الكتابة فى الصحف . وبصفتى انجليزيا وضابطا فى خدمة صاحب الجلالة لست أملك من الحرية مايملكون » .

والغريب أن غردون مع تنحيه عن مهمته وعجزه عن تنفيدها لتعارضها مع سياسة بلاده سيعمل بمجرد عودته الى لندرة على العودة ثانية الى السودان بسلطات واسعة يستعين بها على تحقيق أغراض بلاده .

الفصل السابع

غردون فى السودان

(١٨٧٧ — ١٨٧٩)

عاد غردون الى لندرة بعد أن صدع بأوامر وزارة خارجية بلاده . وادعى أنه وضع حدا لتجارة النخاسة فى مديريته ولكن بقى أن يضع لها حدا فى جميع السودان . وظاهر أنه تحت ستار النخاسة التى زعم بيكر من قبل أنه قضى عليها كان غردون يطمح ببصره الى منصب الحاكم العام ، لا فى مديرية خط الاستواء وحدها ، بل فى أقطار الوادى .

ذهب غردون ثانية الى القاهرة وأرسل الى الخديوى فى ١٠ فبراير سنة ١٨٧٧ شبه انذار يقول فيه « اعطنى السودان والا فلن أسافر » . وتدخل فى الأمر فيفيان قنصل انجلترا وحمل الخديوى على كره منه على قبول طلب غردون وعينه حاكما عاما للسودان فى اليوم السابع عشر .

وكانت انجلترا فى ذلك الوقت واقعة تحت « كابوس » التوسع المصرى صوب منابع النيل ، وكانت العرائض تقدم كل يوم الى الحكومة الانجليزية ، بعلمها وتشجيعها ، للمطالبة بمنع الخديوى من بسط سيادته على مناطق أفريقيا الوسطى ، حوالى البحيرات .

سأل فيفيان ، بناء على تعليمات حكومته ، غردون فى الموضوع فأجاب بانه مرتبط بتعليمات الخديوى التى يتحتم عليه بمقتضاها أن يتقدم فى هذه المنطقة وأن يضع سفينة بخارية فى بحيرة فكتوريا . على أنه عرض

حلا وسطا يقضي بأن تعلن مصر ، بمجرد الانتهاء من هذه المهمة ، حيدة البحيرة وأن تعترف فى الوقت نفسه باستقلال امتيزا بشروط عادلة [1] .

وأخيرا عرض غردون حلا آخر تتنازل مصر بمقتضاه عن بحيرة فكتوريا على أن يكون لها الحق فى الاحتفاظ بمملكة أوزوجا الصغيرة على البحيرة وبمملكة الأونيورو وبحيرة ألبيرت . ولكن الحكومة الانجليزية طالبت بأن تجلو مصر عن جميع المناطق الممتدة حوالى البحيرات .

وهذا ما حدا بغردون فى سنة ١٨٧٨ الى ارجاع الحدود المصرية الى منطقة خلفية بعيدة من بحيرة ألبيرت نيانزا وأمر الدكتور أمين الذى خلفه فى أفريقيا الوسطى باخلاء المحطات الجنوبية مع مازندى (عاصمة الأنيورو) بحيث تصبح دوفيلة (على بعد ١٠٠ ميل من ماجونجو ومن بحيرة ألبيرت) أقصى حد للأراضى المصرية فى الجنوب .

روى فيتاحسان [2] ، أن أمين حاول التملص من هذا الأمر ، وبدلا من اخلاء المحطات عقد النية على بسط مديريته الى أبعد حدود بحيرة ألبيرت . ولكن غردون تمسك بقراره وكلف الايطالى جسى الذى كان موجودا وقتئذ فى بحر الغزال بالذهاب الى خط الاستواء وتنفيذ الاخلاء [3] . ولكن ما كاد غردون يترك الخدمة فى السودان (١٨٧٩)

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٨٤ . مجلد ١٤٧٢ . القاهرة فى ٩ أبريل سنة ١٨٧٧ .

(٢) فيتاحسان (الحقيقة عن أمين باشا) بالألمانية

(٣) كتب فيلكن فى سنة ١٨٧٨ عن ملك الأنيورو قائلا : « ان كاباريجا ماينفك يزعج المحطة (ماجونجو) بهجماته . ومما يؤسف له حقا أنه لم يقض على ذلك الحكم الظالم وكان ذلك ميسورا لعهد قريب لولا المعارضة القوية التى اثارها فى انجلترا قوم ينظرون بعيون غيارى الى كل امتداد للأراضى المصرية صوب الجنوب » .

وفى اغسطس سنة ١٨٧٩ أكد فيلكن أن من أعمال غردون الأخيرة قبل ترك منصبه اصدار الأمر باخلاء الأونيورو « ولذلك أخليت محطات امرولى وكودج وكيرو . أما مازندى وكيسونا فكانتا أخليتا قبل ذلك بعامين . وتنشأ فى الوقت الحالى محطات أو نقط عسكرية جديدة لحراسة الحدود الجنوبية كما أن مديرية مكراكا ادمجت فى المديريات الاستوائية =

حتى استعاد أمين المحيطات المتروكة . وقد اكتسبت فيما بعد قمية كبيرة .

كان غردون فى أثناء هذه الحوادث عين أمين محافظا لسواكن (على البحر الأحمر) عقابا له . ولكن بعد رحيل غردون ألغى خلفه رؤوف باشا هذا الأمر وأبقى أمين فى وظيفته .

وليس أدل على التواء القصد على غردون وخبث طويته من ادعائه فى احدى رسائله ، بتاريخ ابريل سنة ١٨٧٩ ، بأن « حكم المصريين فى هذه الأقطار النائية حكم قطاع طرق » تبريرا لقوله « بأنه أخلى أكثر من نصف البلاد التابعة لمصر فى خط الاستواء » وان « ٣٠٠ ميل أصبحت تفصل بيننا وبين امتنزا الآن [١] » .

تلك كانت الطريقة التى نفذ بها غردون تعليمات الخديوى الخاصة ببسط السيادة المصرية على بحيرة فكتوريا وجعلها بحيرة مصرية .

وكان غردون يريد تقويض السيادة المصرية فى السومال وهرر : وغير خاف أن الارتباكات المالية والسياسية والتدخل الأجنبى فى مصر كانت

= وقد تكلم فيلكن عن تنظيم مديرية خط الاستواء : « ان الدكتور أمين هو الآن (١٨٧٩) الحاكم لهذه المنطقة الواسعة . ويوجد ثلاثة مديرون أو وكلاء للحاكم : واحد فى مكواكا وواحد فى كيرى وواحد فى ماجونجو . وهم يقتسمون المحطات بالتساوى تقريبا . ويوجد فى كل محطة وكيل أو مدير مدنى وقائد عسكرى » .

ووصف فيلكن العاصمة لادو فقال انها مدينة مشيدة باحكام وان المستشفى والجامع والمبانى الحكومية كلها مبنية بالطوب الأحمر وعليها سقوف من حديد . وان الشوارع مستقيمة وان حول الجدران جنائن واسعة فيها من الخضروات والشجر كل نوع وان ريها بالشادوف .

وقد انشئت المحطات الأخرى على نمط لادو . وكان رؤساؤها المدنيون والعسكريون من المصريين أو السودانيين . فكان سليم معتر مديرا لكودج ومرجان الدناصورى مديرا لفاتيكو وفرج اجوك مديراً لامرولى واسماعيل ابوحطب وكيلا فى رجاف (انظر Wilson & Felkin, UGANDA & THE EGYPTIAN SUDAN 1882.

(١) Hill, Colonel Gordon In Central Africa, p. 349.

وقتئذ فى أشدها وكان غردون تلقى دعوة فى فبراير سنة ١٨٧٨ لرئاسة « لجنة التحقيق العليا » فلما وصل الى القاهرة رفض كل تعاون مع أناس « استولوا على حكومة البلاد بطرق غير شريفة » وقرر العودة الى السودان .

فى ٣٠ مارس (٧٨) يمم غردون السويس ولكنه بدلا من أن يذهب الى الخرطوم ليعالج الأحوال هناك رأى أن يقوم برحلة تفتيشية فى مناطق السومال وهرر . فى شهر أبريل زار زيلع وبربرة وهرر ولكنه قبل وصوله الى هذه المديرية الأخيرة قرر عزل رؤوف باشا الذى كان ينفذ خطة انشائية واسعة فى أفريقيا الشرقية المصرية .

وحقيقة الأمر فى رأى كاتب ايطالى ، « ان المركز الضخم الذى وصل اليه رؤوف باشا بنفوذه الشخصى كان يثير الغيرة والقلق فى نفس غردون [1] » .

والواقع أن غردون كان بيت أمر هذا العزل لأنه كان يفكر فى تعيين أوربى مثل صاموئيل بيكر الذى كان نقمة على المديرية الاستوائية مكان الحاكم المصرى وقد رفض بيكر . فكتب غردون الى الرحالة بيرتون الذى كان وقتئذ قنصلا لانجلترا فى مدينة تريستا فرفض بدوره . على أن الخديوى الذى لم يحسب غردون لسلطته حسابا أبى الا أن يعين مصريا خلفا لرؤوف باشا ، ولكى يؤمن هذه المناطق من شطط غردون انتزع فى شهر ديسمبر (٧٨) هرر والسومال من إشراف الحاكم العام للسودان فأصبحا تابعتين للقاهرة رأساً . وبذلك بقيت هذه المناطق بمعزل عن الفوضى الادارية والسياسية التى كانت ضاربة أطنابها فى السودان فى العهد الأخير (١٨٧٧ — ١٨٧٩) .

والواقع أن غردون لم يكن رجل ادارة أو سياسة . وكان يحكم السودان كأنه نائب الملك فى الهند حكومة مطلقة قائمة على مبدأ تجاهل

---

(١) Ing. Robecchi Bricchetti, NELL HARRAR. 1876

خديوى مصر واحلال الأوربيين أو السودانيين من طبقة خاصة محل المصريين فى الوظائف العامة .

قال فيتا حسان فى كتابه : « ما كاد غردون يحتل منصبه حتى كان أول أعماله الادارية طرد الموظفين القدماء وتكوين بطانته من أشخاص عديمى التجارب من أهل البلاد رفعهم دفعة واحدة الى مراكز لم يكونوا أهلا لها اطلاقا ، وقد حدث فيما بعد ، فى بداية الحركة المهدية ، أن أولئك الموظفين كانوا أول من انقلب على الحكومة ونقض عهودها وأسرارها .

« وقد عزلته هذه البطانة عن الأهالى واجترأت فى ظله على ارتكاب كل المساوى ودفعت السودان كله فى أحضان اليأس وزادت الطين بله .

« ولاشك ان المراسيم والأوامر التى لا يبرح يناقض بعضها بعضا وتدخل ادارة وضيعة وموظفين غير أكفاء أوجدت ارتباكا عاما فى أحوال البلاد . وليس أدل على فساد حكومة السودان واختلالها فى عهد غردون ، من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٧٩ ، من العريضة التى رفعها تجار البلاد وأعيانها الى الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٨ » .

وكان النمسوى سلاطين بك (باشا فيما بعد) عين فى غضون سنة ١٨٧٩ مفتشا للمالية ثم حاكما لدارفور . وقد تكلم عن أحوال السودان ابان الثورة المهدية وقبلها فى كتابه المشهور (الحديد والنار فى السودان) . جاء فيه بخصوص العهد الذى نحن بصدده : « فى العهد الأخير بوجه خاص كان السودانيون الذين وصلوا الى عليا المناصب وكذلك أقرباؤهم المعينون فى الوظائف الصغيرة ، يعملون على الاثراء فى أقصر وقت . وقد عين غردون التاجر الثرى الياس باشا مديرا لكردفان فاستاء خلق كثير . وقد خلف عبد الرحمن بك ناجى الياس باشا مديرا وكان مثله تاجرا من كردفان ... ولاريب أن الروح « التجارية » المتأصلة فى مهنتهم كتجار كانت تسوقهم الى استغلال البلاد لمصلحتهم المادية ومصلحة أقربائهم ...

« ولما كان من الصعب تجاهل الرأى العام فقد عزل الباس باشا وعبد الرحمن بك وعين مكانهما أتراك أو مصريون .

« على أننا نحن الأوربيين ، على الرغم من أننا كنا قلة وكانت كراهية الناس لنا بوجه عام غير شديدة لتأصل حب العدالة فى نفوسنا كنا فى مناسبات عديدة سبب الاستياء .

« فقد حدث أننا ، مع حسن نياتنا ، كنا كثيرا ما نصدر قوانين ومراسيم تجرح السودانيين فى عاداتهم وتقاليدهم وشعورهم وتبعث على مر الشكوى .

« وقد كان لأول اعلان (الحرية [1]) — بناء على أوامر الحكومة أسوأ تأويل فى البلاد .

« ذلك أن تجارة الرقيق كانت مشروعة من الناحية الدينية . وكانت هذه التجارة تمون السكان بانتظام بعناصر فتية جديدة تؤدى أجل الخدمات للزراعة وتربية الماشية . ولم يكن الشارون يشغلون أنفسهم بالفظائع التى ارتكبت للحصول على العبيد وجلبهم الى سواحل النيل حيث يباعون . ولكن يجب علينا أن نعترف بأن العبد بعد اتمام الصفقة كان يرعاه سيده ويكرمه .

« وكان محمد أحمد (المهدى) يعرف كل هذه الشكاوى فعمل على استغلال الاستياء العام » .

ولنقف الآن على مسألة الرقيق قليلا لعلاقتها القوية بادارة غردون وبأحوال السودان قبل الثورة المهدية[2] .

---

(١) منشور أصدره غردون لتحرير العبيد.

(٢) لا بأس هنا من ذكر كلمة عن النخاسة والنخاسين . الزريبة أو الديم عبارة عن نطاق محصن كان يستعمل فى الوقت نفسه متجرا أى مركزا لتجارة العاج والعبيد ولوازم المعيشة . وكان لمعظم كبار تجار الخرطوم شركاء أو وكلاء لهم وظيفة ثابتة فى الزرائب . وكان يوجد من هذه الزرائب اثنتا عشرة فى بحر الغزال . وكان للوكلاء جنود غير نظامية أو بازنجر مهمتهما الحراسة وفقهاء كانت تجارة الرقيق من توابع=

كانت تجارة الرقيق الشغل الشاغل الأول لغردون منذ وصوله الى الخرطوم بصفته حاكما عاما فى مايو سنة ١٨٧٧ . وظاهر منذ البداية على الأقل أن غردون كان يتردد فى تنفيذ سياسة العنف التى نادت بها حكومته وحاولت فرضها عليه وعلى ملكولم ، وعلى بيكر من قبلهما ، وانه كان

= اختصاصاتهم . وكان أولئك الفقهاء مقدسين فى نظر عامة الشعب رغماً من أنهم كانوا محترفين بالتجارة الوضيعة ، يبيعون التعاويذ ويدجلون . كانوا يتنقلون بين الزرائب لا تخرج من أفواههم كلمة دون ذكر الله ونبيه ، وكانوا يخلطون بعباداتهم أعمالا منكرة يبرأ منها الشرع .

ولا ريب أن كل تعرض لتجارة الرقيق أو للزرائب كان معناه التعرض لنظام قائم على المصالح الاقتصادية والدينية فى السودان . لأن تجارة العاج (أو العاج الأبيض) كانت ذات اتصال بتجارة العاج الأسود (العبيد) وفروع التجارة الأخرى كما أن العبيد كانوا يقومون بجميع الأشغال فى السودان (أشغال منزلية وزراعية) . وبالجملة كانت الزرايب عبارة عن قواعد حصينة يستند اليها نظام اجتماعى واقتصادى واسع لا يبدله ولا يغيره الا حركة تطور طبيعى فى الاقتصاد والاجتماع .

فكان القول بالقضاء على النخاسة بقوة السلاح معناه قلب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة دفعة واحدة والجرى على سياسة هدامة مخربة محفوفة بالأخطار والصعاب وان طبيعة السودان المترامى الأطراف بمجاهله الواسعة وغاباته وجباله كانت تساعد النخاسين على الاحتماء والتخفى فى جهات لا حصر لها من المستحيل مراقبتها .

روى الايطالى جسى فى كتابه (سبعة أعوام فى السودان) « ان الحكومة المصرية أرسلت فى سنة ١٨٣٧ للمرة الأولى حملات فى أفريقيا الوسطى لفتح طرق جديدة . وقد أنشأت وقتئذ محطات على بحر الغزال وبحر الزراف والنيل الأبيض لمقايضة المنسوجات القطنية وغيرها بالصمغ والحبوب والعاج . والواقع أن التجارة كانت حكرة بيد الحكومة ولكنها تركت حرة حوالى سنة ١٨٤٨ . فجعل كثيرون من تجار الخرطوم محل اقامتهم فى هذه المنشآت وكانوا يدفعون كل سنة للحكومة ضريبة من العاج تعادل أقصى كمية كان فى استطاعتهم الحصول عليها فى شهر . وقد صار أولئك التجار من الأغنياء .

« وكانت تجارة الرقيق الى ذلك العهد لاوجود لها فى سودان النيل ولم تبتدىء الا فى سنة ١٨٦٠ . وكانت تجارة رابحة ... =

يدرك تماما أخطار هذه السياسة من وجهة النظر المصرية وانها كانت مخالفة لعقيدته وآرائه .

كتب غردون فى أثناء تطوافه فى المديريات الجنوبية ، بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٨٧٧ ، يقول : « ان الصعوبة الكبرى فى الغاء النخاسة أصبحت

= « ولما اراد الخديوى اسماعيل القضاء على هذه التجارة وفظائعها عقد اتفاقا مع التجار واشترى محطاتهم وذخيرتهم وسلاحهم وماشيتهم وعاجهم وعبيدهم وحرر العبيد فى نفس الوقت . ولكن هذه المحاولة الكريمة كانت عديمة الجدوى لأن التجار بعد أن وضعوا المال فى جيوبهم أنشأوا محطات جديدة فى جهات أخرى نائية .

« وقد اتخذ غردون اذ كان حاكما لمديرية خط الاستواء الاجراءات الآتية :

أصدر مرسوما باحتكار لعاج وحل الشركات التجارية . ثم أنشأ نقطا عسكرية على نهر السوباط مثلا لمراقبة الطرق وخصوصا الأنهر التى تمر فيها النوجار (مراكب واسعة) محملة بالعبيد لمصادرتها »

وقد كان لتطبيق هذه الاجراءات بشدة بواسطة غردون فى أفريقيا الوسطى من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٧٦ وفى السودان من سنة ١٨٧٧ لغاية سنة ١٨٧٩ نتائج خطيرة .

وقد خدم جسى غردونا منذ البداية وكان من أكبر صنائعه وأعوانه فى سياسته التعسفية . فاعترافاته لها قيمتها قال : « بمقتضى مرسوم أصدره غردون كان رؤساء الزرائب المنتشرة على طول ساحل بحر الزراف والنيل الأبيض مجبرين على اخلاء منشآتهم فى ظرف ثمانية أشهر ، يصير بعدها للحكومة الحق فى مصادرة العاج والاستيلاء عليه .

« وقد سببت هذه الاجراءات للحكومة خسارة ضرائب سنة كاملة . وعدا ذلك فقد ترتب على الغاء الزرائب التى كانت المراكز الطبيعية لتموين الأهالى بلوازم المعيشة ازدياد نفقات حملتنا ، فى ذلك البلد الواسع البعيد من كل مركز تجارى بنسب مريعة » .

« أما فيما يتعلق باحتكار العاج فلم يكن قرارا حكيما لأن هذا الاحتكار جعل صيد الفيل يقل بطريقة محسوسة فى المديريات المصرية وجعل محصول العاج فى البلاد الجنوبية (الأونيورو بوجه خاص) ، بدلا من الذهاب فى طريقه الطبيعى صوب الشمال ، يتجه نحو الجنوب . وظلت الأراضى المصرية جد متأخرة لاسكك تجارية فيها ولا تجارة » .

وهذا ما صرح به عربى لجسى فى السودان سنة ١٨٧٩ : « فى أول الأمر كان لايحمل الا العاج مقابل أقمشة وبضائع من الزجاج . =

الآن واضحة أمامى . كم كنت أتمنى لو أن « جمعية أعداء العبودية » كان فى مقدورها أن ترسل الى أحد أعضائها القادرين على فهم المسألة على حقيقتها ليبين لى طريق حلها . انى أملك سلطة مدنية وعسكرية مطلقة فلو حكمت بالاعدام على شخص أو عشرة لما كان لأحد أن يعترض على . ويجب اعتبارى أنا وحدى المسؤول عن النخاسة اذا استمرت ، وهاك موقفى : ان دارفور وكردفان يقطنهما قبائل ضخمة نزاعة الى الحرب والقتال ، أكثر من نصف مستقلة تحت امرة شيوخها . ومعظم أراضى الصحراء تندر آبارها وتفصل بينها مسافات شاسعة . وبعض هذه الآبار معروف لهذه القبائل وحدها .

« واذا عرفنا أن بعض هذه القبائل تستطيع أن ترسل للحرب من ألفين الى ستة آلاف فارس على ظهور الخيل أو الابل تبين لنا أن الثورة فى ذلك الاقليم ليست مما يستهان به . أقول ذلك عن علم دفعت ثمنه .

« وهذه القبائل تغزو شعوب الزنوج فى الجنوب أو تقايض القبائل البدوية المنسوجات بالعبيد فيما وراء الحدود المصرية المزعومة . ولذلك

= وكنا نستقل حمل العاج فى زمن وجيز ونأخذ من الأهالى بلا مقابل مانحتاج اليه من غلال وماشية لأن البلاد كانت غنية بهذه الموارد ثم تعاقبت السنون وأخذ بعض التجار يهاجمون السكان ويأخذونهم عبيدا وأخذ السكان يقاومون وصار من المتعذر الحصول على شىءبغير الرصاص والبارود .

« وأصبح العثور على العاج من الصعوبة بمكان وكان الأهالى بمجرد رؤيتنا يحرقون منازلهم ويختبئون فى الغاب . وقد زادت الحكومة البلاء بتحريمها نقل العبيد بطريق الانهر لانه فى الوقت الذى كان نقل العبيد فيه مباحا بواسطة السفن كانت نسبة الوفيات فى العبيد لاتزيد عن عشرة فى المائة وذلك على الرغم من ان العبيد كانوا يكومون تكويما بعضهم فوق بعض ، والآن ماذا يحدث ؟ تجتمع عصابات ضخمة من العرب فى كردفان ثم تنتشر فى البلاد لنهبها واجتياحها ، وفى هذه الحالة يضطر العبيد الى شق الجبال والصحارى وقطعها طوال الشهور والشهور قبل الوصول الى كردفان . واذا أضفنا الى ذلك أن الماء والحب يندر وجودهما فى اثنـاء الطريق وضح لنا السبب الذى من أجله لايصل الا ثلث القافلة الى غايتها » .

فان العبيد يدخلون الأراضى المصرية جماعات لا يزيد عدد الواحدة منها عن أربعة أو خمسة ، على أنه لا شىء يمنع من دخول فرق من مائة جندى ، لأننا ليس لنا على حدودنا نطاق مضروب من الديدبانات كما هو الحال فى روسيا .

« وقد اعتادت هذه القبائل بيع العبيد الى صغار التجار المنتشرين أفواجا فى كل صقع . ولا يلبث أولئك التجار الذين يفدون من جميع المناطق المصرية أن يذهبوا الى المراكز الآهلة بالسكان لبيع عبيدهم الثلاثة أو الأربعة لآخرين .

« والحق يقال لو أن الحكومة البريطانية نفسها كانت سيدة هذه البلاد فلا أدرى كيف يمكنها القضاء على تجارة الرقيق ، اللهم الا اذا زحزحت حدودها حتى شعوب الزنوج وأنشأت فيها خطا من المراكز العسكرية . ولست بحاجة الى القول ان الحكومة الانجليزية لن تبلغ من الحماقة درجة التعرض لخسارة شديدة والاضطرار الى مد حدودها لغاية بحيرة (اتشاد) [١] » .

وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٧ كتب غردون من دارفور الى أخته : « يخيل الى أن الحل الوحيد لايعدو التحرير الكامل اما بقوة السلاح ، وفى هذه الحالة ترتكب مظلمة كبرى ، واما بدفع تعويض لاطاقة لنا به فى الوقت الحالى . ولعل أفضل السبل رفع الحظر القانونى فيما يتعلق بنقل العبيد على أن تنظم الحكومة رقابتها عليه . ولكن اقتراحا كهذا سيثير ثائرة أفراد كثيرين [٢] » .

كان غردون مقتنعا كل الاقتناع بأن اتفاقية سنة ١٨٧٧ تتعارض مع مصالح مصر مما حمله الى التنديد بتصرفات ملكولم منذ تعيينه فى يناير سنة ١٨٧٨ مديرا لمصلحة الرقيق فى البحر الأحمر .

---

(١) Hill, Colonel Gordon In Central Africa (1874-1879

(٢) Letters of General C. G. Gordon To His Sister, p. 119

وكانت الحكومة الانجليزية ، وقد قلنا ذلك من قبل ، فى شهر مارس سنة ١٨٧٨ تتهم غردون بأنه « يهادن تجار الرقيق كن لا يحس فى نفسه القوة الكافية لمناصبتهم العداوة » .

وقد ذكرنا أن هذه الحكومة بالذات ، بعد أن أرغم ملكولم على تقديم استقالته كانت تعتبر غردون « مسؤولا وحده عن الاجراءات الحاسمة الواجب اتخاذها للقضاء على تجارة الرقيق فى المناطق التى يحكمها وفى سواحل البحر الأحمر » .

وهذا ما يفسر لنا انه ابتداء من ذلك التاريخ (يونية سنة ١٨٧٨) شرع غردون يغير سياسته ويطرح آراءه وعقائده ويعلنها حربا شعواء على تجار الرقيق فى السودان . وصارت لغته وأفعاله كلها مطبوعة بطابع العنف :

كتب من الخرطوم فى ٢٧ يولية (٧٨) : « لقد أخذنا اثنتى عشرة قافلة من العبيد فى مسافة شهرين ، وهى نتيجة لا بأس بها » . وفى أول أغسطس : « لقد أخذنا قافلة أخرى مكونة من مائتين وخمسين عبدا فى دارفور،فيكون مجموع القوافل التى أخذناها فىشهرين أربع عشرة» . وفى ٨ أغسطس : « انى أوجه كل يوم ضربات مميتة ضد تجارة الرقيق وقد أنشأت من أجل ذلك نوعا من « حكومة الارهاب » . فأعدمت شنقا رجلا طوش صبيا وانى لن أطلب الاذن بذلك من أحد . ولا يهمنى أن يوافق الخديوى أو يعارض [1] »

ومن هذه الآونة صارت مكافحة الرقيق عند غردون شبه عقيدة دينية يتحمس لها ويجاوز كل حد من أجلها ...

وكان الخديوى بالطبع حانقا على غردون وتصرفاته وان كان ذلك لم يمنع الحكومة الانجليزية من المبادرة بالكتابة ، بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة

(١) Colonel Gordon In Central Africa, p. 319

١٨٧٨ ، الى لاسيل ، مدير القنصلية العامة فى القاهرة ، تكلفه « بأن يعبر للخديوى عن اغتباط الحكومة الانجليزية بالعمل الحازم الذى يقوم به غردون ضد تجارة الرقيق[١] » .

وقد اتخذ هذا العمل الحازم صورة حرب صليبية كانت لها أسوأ النتائج فى المديريات الجنوبية : بحر الغزال وكردفان ودارفور .

أشرنا من قبل الى حجز الزبير فى القاهرة على أثر الخلاف الذى نشب بينه وبين اسماعيل أيوب (١٨٧٥) ، ويظهر أن الخديوى كان يخشى من نفوذه العظيم فى السودان « لأن الذى لا شك فيه ، كما يقول سلاطين باشا ، ان هذا الرجل كانت له ارادة حديدية وذكاء خارق ، وكان من هذه الناحية يعلو بمراحل تجار العاج والرقيق الآخرين . وفى ذلك سر نجاحه العظيم » .

وقد نجح الزبير فى السيطرة على بحر الغزال ومساعدة الحكومة المصرية فى اخضاع دارفور . وبعد سفره الى القاهرة عين ابنه سليمان ليحل محله . وعين الحاكم العام من جهته حسن باشا حلمى ليكون ممثل الحكومة فى دارفور .

وكان السلطان هارون المطالب بالعرش لا ينى يحرك الفتن والقلاقل . وقد احتمى هو وبعض أنصاره بجبل مرة الوعر ولكن حسن باشا حلمى تمكن من كسره مرتين وأرغمه على الانسحاب .

وعندما وصل غردون الى الخرطوم (١٨٧٧) كانت دارفور تدخل تحت السيطرة المصرية . وقد عجل غردون بالذهاب الى دارفور ليرى أحوالها بنفسه ، وهناك اتخذ اجراء متعوسا اذ أنقص حامية دارفور انقاصا جائرا ووزع عددا كبيرا من الرجالة والفرسان بين الأبيض والخرطوم .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٨٤ مجلد ١٥١١

ومن رأى سلاطين « ان هذه الاجراءات الاقتصادية كان لها فيما بعد أفدح العواقب » .

وفى أبريل سنة ١٨٧٩ عين غردون مسيداليا بك الايطالى الذى كان منذ بضعة أشهر حاكما لداره (فى جنوب دارفور) مكان حسن باشا حلمى [١] وقد حل محل ميسيداليا فى داره سلاطين بك الذى وصل اليها فى أغسطس سنة ١٨٧٩ وكان قبل ذلك اشتغل بعض الزمن مفتشا للمالية . وبعد وصوله علم أن ميسيداليا يريد التغيب فى أجازة فنصحه بالبقاء نظرا لأن هارون لم يُخضَع كل الاخضاع فيؤمن جانبه فكان رد ميسيداليا « ليس هناك مطلقا ما يدعو الى القلق وان جنود الحامية تكفى وزيادة لتهدئة جميع المصاعب المحلية الصغيرة » .

وبينا ذلك كانت قلاقل خطيرة قائمة فى بحر الغزال وكردفان وكان خطرها يتهدد دارفور .

كان بحر الغزال فيما مضى لا يقطنه الا الزنوج الذين هم السكان الأصليون . ولكن حدث بعد ذلك لعهد قريب أن العرب الدناقلة (من دنقلة) وأن الجعليين الذين كانوا يشتغلون بالزراعة فى وادى النيل هاجروا الى مديريات الجنوب وانضووا تحت راية كبار النخاسين الذين انتهبوا البلاد وبسطوا عليها سلطانهم .

وكان الزبير باشا زعيم الجعليين الآمر الناهى فيها . وكان ابنه سليمان منذ سنة ١٨٧٥ قد انسحب على رأس عصابات مسلحة الى الشاكة فى دارفور الجنوبية . وكانت الدوائر الحكومية تخشى أن تنضم قواته الى قوات هارون .

---

(١) كان غردون يقول ان حسن باشا حلمى « مجنون قد سبب خراب المديرية » وهذا المجنون فى زعمه كان رفض ترحيل الجنود من المديرية رغما من هدوء الأحوال الظاهر . فاضطر غردون الى الذهاب الى دارفور ثانية ليشرف بنفسه على تنفيذ اجرائه (سجلات عابدين . خطاب من غردون الى باروت بك من سواكن بتاريخ ١١ يناير سنة ١٨٧٨) .

وفى بحر الغزال كان يقيم ادريس أبتر وهو « دنقلاوى » وكيل الزبير منذ حملة دارفور [1] . وكان يوجد وقتئذ شيعتان تتنازعان السلطة الأولى شيعة الزبير أو العرب الجعليين وهم من سلالة عباس عم النبى والثانية شيعة (الدنقلاوى) وهى من سلالة دنقل (العبد) . وكانت الأولى ، وهى أشد بأسا وعددا ، تظهر كل ازدراء لأبناء العبد . لذلك ما كاد غردون يصل الى الخرطوم حتى بادر الطماح وكيل الزبير وأوجد فى نفسه الحذر من سليمان زبير ومن طموحه الى الاستقلال ونصحه بأن يعمل على توطيد سلطة الخديوى فى تلك المديرية .

عندئذ أرسل غردون الضابط المصرى ابراهيم فوزى الذى كان تحت امرته فى خط الاستواء الى بحر الغزال وكلفه باخراج البلاد من سلطة الشركات . وبمجرد وصول الحاكم الجديد بادر عمورى وغطاس ووكلاؤهم باظهار خضوعهم والتنازل عن ثلاثة أخماس الصمغ وريش النعام والعاج الذى كان حكرة للحكومة .

وكان سليمان زبير مستقلا بالأمر فى شاكه ومعه أربعة آلاف مقاتل. فلما علم بمقدم غردون الى دارفور — وكان لحق بفوزى — طلب عفوه وذهب اليه بنفسه فى داره فى أغسطس سنة ١٨٧٧ . فما كان من غردون الا أن وزع قواته بين وكلائه سعيد بك حسين (الذى عين مديرا لشاكه) ونور بك عنقرة (الذى عين مديرا لسرجا وأريبا فى دارفور الشرقية) . ثم أصدر أمره بعد ذلك الى سليمان بأن يعود الى شاكه . وقد امتثل سليمان للأمر رغما من تصرفات غردون المهينة وأرسل عدة خطابات الى غردون يستعطفه فيها استعطاف الابن « لأبيه » ويتوسل اليه أن يعينه فى وظيفة .

---

(١) فى زمن رحلة الدكتور شفاينفورت « أصبح ادريس وكيل غطاس ، وكان فى الزريبة شخصية كبيرة يستبد بالأمر والسلطان بعد أن كان عبدا بسيطا فى الخرطوم ، وهو من أصل زنجى وكان له مع ذلك نفوذ على النوبيين » .

ولكن غردون كان شخصية شاذة غريبة الأطوار لا يعرف المصانعة كثير التقلب ، سريع التأثر ، يلين وقت الشدة ، ويشتد وقت اللين ، عنيدا جائرا فى أحكامه ، قليل المعرفة بالرجال ، يقضى معظم وقته فى التأمل والتصوف والتجول على ظهور الجمال فى أرجاء السودان وصحاريه .

أبى غردون أن يجيب سليمان الى طلبه واستنفد حلمه حتى بات يخاف انتقاضه عليه اذ كتب يقول من داره بتاريخ ٧ سبتمبر انه قضى ليلة منحوسة وهو يفكر فى حنق سليمان الذى ألقاه فى أحضان اليأس بينا لا يزال يملك قوة مؤلفة من ٤٠٠٠ رجل فى بحر الغزال « ولكن زعيما أكبر قوة (ادريس) معى الآن . ولذلك فانى لا أعبأ بتلك القوة » .

وفى أواخر سبتمبر (١٨٧٧) ذهب غردون الى شاكة من طريق داره وقرر تعيين سليمان ، بعد لأى ، مديرا لبحر الغزال ، مملكة أبيه القديمة ، ومنحه لقب بك .

ولما وصل سليمان الى مركز مديريته ، ديم زبير (نسبة الى أبيه) طالب ادريس أبتر بتقديم حساب عن أعماله .

وفى أثناء ذلك كان الضابط المصرى ابرهيم فوزى من ناحيته قد تجمعت لديه الأدلة القاطعة على أن ادريس رجل « شرير وخطر ودساس من الطراز الأول » فقرر القاءه فى غياهب السجن . ثم أخذه معه الى الخرطوم حيث اضطر الى الذهاب للعلاج .

وقد دفع فوزى بعد وصوله الى هذه المدينة الى ادريس كما دفع الى جميع شركات بحر الغزال ، مبلغا كبيرا من المال كثمن لمقدار كبير من العاج الذى كان صادره ، فاستمال ادريس بماله قنصل ألمانيا ، فردريك روسيه ، الذى بادر بالابراق الى غردون فى سواكن — وكان قد بلغها فى تطوافه المستمر — زاعما أن ادريس برىء وانه سجن ظلما .

فلما عاد غردون الى الخرطوم (يناير ١٨٧٨) حاول أن يقنع فوزى بترك ادريس يعود الى مديريته ففضل فوزى تقديم استقالته من وظيفة

مدير بحر الغزال . وقد قبل غردون هذه الاستقالة ولكنه أراد استغلالها لارضاء فوزى وادريس معا فعين الأول مديرا لخط الاستواء مكان الامريكى بروت Prout الذى كان يحكمها منذ ديسمبر سنة ١٨٧٦ والثانى مديرا لبحر الغزال برتبة بك !

كان رد سليمان الوحيد ازاء هذا التحدى أن أعلن عصيانه ورفض أن يذعن الا للقوة . ثم أخذ قواته فى ديم زبير وهاجم مباغتة قندة فسلم حصنها بعد مقاومة عنيفة فى الأيام الأولى لسنة ١٨٧٨ .

كانت قوات سليمان تفوق قوات ادريس وكان القضاء على هذه الأخيرة مسألة حياة أو موت للزبير وشيعته . كتب الزبير الكبير الى ابنه سليمان ، بتاريخ ١٣ مايو سنة ١٨٧٨ يقول : « لقد أصبح ادريس أبتر مديرا وسيكون همه القضاء على أعمالنا وخدماتنا للحكومة . فعجل بطرده هو ورجاله وذريتهم ولا يفتك فى الوقت نفسه أن تعمل على طاعة أوامر الحكومة وتوثيق صلاتك بها » .

فبدلا من استدعاء ادريس واعادة سليمان الى وظيفته ليتجنب بذلك تحول معركة النفوذ الى حرب طاحنة لاتؤتى غير الدمار والفوضى لم ير غردون فى كتابات الزبير الى ابنه الا تحريضا على العصيان . وسرعان ما عقد مجلسا حربيا أصدر حكما بالاعدام على الزبير وابنه بتهمة الخيانة العظمى !

ولما كان غردون مصمما على اعداد العدة لحرب نظامية أخذ يفتش عن رجل « حازم » قوى . وكان يونكر وقت اقامته بخط الاستواء ، فى أثناء رحلاته ، ضاغنا على ابراهيم فوزى لأسباب شخصية ، فانتهز هذه الفرصة وأوحى الى غردون بخلع ابراهيم فوزى وتعيين الدكتور أمين مكانه مديرا لخط الاستواء [1] .

---

(١) عند عودته الى مصر فى سنة ١٨٧٩ تبين لغردون أن اتهامات يونكر لفوزى كانت باطلة فطلب الى الخديوى ترقيته الى رتبة كولونيل ومنحه ٣٠٠ جنيه كتذكار للأيام التى قضياها معا فى السودان (انظر : Neufeld, A Prisoner of the Khalifa وكذلك ابراهيم فوزى باشا : السودان بين يدى غردون وكتشنر .

وكان فى ذلك الوقت جسى الأيطالى قد ترك خدمة الحكومة واستعان بالمصور الفنان بوختا Bucht وبدكتور فى العلوم الطبيعية لاكتشاف وادى السوباط وبلاد الجالا فى السودان الشرقى لحساب ايطاليا . فأقنع يونكر غردون بحمل جيسى على ترك حملة السوباط وقبول رئاسة الجيش المنوط به تأديب العصاة . وستثبت الحوادث أن هذا الرجل (جيسى) كان أكبر مغامر بين الأجانب الذين تكاثروا فى السودان فى عهد الادارة المختلطة وأقدرهم على تطبيق سياسة العنف وهو رابع الثلاثة : بيكر وملكولم وغردون .

سافر جيسى ومعه يوسف باشا الشلالى وحوالى أربعين من الجنود والضباط لبدء حملته ، وقبل وصوله الى رومبيك كان يلقى النجدات باستمرار على طول الطريق من فاشودة ولادو ومكركة وغيرها . ولم تكن الأحوال ، من يوليه الى ديسمبر سنة ١٨٧٨ ، فى فصل الأمطار ، تسمح بحرب هجومية .

وقد تجمعت عنده قوة تزيد عن ٧٠٠٠ رجل فاتجه بها الى قندة حيث التزم الدفاع مدة ثلاثة أشهر مكتفيا برد هجمات الزبير . ثم وصلت اليه نجدات جديدة فى مارس سنة ١٨٧٩ فشرع فى الهجوم ، وتمكن فى أول مايو ، من كسر الزبير وارغامه على الهرب وترك ثروته الكبيرة فى ديم زبير فاستولى على معظمها الدناقلة من أعوان ادريس .

وقد حاول جيسى اللحاق بالزبير ولكنه لم يهتد اليه فعاد ادراجه الى ديم زبير وهناك جاءه أمر من غردون بالذهاب للقائه فى دارفور حيث استقر به المطاف .

وكان غردون فى العهد الأخير هائجا يعارض فى كل فكرة سلمية ولا يفكر الا فى البطش القتال اذ كتب فى ٢٤ يناير (٧٩) يقول : « ان اهلاك عصابة الزبير يعتبر نقطة تحول دقيقة فى مشكلة الرقيق » ، مع أن عصابة ادريس كانت تؤيدها حكومة غردون .

وقد كانت حكومة القاهرة تعلم استفحال الشر فى السودان وتفكر فى وضع حد لسياسة غردون فكتب نوبار الى حاكم السودان يقترح عليه فيه الموافقة على ارسال الزبير رحمت فكان رد غردون فى التاريخ السابق (٢٤ يناير سنة ٧٩) :

« اننى أعين فى جميع نقط الحدود وكلاء أوربيين ليمنعوا مرور كل قافلة من قوافل العبيد ...

« وسأمنح جيسى ألف جنيه اذا نجح فى القبض على ابن الزبير . وآمل أن يشنقه . لأنه لو أرسل الى القاهرة لرحبوا به » .

وفى أثناء اقامته الثانية فى دارفور ، حوالى ١٨٧٩ ، كان سليمان زبير بعث اليه فى شكا تسعة رؤساء من أعوانه ليطلبوا اليــه أن يصــدر أمره الى جيسى باخلاء بحر الغزال .

روى جيسى أن غردون باشا استبان فى أولئك الرؤساء التسعة نفرا من المحرضين على مذابح ديم ادريس فكان رده عليهم أن أماتهم فى الحال رميا بالرصاص .

وقد روى سلاطين حادثة أخرى كان لها أثرها قال : علم غردون أن تجار الأبيض فى كردفان كانوا يبيعون الســلاح والذخيرة الى عصابة سليمان . فكان الجلابة يفكون هذه الأسلحة ويهربونها وسط بضائع أخرى فى مديرية بحر الغزال حيث كان يشتريها الثوار بثمن فاحش . ونظرا لندرة النقد كان العبيد يستخدمون للتبادل والمقايضة .

ورغما من الغاء كل تجارة فى المنطقة الواقعة فى جنوب طريق القوافل (الأبيض — داره) كانت تجارة الأسلحة تزداد كل يوم . فعمل غردون « عملا أخرقا كانت له نتائج مدوية فى أنحاء السودان » اذ أصدر أمره الى مشايخ القبائل العربية (البقارة والرزيقات الخ) بالقبض على جميع الجلابة الذين يصادفونهم فى أراضيهم وجلبهم تحت الحراسة الى داره وطويشة وأم شنقة والأبيض .

وقد فرح العرب بهذا القرار الذى أرضى جشعهم . ولما كان من الصعب فى هذه الحالة التميز بين التجار الشرفاء — وكان منهم فئة كثيرة أو قليلة — والمهربين لم تفكر السلطة مطلقا فى التفرقة بين الصالح والطالح وانطلق العـرب فى كل مكان وراء طريدتهم الجلابة وكانوا يسلبون أمتعتهم وما يملكون ويسوقوهم أفواجا شبه عرايا سوق الأنعام الى داره وطويشة وأم شنقة .

ونظرا لأن الجلابة كانوا جميعا — الا ما ندر — من سكان منطقة وادى النيل الزراعية وخصوصا الجعليين فقد وسعت هذه الحوادث مسافة الخلف وجعلت العداوة القديمة تستأصل بين قبائل الغرب العربية وبين سكان وادى النيل .

« فاذا نظرنا الى الأمر من الناحية الانسانية لم يسعنا أن ننكر أن طرد الجلابة بهذه الطريقة الظالمة العنيفة مدعاة للقول ..

« وكان الجلابة المطرودين من البلاد الجنوبيـة من أهالى كردفان ووادى النيل (الجعليين والشايقيـة والدناقلة) ، هاجروا من وطنهم للاثراء من مزاولة التجارة والرقيق وتركوا وراءهم أصدقاءهم وذويهم الذين كانت تهمهم شؤونهم ومصالحهم خصوصا وانهم كانوا يشاركونهم ماليا فى مشاريعهم .

« ولهذا السبب كان أمر غردون بطرد الجلابة ذا أثر بعيد فى سمعته ومكانته بين سكان وادى النيل [1] » .

التقى غردون بجيسى فى طويشة وبعد أن علم مجرى الحوادث أمره بالعودة الى داره للبحث عن سليمان على أن يعود هو الى الخرطوم . وقد

---

(١) سلاطين باشا — الحديد والنار فى السودان .. يجب الرجوع الى أصل الطبعة الألمانية لهذا الكتاب أو الى الترجمة الفرنسية . أما الترجمة العربية المنقولة عن الترجمة الانجليزية فهى كأختها ناقصة مشوهة لا يمكن التعويل عليها وقد تصرف ونجت باشا فى الترجمة الانجليزية ولم يكن أمينا .

طلب الضابط المصرى يوسف بك الشلالى الى غردون أن يصطحبه فى رحلته اذ كان لا يريد البقاء بأية حال تحت امرة جيسى .

وفى دارة علم جيسى أن سليمان بعد أن ترك بحر الغزال ذهب مع قواته الى منطقة دارفور الجنوبية فبادر الى تعقبه وأخذ معه اسماعيل أفندى برنو وهو من أصل مصرى ، وقد ولد بدارفور ، « وكان يمتاز بشجاعته ومعرفته التامة بأحوال البلاد » .

كان جيسى يريد ارغام سليمان على التسليم ، بأى ثمن ، فلجأ عند بلوغه الكلكه الى اسماعيل برنو ، وكان صديقا لسليمان منذ زمن طويل ، وكلفه بمهمة لدى الأخير فى معسكره فى غرة [١] .

وكان جيسى يعرض فى حالة الخضوع تأمين حياة سليمان وأعوانه وصرف مرتب شهرى لائق له ولهم .

وقد أبى رابح أكبر أنصار الزبير أن يسلم أمره الى جيسى ونصح سليمان بالتريث والحذر ولكن اسماعيل أقنع سليمان بأن المقاومة لا طائل وراءها وكتب الى جيسى يستقدمه على عجل فى غرة فحضر ومعه دناقلته من رعاع ادريس . وهناك نجح اسماعيل [١] فى اغراء سليمان وصحبه بناء على العهد الذى قطعه جيسى على نفسه ولكن جيسى كما يظهر لم يكن أمينا على العهد وكان مخادعا يريد « رأس » سليمان لتنفيذ وصية غردون فاستند الى وشايات الدناقلة الذين زعموا أن الزبير يبعث الرسل الى رابح . وأصدر اليهم الأمر باعدام سليمان وأعوانه رميا بالرصاص .

حدث ذلك فى ١٥ يوليه سنة ١٨٧٩ . وكان خمسة مشايخ قد انفصلوا

---

(١) من العجيب ، ولهذا السكوت مغزاه ، أن جيسى فى مذكراته التى ظهرت بعد موته (سبعة اعوام فى السودان) لم يشر اقل اشارة الى هذه المهمة الخطيرة . ولم يرد ذكر اسماعيل برنو مرة واحدة فى كتابه . وسلاطين هو وحده الذى تكلم عنه وعن مهمته فى كتابه (الحديد والنار فى السودان) .

من سليمان ورابح [1] وظلوا فى البلاد فأصدر جيسى أمره بالبحث عنهم واحضارهم الى الفاشر ، وكان يحكم المدينة ميسّيداليا بك « الذى شنقهم فى ساحة السوق دون محاكمة » .

تلك خاتمة الحرب التى توقع بعض المؤرخين الرسميين « أن تكون نتيجتها المحتومة قطع دابر الفتنة » .

وقد أجمل سلاطين نتائج هذه الحرب فقال : « ان الحكومة فى هذه الحرب قد تكبدت خسائر فادحة فى الرجال والأسلحة والذخيرة ، فى حين أن قبائل الجنوب العربية البقارة والتعايشة والحبانية والرزيقات التى أصابت ، قبل خضوع سليمان وبعده ، غنما كبيرا من السلاح والبازنجر، أصبحت من ذلك الوقت تعتد بما كسبت من جاه وقوة خلقت لنا فيما بعد مشاكل وعرة » .

وأخيرا استدعى غردون فى يونيه (٧٩) ولكن بعد أن تحرجت الأمور وطفح الكيل . وقد اثبتت الحوادث صدق حكم شاى لونج الأمريكى الذى ذكرناه من قبل « لقد وجد غردون السودان فى سلم ورفاهية وتركه فى سنة ١٨٧٩ ، ينوء بالدين ويهم بالثورة » .

---

(١) ذهب رابح بنفر من جنده الى منطقة بحيرة تشاد وتمكن بدهائه وتدبيره من تأسيس امبراطورية قوية هناك . وقد تمكنت فرانسا بعد حرب عوان من قتل رابح والاستيلاء على ملكه (٢٢ أبريل سنة ١٩٠٠) .

الكتاب الثالث

السودان من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٥

الفصل الثامن

الثورة المهدية لغاية قرار إخلاء السودان

ان السودان فى الوقت الحالى تحده جنوبا بلدة نيمول بجوار دوفيله وتبلغ مساحته مليون كيلو متر مربع .

وعلى الرغم مما أصاب مساحة السودان الجغرافية من نقص وزيادة وتقلبات كبيرة أوجدتها الظروف العسكرية والسياسية منذ عهد محمد على خصوصا من ناحية الجنوب (البحيرات وممالكها) ، والشرق والجنوب الشرقى (أراضى البحر الأحمر والمحيط الهندى) ، فان مدلول كلمة (السودان) لا يزال الى اليوم مبهما . فالانجليز فى كتاباتهم يخلطون بين السودان والنيل ووادى النيل ، والمصريون يطالبون تارة « بالسودان » وطورا « بوحدة الوادى تحت تاج واحد » .

وكانت أنشئت لأول مرة فى ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ فى مصر وزارة « السودان وملحقاته » . وفى نفس السنة اعتبر الكولونيل ستيوارت الملحقات جزءا من السودان فى تقريره الشهير الذى وصف فيه حدوده :

« ان حدود السودان المصرى ، فى سنة ١٨٨٢ ، هى كالآتى : تبتدىء الحدود بالقرب من رأس بناس على البحر الأحمر وتسير على درجة ٢٤ من

خط العرض الشمالى حتى تصل الى نقطة غير مائعة بين ليبيا والصحراء الكبرى . ومن هذه النقطة تتجه نحو الجنوب الغربى حتى ملتقى الزاوية الجنوبية الغربية من دارفور . ومن هناك تنحدر رأسا الى الجنوب لغاية الدرجة ١١ من خط العرض الشمالى ، ثم تتجه نحو الجنوب الشرقى من طريق مونبوتو وبحيرة نيانزا حتى تصل الى مدخل بحيرة فكتوريا نيانزا . عندئذ تصعد الى الشمال الشرقى ، مشتملة على مديرية هرر ، حتى تبلغ المحيط الهندى عند رأس جردفواى (أوجردفون) ، ومن هنـاك تتبع ساحل البحر الأحمر لغاية رأس بناس » .

أى أن مساحة السودان المصرى كانت تعادل مساحة فرانسا وألمانيا وأسبانيا مجتمعة .

والواقع أن سياسة التوسع المصرى فى السودان كان قطبها الذى تدور حوله : النيل ومنابعه . وكانت تهدف الى تكوين كتلة متجانسة متماسكة تؤلف بينها وحدة اللغة والدين والثقافة .

ولكن التدخل الأوربى فى أفريقيا وسياسة « التقسيم » كان لهما القسط الأكبر فى ايجـاد عوامل التحلل والتفكك فى مصر نفسها وفى امبراطوريتها السودانية .

١ — أسباب الثورة

كانت مصر والسودان منذ أواخر عصر اسماعيل فى حالة « هيجان » وكانت أسباب الاستياء العميقة فى مصر تؤدى حتما الى الثورة العـامة ولكن هذه الأسباب كانت فى السودان سطحية فى مجموعها لا تؤدى الا الى ثورات وقـلاقل محلية متقطعة لولا الروح الدينيـة التى انتظمتهـا ونفخت فيها .

جند المهـدى أتباعه وأعوانه من أشـد عناصر السـودان تأخرا وأكثرها تعلقا بالبدع والخرافات والعقائد الساذجة : البقارة والدراويش .

البقارة أو رعاة البقر كانوا من أكبر تجار الرقيق فى الغرب وقد أصابتهم خسارة كبرى من جراء تصرفات غردون الغاشمة ضد النخاسة . وحسبنا أن نذكر أن عثمان دجنة أفضل قواد الخليفة فى السودان الشرقى ابان الثورة كان أيضا من تجار الرقيق الذين أرهقهم غردون وصادر أملاكهم وثروتهم [1] .

أما الدراويش فقد وصف الكولونيل ستيوارت فى تقريره المرسل من الخرطوم ، بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، نظام الفقهاء والدراويش المؤيدين لهم ، ومذهبهم . قال ستيوارت ان الفقهاء كانوا يفرضون ضريبة على العرب ويأخذون منهم الأموال والهبات نظير علاجهم أو القضاء على عقم النساء والحيوانات وما شاكل ذلك من طرق التدجيل والتطبب . وقد أصبح الفقهاء مع الزمن أغنياء ذوى نفوذ .

وكان الفقيه يستخول الدراويش ويتخذ منهم حشما يتعهدون ماله ويعلون شأنه وكان الدراويش يتسابقون لخدمته حبا فى الكسل والبطالة وتهربا من الضرائب . لأن الحكومة رغبة منها فى مصانعة السكان والتقرب اليهم كانت أتت عملا أخرقا باعفائها الفقهاء والدراويش من دفع الضرائب فانتشروا فى كل قرية وفى كل قبيلة بالسودان وكانوا هداة الشعب الروحانيين ومعلمى الشبيبة ، وكانوا يرغمون الناس على دفع ضريبة « عشرية » وليس أدل على تغلغلهم فى الحياة العامة وقوة نفوذهم من أنه فى قبيلة دابازنة ، فى جنوب القضارف ، كانت القرى التابعة للفقهاء لا تقل عن ٦٢ . وقد نتج عن ذلك أن الأهالى لم يكن فى استطاعتهم دائما الانفاق على الفقيه ودراويشه ودفع ضرائب الحكومة فى الوقت نفسه .

كان أنصار المهدى اذن يكونون أغلبية الشعب وان لم يكونوا من

---

(١) قال غردون : « ان بيضة الثورة الحالية قد وضعت فى خلال الثلاثة الأعوام التى أتيح لى فيها أن أحكم السودان على مبادىء غير المبادىء التركية » .

خياره وأفضله . وكانت المدائن المصاقبة لمجرى النيل خصوصا من سنار الى دنقلة ، حيث استأصلت المدينة المصرية منذ ستين عاما ، يتألف من عناصرها الحضرية التى تؤيدها بعض عناصر البدو ، حزب المقاومة . وهذه العناصر السودانية والمصرية من جند ، وتجار ، وموظفين ، ورعية ، كانت لها طوال الشهور والسنين فى الثورة مواقف رائعة من البطولة والتضحية .

٢ — عبد القادر حلمى فى السودان :

كان غردون استقال من وظيفة حاكم عام السودان فى يناير سنة١٨٨٠ ، فعين مكانه ، فى مارس سنة ١٨٨٠ ، محمد رؤوف باشا . وقد ذهب بمعية رؤوف محمد مختار ومحمد عزت وضباط آخرون لدرس مناطق الحدود من الحبشة لغاية مصوع ووضع خرائط للمناطق التى لم تكتشف .

وفى تلك الأثناء رفع المهدى راية العصيان وقد زادت هزيمة راشد بك فى قدير (٩ ديسمبر سنة ١٨٨١) الحالة السياسية والعسكرية فى البلاد تعقيدا .

والذى لا ريب فيه أن رؤوف باشا لم يكن حازما فى علاج الموقف فى بدايته ، وكانت حكومة القاهرة من ناحيتها ، أمام التهديد الانجليزى ، عاجزة عن مده عاجلا بالمعونة اللازمة ، مما ساعد على تقوية المهدى وازدياد نفوذه فى نظر العامة التى أصبحت تعتقد فى « رسالته » .

شرعت من ذلك الوقت البقارة والدراويش تلتف حول رايته لمحاربة « الكفار » و « المشركين » سواء فى ذلك الأتراك (المصريين) أو الأوربيين المسيحيين الذين وفدوا على السودان منذ بيكر والادارة المختلطة وكان لهم القسط الأوفى فى اسقاط هيبة مصر ومكانتها فى السودان .

وقد فطنت الحكومة المصرية الى خطورة الموقف فاستدعت رؤوف باشا

وعينت مكانه عبد القادر باشا حلمى وهو من خيرة قوادها .

وفى أثناء الفترة التى انقضت بين استدعاء رؤوف (٤ مارس ١٨٨٢) ووصول عبد القادر (١١ مايو) قام جيجلر باشا الألمانى ، الذى كان عينه غردون مديرا عاما لمصلحة البرق (التلغرافات) ، بأعمال وكيل الحاكم العام بالخرطوم . وكان هـذا الموظف كمعظم الأوربيين ، تنقصه الكفاءة والاخلاص فسرعان ما أبرق الى القاهرة بأن الحالة لا تستدعى ارسال فرق جديدة ، وأرسل فى نفس الوقت حملة الى النيل الأبيض كانت هزيمتها سببا فى استفحال الثورة فى هذا الصقع .

وفى أغسطس (٨٢) ترك المهـدى قدير ميمما الأبيض عاصمة كردفان فوصلها فى ٣ سبتمبر . وقد جرت أمام المدينة موقعة هزم فيها المهدى وخسر زهاء ١٠٠٠٠ رجل فعول على ضرب الحصار حول الأبيض وباره .

وكانت هذه أول ضربة أصابت المهدى ، وبينا ذلك كان عبد القادر حلمى ، وهـو من أوسـع الرجال خبرة ودراية بشؤون الحـرب والتنظيم [١] ، لا يفتر يعمل على تدعيم وسائل الدفاع عن الخرطوم واعادة تنظيم البلاد وفقا لأحـدث الطرق وذلك على الرغم من قلة موارده وانقطاع كل معونة من القاهرة خصوصا فى أشهر الحـرب الانجليزية والاحتلال من يولية الى سبتمبر .

وكان عبد القادر باشا يدرك بصائب فكره ان نجاح المهدى يرجع الى انتصاراته غير المنتظرة على جيوش نظاميـة والى دعايته الدينيـة الكاذبة وتسلطه على عقول الجماهير الساذجة فشرع يتصل بزعماء البلاد

---

(١) تكلم أمين باشا فى مذكراته عن عبد القادر بمناسبة زيارته له فى الخرطوم فى مارس سنة ١٨٨٢ قال : « تبدو على عبـد القادر سما الذكاء العـالى وقد تلقى العـلم فى أوروبا ، وتبحر فيه ، وهو يجيـد الفرنسية ويتكلم الألمانية » .

ومشايخها ويوزع عليهم رسائل يثبت فيها العلماء بنصوص من القرآن والحديث بطلان دعوة المهدى . وكان فى الوقت نفسه القوة المحركة للدفاع ، لا يكتفى بقيادة الجند بنفسه وضرب العصاة فى ناحية سنار بل يرسل الحملات فى كل جهة بقيادة خيرة ضباطه ليحول دون انتشار الثورة واتساع رقعتها .

ولكن كان لابد من التفكير فى فك الحصار عن البحر الأبيض عاجلا وكان لا يبرح يطالب القاهرة بارسال نجدات قوية عديدة تمكنه من الزحف الى هذه المنطقة البعيدة على أن يترك جيشا « للتغطية » وراءه .

وكانت الأبيض محاصرة منذ سبتمبر ولكن عبد القادر لم تصله من القاهرة النجدة الأولى الا فى ديسمبر ، وذلك أن أول اجراءات الاحتلال كان حل جيش عرابى نظامى فكانت الفرق الجديدة المجندة المرسلة الى السودان ، ضباطا وجنودا ، تعوزها الدربة والالمام الكافى بفنون الحرب .

فلم يكن أمام عبد القادر الا أن يعول على نفسه ويستغل الى أقصى حد موارده المحدودة ، فعزل جيش المدينة (الخرطوم) فى معسكر على الضفة الغربية من النيل ، وكان الحاكم العام يقوم بنفسه باعطاء دروس للضباط وتلقين الجند بمبادىء الفنون العسكرية وتدريبهم على التمرينات البدنية واصابة الأهداف (ضرب النار) .

وقد كتب ستيوارات الرقيب الانجليزى فى أواخر ديسمبر يقول : « ان التعليم يستمر وأن بعض الجنود قد ساروا بخطى واسعة فى طريق التقدم » .

وكانت خطة عبد القادر التى كشف عنها ستيوارات ترمى بمجرد الانتهاء من جمع جيش مؤلف من ٥٠٠٠ جندى وتعليمه وتدريبه الى

اتخاذ الطريق الذى يذهب من الخرطوم الى الأبيض وعبر بيارة وبلاد قبيلة الكبابيش البئسة الموالية للنفوذ المصرى .

وكان عبد القادر يعد عدته وعديده من جمال ومدافع جبلية وميرة وذخيرة ليضمن نجاح حملته .

وفى رأى بعض المؤلفين كانت خطة عبد القادر ترمى الى حشد جيش أكبر لا يقل عـدده عن ١٥٠٠٠ أو ٢٠٠٠٠ مثلا ليتمكن من ترك عدد كبير منه يكفى لحماية الطريق الطويل الذى يفصل الخرطوم من الأبيض . وفى حالة عدم وصول العدد المطلوب (من القاهرة) كان مصمما على البقاء بقواته متحصنا فى الخرطوم وفى سنار ، وعلى اقامة تحصينات حول كردفان ليعزل أنصار المهدى ويدع الثورة تأكل بعضها فى غرب السودان . ولاشك أن فصل قوى المهدى الروحانية والمادية عن مناطق النيل الخصبة ومراكز الجاذبيـة فيها كان سيؤدى حتما الى تحللها وموتها .

وعلى أية حال كان المهدى لايقر له قرار وفى حالة زعج مستمر لعلمه باتساع مذاهب عبد القادر الفنية والأدبية بدرجـة أنه كان يوصى أنصاره بالدعاء بصوت عال فى ختام كل صلاة :

اللهم ياقوى ياقادر اكفنا شر عبد القادر

ولكن وجود الانجليز فى مصر لم يكن من شأنه تذليل المهمـة لعبد القادر . وقد كتب الجنرال ولسن ، فى ٢٨ أكتوبر ، يقول ان الجيش المصرى قد تم تحطيمه وأن الحكومة المصرية لا تملك الوسائل الكافية لصد تقدم المهدى .

ولأجل أن نتبين ماهية هذا التحطيم ونتائجه المحتومة فى السودان يجب أن نذكر ماكان كتبه شريف باشا الى القنصل ماليت بتـاريخ ٢١ أكتوبر : « ان السلطات العسكرية البريطانية تدمر ذخيرتنـا

وعتادنا الحربى . ولاشك أن اجراء كهذا كان من الممكن تبريره كل التبرير وقت أن كان الجيش العاصى تحت السلاح . أما الآن فيلوح لى أنه لاسبيل الى تبريره [1] » .

وفى أول يناير سنة ١٨٨٣ أبرق عبد القادر الى الخديوى طالبا ارسال فرقتين أخريين لتأليف قوة احتياطية فى الخرطوم .

ومما جاء فى هذه البرقية « أنه ترتب على تأخر ارسال الجنود استفحال الثورة فأصبح من الضرورى ايجاد نقطة ارتكاز للفرق الذاهبة لانقاذ بارة وكردفان » .

وفى اليوم ذاته قرر عبد القادر الذهاب الى المسلمية ليقود الجنود بنفسه ويطهر جميع المنطقة الكائنة بين سنار ورانة . لأن أحمد المكاشفى ، وهو من أكبر أنصار المهدى ، كان قد تمكن قبل وصول عبد القادر (٧ يناير) من قطع المواصلات بين سنار والمسلمية وفل القوات المصرية .

وكان القائد المصرى يريد اخماد الحركات المتفشية فى الأقطار المجاورة قبل الزحف على الأبيض ويرى أن فقدان هذه المدينة بفرقتيها السودانيتين ومستودعاتها الواسعة من مدافع وذخيرة نكبة لاطاقة لنا بها ستتضاعف من جرائها مصائبنا فى الحرب .

وبينا هو فى سنار يحارب ويسوس ويدبر اذ وصله (فى أواخر يناير سنة ١٨٨٣) برقية من الخديوى توفيق يأمره فيها بحشد قواته كلها فى الخرطوم وانتظار وصول بعض كبار الضباط من القاهرة . ولما كان عبد القادر يجهل أن أولئك الضباط هم هيكس وأعوانه الأوربيون بادر بالرد على الجناب العالى بأن الثورة قائمة فى بعض أراضى المديريات

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٤٤٢

الشرقية وأن الجنود اذا انسحبت تحرجت الأمور للغاية ، وان جيش الأبيض اذا لم يتحرك فى الحال لانقاذ المدينة ضاعت وضاعت معها دارفور .

وقد أيد الكولونيل ستيوارت فى برقية له الى قنصل انجلترا بالقاهرة ، بتاريخ ٢٦ يناير ، كل أقوال عبد القادر وزاد « بأن الحالة أصبحت فى منتهى الخطورة وأن الخديوى يجب عليه أن يترك عبد القادر وشأنه » .

ولكن ستيوارت كان فى ناحية وكان الخديوى ومستشاروه الانجليز فى القاهرة فى ناحية أخرى ، وقد أفهموه أن عبد القادر يطمح الى الاستقلال فى السودان ، وذلك تحقيقا لخطة مدبرة فى وزارة الخارجية الانجليزية [1] .

---

(١) يتضح من البحث فى سجلات عابدين أن أحمد حمدى بك ياور جناب الخديوى كلف بالسفر الى الخرطوم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ « ليقابل الكولونيل ستيوارت ويعلم أن مأموريته (حمدى) ليست سوى مشاهدة الأحوال والعرض عنها (كذا) للأعتاب الكريمة ... ويستحضر عبد القادر باشا الى الخرطوم ويسلمه الأمر العالى بالغاء نظارة السودان وانفصاله عن حكمداريتها وحلول علاء الدين باشا مكانه فى الحكمدارية .. »

وفى ١٧ ربيع أول سنة ١٣٠٠ هـ (٢٦ يناير سنة ١٨٨٣) أرسلت ارادة سنية برقية الى حمدى بك ليخبر سرا علاء الدين باشا بأن يراقب حركات وأحوال الكولونيل ستيوارت ويرسل بها تلغرافات شفره » .

وقد جاء فى أول تقرير له (برقية ٢٦ فبراير سنة ٨٣) ما يأتى : « حينما كنت مع سعادة هكس باشا فى الطريق كان يسأل من المسافرين عن الأحوال ولما يخبروه بتحسن الحالة يرى عليه علامات الكدر حتى أن سعادته قال ذات يوم اذا كان الأمر كذلك فلا فائدة فى حضورى من لندرة » .

وظاهر من التقارير الأولى أن مبعوث الخديوى كان لا يميل الى عبد القادر باشا والكولونيل ستيوارت ، ولكنه أمام سلطان الحوادث وأعمال عبد القادر اضطر الى تغيير رأيه ومطالبة الخديوى بابقائه .

جاء فى تقرير ١٦ مارس : « .. كذا علم أن سعادة عبد القادر باشا لما حضر للخرطوم تشبث باجراءات نافعة نحو تلافى الحالة .. ولو كان صار اسعافه لما كان اتسع الأمر ..

وقد اضطر عبد القادر الى العودة من رانة الى الخرطوم فى ٦ فبراير قبل أن يتمكن من تطهير سنار من العصاة « مع أن الانتصارات الأخيرة

= « ومراعاة للحالة الراهنة والاجراءات التى باشرها وظهرت مباديها الحسنة بجهات سنار والبحر الأبيض ولماله من الحيل السياسية فى جذب القلوب مع ايقاع الرعب بين الأشقياء يكون بقاؤه على ماهو عليه لحين نهو الحركات فى الجزيرة أوفق ..

« يتراءى للداعى أن كل جهة يستتب فيها الأمن والراحة يصير استبدال حكامها بغيرهم ممن لهم كفاءة فى الادارة وأن لا يصير توظيف أشخاص من أهالى السودان فى وظائف مهمة .. »

وجاء فى تقرير ١٤ مارس : « بلغ الداعى اكيدا أن سعادة الجنرال هكس الذى أورى أمس بأنه لا يتدخل فى أشغال جيجلر باشا سينشر اعلانا للاهالى ظاهره نوع وباطنه التدخل فى أشغال الحكومة بحجة بث العدل ورفع الظلم عن المتشكين اليه وجذب قلوب الأهالى وميلهم للدولة الانجليزية الذى هو من رجالها العظام الموصوفة بالعدل والكرم ، وحيث ان الأهالى ذاقوا حلاوة ذلك مدة غردون باشا المؤسس لما هو واقع فيسهل الأمر الخ » .

وجاء فى تقرير ٣٠ مارس « بما أن سعادة الحكمدار الحالى وسعادة القومندان أن متعودين على لين الجانب ووفرة الانقياد فدواعى الوقت والحال كانت موجبة لفضول (بقاء) سعادة عبد القادر باشا الآن لما عنده من الادارة والسياسة ... ولئن كان ما نسب اليه قريبا من الصحة ولكن لما بدا فيه من الغيرة والنشاط هو لا يعول عليه فى جانب الصالح العمومى وحيث ذلك فالحال يدعى (يدعو) لأن يكون وكيل الحكمدار والمديرون الذين يتعينوا ومديرو شرق السودان ووسطه وغربه من ذوى الادارة والسياسة ليتمكنوا من تنفيذ أغراض الخديوى ويعيدوا رونق العمار والاصلاح .

« سعادة الجنرال هكس ومن معه ليسوا على شيء وانما هم متبعين (متبعون) تعليمات ولو وجد أمامهم أناس يدركوا الأمور ويعملوا أمام اجراءاتهم التى يخشى منها حواجز بطرق غير محسوسة لا يمكنهم أن يتمكنوا من تمشية أغراضهم وينقادوا خوفا من ظهور أمورهم .. »

وفى ٥ أبريل كتب حمدى بك يقول : « لا يزال يتراءى للداعى أن دواعى الوقت وماهو مشاهد من اجراءات سعادة عبد القادر باشا يقضيان بوجوده بالسودان ... حيث لم يكن موجودا من يضاهيه . وبما أن التقارير الواضح (الموضحة) بها الحالة يتأخر وصولها فبحسب عبوديتى ومراعاة للصالح العمومى وجب عرضه (عرض الأمر) تلغرافيا والرأى مفوض أفندم »

أثبتت ، كما قال ستيوارت فى برقية ٩ فبراير ، أن المصريين اذا حسنت قيادتهم تجنبوا الهزيمة » .

وأمام الحاح ستيوارت وعبد القادر أذن الخديوى للأخير بالذهاب الى جزيرة سنار لمحاربة المكاشفى فوصل واد مدنى فى ١٣ فبراير فى طريقه الى سنار ومن هناك قاد عساكره الى مشرع الداعى حيث كان يقيم المكاشفى متخفيا مع ١٢٠٠٠ مقاتل فى غابة على جانب الطريق فهزمه فى ٢٤ فبراير وقتل له ٢٠٠٠ (واقعة الداعى) .

وقد هرب المكاشفى الى ود برجوب فى الجبلين فاستمر عبد القادر فى مطاردة زعماء الثورة والتنكيل بهم وتشتيت شملهم وانتصر عليهم انتصارا كبيرا فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣ . روى مؤرخ أن عددا كبيرا من العربان أنصار المهدى قد قتل فى المواقع الأخيرة فاغتم أحد كبار مشايخهم وقال لعبد القادر باشا « لقد أفنيت الرعية ببطشك يا سعادة الباشا فدع عنك هذه المناوشات واقتل الدبيبة من رأسها » فأجابه عبد القادر باشا « اذا لم نظفر برأسها يا شيخ العرب نقطع من ذنبها حتى ندرك الرأس فنسحقه » .

وكان عبد القادر جريا على خطة « تقطيع الذنب حتى بلوغ الرأس » يريد السير جنوبا على طول النيل الأزرق لتصفية الثورة وقطع دابرها فى هذه المنطقة لغاية جبل خولى .

ولكن فى ٥ مارس كان هيكس باشا الانجليزى وصل الخرطوم ليحل محل القائد المصرى وظاهر أن انجلترا ، سيدة الدلتا ، كانت تؤثر أن تدع الثورة تمتد وتقوى فى ربوع السودان فكان لابد من كسب الوقت بكل وسيلة حتى تتمكن قوات المهدى المغيرة — من تهديد مصر وارغامها على اخلاء السودان بعد استنفاد قوتها السياسية والاقتصادية التى انهكها الحرب والاحتلال وتحويل الاحتلال المؤقت الى احتلال ثابت محتوم .

٣ــ هيكس فى كردفان :

لاشك أن استدعاء عبد القادر وتعيين قائد أوروبى مسيحى غريب عن البلاد مكانة لاخماد ثورة دينية بحتة كان لهما أثر بعيد فى القضاء على البقية الباقية من هيبة مصر وتقوية الحركة المهدية ، وهما بداية فصل جديد فى تاريخ السودان .

وصل هيكس الخرطوم على رأس ١٠٠٠٠ مقاتل وكان جلهم من جنود عرابى القدماء الذين سئموا الحرب وكان يراد التخلص منهم . ولو أنهم أرسلوا قبل ذلك لكون منهم عبد القادر جيشا قويا مدربا قادرا على انقاذ كردفان والتنكيل بالمهدى . ولكن الخديوى توفيق كان يرفض كل مطالب عبد القادر الخاصة بارسال نجدات بحجة أن ما أرسله الى السودان حتى ذلك العهد بلغ ١٠٠٠٠ جندى .

وفى أثناء ذلك سلمت حامية بارة ، وكانت مؤلفة من ٢٠٠٠ رجل ، على أثر انفجار مستودع الذخيرة (٥ يناير) وسلمت عاصمة كردفان ، الأبيض بعد حصار دام ستة أشهر (١٧ يناير سنة ١٨٨٣) .

وكان يحاصر الأبيض ٨٠٠٠٠ من الأنصار سلاحهم الوحيد الحراب والسيوف (لا بنادق ولا مدافع) ، وكانت القوة المدافعة لاتزيد عن ٥٠٠٠ رجل مخندقين فى الحصن يذودون ذياد الشجعان وقد اضطروا الى التسليم بسبب القحط والمجاعة . روى شاهد عيان أن أربعة أو خمسة من السوريين يعيشون سويا دفعوا ٥٧ ريالا ثمن كلب . وكان غذاء المدينة الصمغ وأوراق الشجر « ولما رأيت الجنود السود يقتلون عبيدهم ويأكلونهم آليت أن ألوذ بالفرار » .

وقد روى شاهد آخر ، الأب بونومى رئيس المبشرين السابق فى الأبيض « ان الجنود بعد مقاومة مليئة بالبطولة كانوا يموتون جوعا فى الخنادق . وان أردب القمح كان يباع بـ ٢٢٠٠ ريال ، ورأس الحمار

بـ ٣٠ ، والفرخة بـ ٣٥ والبيضة بريالين .. وأن القائد كان يرفض التسليم وأخيرا بعد أن صار الجند هياكل عظمية ، تركوا السلاح يقع من أيديهم وانطلقوا يفتشون عن طعام لهم . وكان ذلك فى يوم ١٧ ينـاير فدخل الدراويش بغير قتال » .

قتـل العصاة الأعيان والموظفين بعـد أن أخـذوا منهم مليـون ريال وباعوا النساء والأطفال كالعبيد . وقد أدمج ثلاثة آلاف جندى سودانى مدرب (جنود الحامية) فى جيش المهدى ووكل الى ضباطهم تلقين قواته فنون الحرب . وعدا ذلك فقد استولى المهدى على ٥٠٠٠ بندقية وخمسة مدافع ومستودعات ضخمة من الذخائر .

تلك كانت « النكبة الفادحة » التى كان عبد القادر يحسب لها ألف حساب ويعمل على تلافيها . وقد تركت عودته لخلفه فراغا تعج فيـه الفوضى ، وكان الثـوار بعد سـقوط الأبيض ينوون تقسيم قواتهم الى ثلاث جمـاعات : جماعة يقودها الفقيـه منا للزحف على دنقلة ، وجماعة تزحف على دارفور بقيادة الشيخ رحمة فاتح بارة ، وكان المهدى بنفسه سيتولى قيادة الجيش الثالث الى الخرطوم .

وفى هذا الوقت بالذات صدر مرسوم فى القاهرة ، بتاريخ ٢١ مارس سنة ١٨٨٣ ، بالغاء « وزارة السودان وملحقاته » وأنشئت مكانها « ادارة خاصة » فى رياسة مجلس الوزراء .

وقد بلغت خسائر مصر فى السودان الى ذلك العهد ١٦٢٩٦ رجلا و ١٧٦٦٩ بندقية و ١٤ مدفعا و ٤٨٧٩٠٠ خرطوشة كما ورد فى تقرير لستيوارت بتاريخ ٦ مارس . وبفضل ماغنمه العدو فى بارة والأبيض بدأ يستعمل الأسلحة النارية ضد جنود هيكس .

وكان اللورد دوفرين موجودا فى القاهرة ، فى هذه الآونة فكتب اليه هيكس ، فى ٢٥ مايو ، يقول انه « بعد اخماد الثورة » فى سنار سيسحب جنوده توا الى الخرطوم وسيترك حاميات فى كانة والدويم » .

وانه يتضح من جميع التحقيقات التى عملها « ان الحركة الثورية فى مجموعها حركة دينية بحتة » وهذا ما يحمله على الظن بأن المهدى يفقد الكثيرين من أنصاره وان الاعتقاد فى المهدوية أخذ يضمحل وشيكا » .

وليس أدل على جهل هيكس بالحقائق وافتقاره الى النظر الصادق من حسن ظنه وتفاؤله . والذى لاشك فيه أن فرقه كانت قليلة العدد قليلة التدريب قليلة الأجر . أما الفرق القديمة التى تتألف منها حاميات الحصون وكانت فى كفاح مستمر فى أطراف السودان فقد تجمد لها مبلغ ضخم من المرتبات المتأخرة . ولذلك كان علاء الدين باشا الحاكم العام الجديد ورفيق هيكس باشا فى حملته يطالب حكومة القاهرة بارسال ٤٦٠٠٠ جنيه شهريا لدفع مرتبات الجنود والموظفين .

وهذا المبلغ كان لايشتمل على الديون المتأخرة وأثمان الصفقات التى تمت فعلا وبلغ مجموعها ٨١٠٠٠ جنيه وكان لابد من دفعها .

وكان هيكس من ناحيته يطالب قنصل انجلترا ماليت بأن يساعد على ارسال ٦٠٠٠ جندى آخر للقيام بحملة فى الكردفان بمجرد انتهاء فصل الأمطار ، جاء فى كتابه المؤرخ ٣ يونية : « كلما فكرت فى أن الهزيمة ليس معناها فقدان دارفور وكردفان فحسب بل سنار أيضا ومن المحتمل الخرطوم .. لم أجد بدا من الاستهانة بأى خطر فى هذه السبيل » ، وكان يقدر نفقات الحملة فى الستة الأشهر المقبلة بـ ١٢٠,٠٠٠ جنيه خلاف أجور النقل .

وقد بادر ماليت ، فى ٥ يونية سنة ٨٣ ، باخبار غرانفيل بحقيقة الحال « ان سعادتكم تعلمون أنه من المستحيل على الحكومة المصرية أن تقدم الأموال المطلوبة للسودان وان العمليات الحربية المقترحة قد تبوء بالفشل اللهم الا اذا جرت العمليات على خط واسع وأمكن تموين الجيش التموين الكافى . ويحق لنا أن نتساءل عما اذا لم يكن من اللازم أن ترسل

تعليمات الى القائد هيكس لكى يحصر عمله داخل حدود نفوذ الخديوى الحالية فى المناطق الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق » .

ولكن الحكومة الانجليزية لاتحرك ساكنا وتترك الأمور فى أعنتها لغلة ظاهرة .

وفى شهر أغسطس (فى ٥ منه) كتب هيكس الى ماليت ينبئه أن المتأخر لجنود كركوج خمسة وعشرين شهرا ، ولفازوغلى تسعة ، وانه لا كساء عندهم ولا غذاء ، وان متأخر الـ ٨٠,٠٠٠ جنيه الموعودة لم تصل بعد ، وان الجنود يخرجون عن الطاعة ، وان وسائل النقل معدومة كلها . وأخيرا ختم القائد رسالته قائلا : « نظرا للحالة العامة فى مجموعها لا يخالجنى شك فى أن الأفضل الاحتفاظ بالنيلين ومديرية سنار والتريث حتى تحل مشكلة كردفان من نفسها » .

وتلك كانت الخطة الأخيرة التى نادى بها عبد القادر بتنفيذها بعد عودته الى القاهرة . قال نعوم شقير بك فى كتابه (تاريخ السودان) : « وكان عبد القادر باشا اذ ذاك قد عاد الى مصر فألح على الحكومة ببقاء الجيش محافظا على النيل الأبيض من الخرطوم الى فاشودة لمنع امتداد الثورة الى جزيرة سنار وترك المهدى وشأنه فى كردفان الى أن يظهر للناس نفاقه أو تضيق به البلاد فيضمحل من نفسه » .

على أننا نخالف المؤلف حين يقول بعد ذلك : « وكان هذا رأى الكثير من ساسة الانجليز ولكن الحكومة لم تزل مصممة على سحق المهدى فى كردفان خوفا على دارفور وبحر الغزال فأمرت هيكس باشا بالزحف على المهدى فى الحال فكتب تلغرافا فى ١٦ مايو الى حكومة مصر يقول انه لايتحمل مسؤولية الحملة الا اذا كانت له القيادة العامة عليها ولما لم تلتفت الى طلبه قدم استعفاءه فى ٢٣ يوليه سنة ١٨٨٣ فاهتمت اذ ذاك بالأمر ونقلت سليمان باشا نيازى محافظا على عموم

شرقى السودان وجعلت هيكس قومندانا عاما على الحملة وأمرت علاء الدين باشا بمرافقته كقومندان ثان للحملة » .

فالحكومة المصرية ائتمرت بأمر الانجليز أو بعبارة أدق بأمر وزارة الخارجية الانجليزية ، حين استدعت عبد القادر حلمى فى ظروف دقيقة كانت نقطة تحول فى ثورة السودان وعينت مكانه هيكس ثم احتثت القائد الانجليزى على الزج بنفسه وبجيشه المتخاذل فى مجاهل كردفان ..

ولقد كان كل رد ماليت على اقتراح هيكس المتقدم (٥ أغسطس) ، الخاص بالاحتفاظ بالنهرين وسنار وترك مشكلة كردفان تحل من نفسها ، أن حمل الحكومة المصرية على تعيين هيكس قومندانا عاما على الجنود المصرية فى السودان (بدلا من رئيس أركان حرب) وبادر ، فى ١٨ أغسطس ، بارسال تهانيه اليه . وقد حاول فى الوقت نفسه أن يخفى سياسته فأكد له ، بهذه المناسبة « أن هذا التعيين قد أجرته الحكومة المصرية من تلقاء نفسها .. وان تعليمات حكومته تمنعه من ابداء النصيحة ، فيما يتعلق بأعمال الحكومة المذكورة ، نظرا لأن سياسة حكومة صاحب الجلالة ترى لزاما عليها أن تتحاشى ، بقدر الامكان ، التدخل فى شؤون الحكومة المصرية فى السودان » .

ومعلوم أن خطة هيكس ، التى رسمها عبد القادر ، قد لقيت أكبر تأييد من اللورد دوفرين فى القاهرة ، ولكن الحكومة الانجليزية كانت لها خطتها البعيدة الهدف وكانت تخرج بالصمت عن جواب حاسم متظاهرة بترك الأمور وشأنها مكتفية بتصريح مبهم بعدم مسؤوليتها .

ويتضح جليا من النظر فى المحفوظات الانجليزية أن الرأى السائد فى وزارة الخارجية ، فى شهر مايو ، كان يميل الى وقف كل مكاتبة رسمية بين هيكس وماليت « لتخليص الحكومة الانجليزية من كل مسؤولية » .

وفى نفس ذلك الشهر (مايو) غادر دوفرين القاهرة الى الآستانة .

وقد كتب هيكس الى دوفرين ، فى يوليه ، كتابا توجس فيه الكارثة التى حلت به فى نوفمبر ، قال ، بعد أن ذكر أنه « أصبح ولا سند له منذ رحيل دوفرين » ان أوامره لم تكن محل عناية السلطات المصرية المحلية وان « التأخيرات » لا نهاية لها وان المؤن والجمال اللازمة غير مهيأة رغما من الحاجة الملحة وان الفرسان تنقصهم الخيل وان فصيلة من الرجالة (البيادة) انضمت الى العدو بأسلحتها .. وكان ختامه فى النهاية : « انى لا أرى سبيلا الى الزحف قبل سبتمبر ، اذ يتم جمع المحصول واعداد مؤونة الجيش ولكن لن يوجد وقتئذ عشب لقوت الخيل ودواب الحمل . وقد بلغ استهتار الموظفين وتعنتهم أسوأ حد ، وكثيرا ما هدانى اعمال النظر فى مشروع الحملة الى قطع كل أمل ... وقد أبرق الى حسن باشا قومندان النيل الأزرق (سنار) بأن جيشه أصبح بلا ميرة » .

نشر الرسالة السابقة ألفريد لايال فى كتابه عن اللورد دوفرين وعلق عليها قائلا : « حقا لايوجد أحد سوى اللورد دوفرين ، يظهر عطفا صادقا نحو القومندان البائس الذى تحيط به الأعداء وتتخلى عنه الحكومة التى يشتغل فى خدمتها ، بينما تشايلدرز Childers ، فى انجلترا ، منذ تعيينه وزيرا للمالية فى مايو سنة ٨٣ ، لاينظر بغير زعج الى كل ماقد يظن أنه محاولة لمديد المعونة اليه (أى هيكس) فى حملة تنصلت فيها الحكومة (الانجليزية) من كل تبعة [١] » .

ولكن يجب علينا أن نقرر أن هيكس لم يكن الرجل الذى فى استطاعة مواجهة الموقف . وكانت تعوزه خبرة عبد القادر واقتداره وعلو همته . وكان سريع التأثر كثير الاستسلام للأوهام . وشاهد ذلك ماكتبه الى ماليت ، بتاريخ ٦ سبتمبر ، ينبئه بعزمه على السير بجيشه الى كردفان فى اليوم الثامن ثم يقول انه سيلاقى مشاق

---

(١) Alfred Lyall, The Life of The Marquis of Dufferin Ava. 2 vols. انظر الجزء الثانى ص ٥٥ .

كبيرة فى طريقه من جراء الماء ولكنه عظيم الأمل فى أن تكون للترتيبات التى عملها ، فى هذا الصدد ، نتائج طيبة .. وفى ختام برقيته : « ان الاعتقاد فى المهدى فى تناقص مستمر » .

انخدع هيكس بأمثال هذه التصريحات وسار بجيشه فى الصحراء والطرق الجدباء مسافة أربعين يوما والعدو يتعقبه ويراهقه من بعد ومن كثب فلما غادر هيكس الرهد صوب منهل البركة حيث يكثر الماء والآبار كانت قوات المهدى سبقته اليه فاضطر الى الاتجاه الى غابة شيكان حيث وصل فى ٣ نوفمبر . وفى اليوم الخامس كان الأعداء مختبئين فى كمين فباغتوا الجيش وأعملوا فيه القتل فمحوه بعد أن قضى الجوع والظمأ على نصفه . وكانت الخسارة فى الرجال والعتاد ٩٩٧٧ جنديا و ٤٠٠٠ جمّال و ٢٩ مدفعا جبليا و ٧ مدافع كروب و ٦ مدافع من نوع آخر ومليون خرطوشة .

وقد علق اللورد دوفرين على نبأ هذه المجزرة البشرية بقوله فى كتاب أرسله الى اللورد فيتزموريس بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٨٣ : « ماكان يجوز لهيكس المسكين أن يطوح بالجيش الصغير الوحيد الذى تملكه مصر فى مغامرة خائبة الى أقصى حد . ومهما كان من الأمر فانى لا أظن أن الخرطوم وسنار والنيل والمواصلات بين بربر وسواكن يجب التفكير فى اخلائها نهائيا أيا كان التقهقر المؤقت الذى تمليه الحيطة ..

« ولا يسعنى السكوت على ضياع الخرطوم . وانى لأميل الى القيام ببعض التضحيات فى سبيل الاحتفاظ بموقع فى وسعه صد تقدم المهدى صوب الشمال . موقع مصرى ولكنه فى الوقت نفسه مركز أمامى من مراكز المدنية » .

ولكن كان لوزارة الخارجية الانجليزية خطتها البعيدة الغور وكان لها هدفها الذى لا محيد عنه .

الفصل التاسع

غردون فى الخرطوم

منذ ابتداء الثورة والهزائم المتوالية فى قدير وبارة والأبيض وشيكان خسرت مصر فى السودان ٢٧٠٠٠ رجل و ٥٦ مدفعا و ٢٠٠٠٠ بندقية و ١,٥٠٠,٠٠٠ خرطوشة .. وفى مصر نفسها لم يبق الا جيش صغير جديد تحت امرة السردار الانجليزى وود وقوة بوليس يرأسها بيكر .

وكانت الفكرة السائدة فى وزارة الخارجية الانجليزية ارغام مصر على اخلاء السودان ، وقد هيأت هزيمة هيكس فى انجلترا الفرصة لتكليف غردون بتنفيذ هذه السياسة . وقد كتب بيرنج (اللورد كرومر فيما بعد) الذى خلف ماليت فى مصر ، بهذه المناسبة ، الى حكومته ، بتاريخ ٢ ديسمبر (٨٣) يقول : « بالاشارة الى برقية أمس من سيادتكم أتشرف بأن أحيطكم علما بأن الحكومة المصرية ضد استعمال غردون على الاطلاق لأسباب أهمها أن حركة السودان ذات صبغة دينية فتعيين مسيحى فى القيادة العليا قد يكون من شأنه تغيير أنفس القبائل التى لاتزال موالية للحكومة » .

وفى مذكرة كتبت فى سواكن ، بتاريخ أول يناير سنة ١٨٨٩ أى بعد ذلك بخمسة أعوام ، قال اللورد كتشنر « حين انتشر نبأ هزيمة هيكس الكاملة فى كردفان اعتقدت فى الحال جميع قبائل البدو والعرب فى السودان الشرقى أن مهديا جديدا ظهر لانقاذهم من أيدى المسيحيين ، الذين كانوا ، على حد قولهم ، يسيطرون فى القاهرة » .

والواقع أن الحكومة الانجليزية كانت لا تجهل هـذه الاعتبارات وبالأخص نتائج تعيين أوربيين مسيحيين فى السودان منذ سنة ١٨٧٠ . بل هذه الاعتبارات هى التى جعلتها تفرض غردون فرضا على حكومة مصر لاخـلاء السودان كما فرضت من قبـل بيكر وملكولم وغردون وهيكس وخليطا من الأوروبيين أمثال جيسى وأمين وسلاطين وغيرهم للقيام بمهمات كبرى دقيقة فى المناطق المصرية فى أفريقيا .

وكان غردون ينتظر وصوله المقرر فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ . فلم تدخر الحكومة المصرية فى أثناء ذلك وسيلة لتصحيح الموقف . وقد أرسل شريف باشا رئيس الوزارة المصرية ووزير الخارجية ، بتاريخ ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، الى بيرنج ، مذكرة شفوية تبين وجهة النظر المصرية فى سياسة الاخلاء ، هذا نصها :

« ان أول اعتراض يخطر على البال عند النظر فى اخلاء السودان بواسطة مصر هو نص فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ الذى يحرم بصفة قاطعة على الخديوى كل تصرف فى الأراضى المصرية .

« على أنه لو فرض أن مصر كان فى مقدورها ، وبمحض ارادتها ، التنازل عن ممتلكاتها السودانية ، لوجب عـدلا أن نستبين النتـائج المترتبة على ذلك :

« ان الحكومة ، فى الوقت الحالى ، تحتفظ بسلطانها على السودان جميعه ، ماخلا مديرية كردفان والمراكز المصاقبة لسواكن . واذن يكون المراد بالاخلاء ترك الثورة تحتـل السودان الشرقى كله ومديريات بربر ودنقلة وكذلك مجرى النيل من منابعه الى نقطة لم تحدد بعد كحد جنوبى لمصر . واذن يصير المهدى السلطة الوحيدة المسلم بها فى هذه المناطق الواسعة كما أن القبائل التى ظلت موالية لمصر والقبائل المترددة كالكبابيش ستضطر الى الانضمام الى العصاة وتضخيم صفوفهم .

« وبعد أن تكون ساعدت على ازدياد نفوذ المهدى تتضاءل مصر فى أضيق حدودها وتستعد ثمت لكى تلاقى مباشرة صدمة الجماهير المتعصبة . وعليها أيضا أن لاتهمل أمر قبائل البدو العديدة التى تحيط بها من كل جانب ، ولاشك أن هذه القبائل المجبولة على حب النهب والتى تجذبها مصر جذب السراب لن تبقى صماء لا تسمع دعوة المهدى اليها .

« وبعض هذه القبائل كالعبابدة وقسم كبير من اليشارية الموالية حتى اليوم والتى تمتد من بربر الى اسنا وقنا قد تصبح مصدر قلق دائم للحكومة .

« وسترى مصر نفسها ، وقد سلبت حدودها الطبيعية فصارت عوراء من كل النواحى ، مضطرة ، فى سبيل أمنها ، الى استبقاء جيش ضخم فوق طاقتها .

« واحتلال السودان ، على العكس ، مع حسن الادارة ، يتيح لمصر تجنيد الجند بثمن زهيد فى هذه الممالك بل وتحميل هذه الممالك نصيبا من نفقات ذلك الجيش الذى يساعد فى وقت واحد على حفظ الأمن فى السودان وحماية مصر نفسها .

« والثابت ، منذ أقدم العصور الى محمد على ، أن مصر كانت دائما تلجأ الى الهجوم صوب الجنوب لتتقى غارات شعوب النيل الأعلى .

« ولذلك فان حكومة سمو الخديوى لا يسعها أن تسلم بترك أراض ترى أنها لازمة جدا لأمن مصر وسلامتها .

« على أننا لو نظرنا الى الأمر من ناحية المدنية لم يسع المنصف ، أيا كانت وجاهة النقد الموجه الى الادارة المصرية فى السودان ، الا أن يعترف بأن الى جهود مصر يرجع الفضل فى أن الممالك الممتدة حتى البحيرات أصبحت اليوم ضمن العالم المعلوم ، والى مصر يرجع الفضل

فى أن بيوتا تجارية أوربية أمكن تأسيسها فى السودان ، وأن رحـلات علمية استكشافية قد عملت ، وأن بعثات من المبشرين المسيحيين قد وطنت .

« وليس من اليسير انكار ما قامت به مصر للحد بقـدر الامكان من تجارة الرقيق مما ساعد المهدى على تجنيـد أكبر انصاره من بين أولئك الذين عرقلت الادارة المصرية تجارتهم الشائنة .

« ولكن لأجل أن توالى عملها فى السودان وتوطد سلطتها وبالتالى تحمى مصر تحتاج حكومة سمو الخديوى الى معونة مؤقتة قوامها جيش مكون من زهاء ١٠٠٠٠ رجل .

«وستستعمل هذه القوة المسلحة أولا فى فتح الطريق بين سواكن وبربر ثم تستبقى كحامية لوقت محدود الى أن تتمكن الحكومة من تجميع وحشد قوات تحل محلها .

« ولا حاجة بنا الى القول انه لا يخطر على بال الحكومة مطلقا ارسال حملة الى كردفان . ولكنها ستكتفى بالتهيؤ للبقاء فى الخرطوم لتأمن جانب السودان الشرقى وتهيمن على مجرى النيل .

« ونظرا للصفة الدينية التى تتسم بها الثورة ترى حكومة صاحب السمو أن أنسب تدخل فى هذا الظرف هو التـدخل التركى ، وهى تعتقد أن الباب العالى لن يحجم عن تقديم هذه المعونة الى بلد كمصر سبق أن مده بقوات فى القرم وكريد والصرب وبلغاريا . وأن الحاجة الملحة العاجلة الى مثل هذه المعونة لن تخفى على الباب العالى ليحول دون انتشار الثورة فى طرابلس الغرب وبلاد العرب . على أن الحكومة شديدة الرغبة فى أن كل ارتباط من هذا النوع يدعم باتفاق مع بريطانيا العظمى سواء أكان ذلك بأن تتولى حكومة صاحب الجلالة المفاوضة باسم مصر أو بأن تتفق مصر رأسا مع الباب العالى » .

وقد عرقلت انجلترا مشروع ارسال جنود تركية بتحتيمها أن تقوم تركيا بالانفاق على الحملة من مالها كما عرقلت كل فكرة أخرى تتعارض فى شكل من الأشكال مع سياستها الخاصة باخلاء السودان حتى أصوان أو وادى حلفا . وقد أظهرت فى الوقت نفسه استعدادها للمعاونة على حفظ النظام فى مصر والدفاع عن هذه الأخيرة وعن مين البحر الأحمر .

أرسل شريف باشا ، بتاريخ ٢ يناير سنة ١٨٨٤ ، مذكرة سرية الى بيرنج يشير فيها الى مذكرة ٢١ ديسمبر ويبين له « الضرورة التى تحتم على مصر الاحتفاظ بأعالى النيل » .

والواقع أن مصالح مصر أصبحت تصطدم مع مصالح انجلترا اصطداما عنيفا خلف سياسة الاخلاء . وقد بادر بيرنج ، فى ٥ يناير ، بابلاغ الحكومة المصرية أن حكومة صاحب الجلالة لا تعتقد أن مصر فى امكانها الدفاع عن الخرطوم ، وترغب فى سحب القوات من داخل السودان ، بما فيه الخرطوم .

ولكن شريف لم يتزعزع . وفى هذه الفترة وصلت برقية غرانفيل الشهيرة التى أبلغ بيرنج بمقتضاها ، الحكومة وشريف باشا ، بتاريخ ٦ يناير « انه من الضرورى فى المسائل الهامة المتعلقة بشؤون الادارة وسلامة مصر أن تتبع مشورة حكومة صاحب الجلالة مابقى احتلال القوات الانجليزية المؤقت فى البلاد » .

لم يبق أمام شريف الا أحد أمرين : الخضوع أو الاستقالة وقد آثر الاستقالة ونشر على الملأ نصها (٧ يناير) :

« ان حكومة صاحب الجلالة تحتم علينا اخلاء السودان ، وليس لنا الحق فى الموافقة على ذلك الاخلاء لأن الباب العالى وهو المالك الشرعى قد وكل الينا أمر هذا البلد .

« تقول حكومة جلالة الملكة أن مصر يجب أن تتبع مشورتها دون

مناقشة . وفى ذلك اعتداء على مرسوم ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨ الذى يحكم الخديوى بمقتضاه مع وبواسطة وزرائه . اننا نستقيل لأنه حيل بيننا وبين الحكم طبقا للدستور » .

ولكن انجلترا ما كان ليعنيها انتهاك الدستور أو حقوق بلاد احتلتها بالقوة . ومهما كان من الأمر فان الاخلاء الذى تريده لم يكن ذلك الاخلاء المرتب المنظم الذى تقتضيه الظروف ولكن اخلاء مضطربا عاجلا من شأنه ازالة الحواجز دفعة واحدة أمام قوات الثورة والفوضى فى أرجاء الوادى وتوكيد فصل السودان وملحقاته ، وتعريض حياة الحاميات المصرية والمدنيين لخطر محقق وايجاد حالة تهديد ضاربة على أبواب مصر .

وقد أبت وزارة نوبار ، التى ألفت فى ١٠ يناير ، اخلاء مجردا ، ولا ريب أنها كانت تريد اخلاء مرتبا منظما كما يبدو من ابلاغها بيرنج ، منذ يوم ١٤ يناير ، أنها قررت ايفاد عبد القادر باشا حلمى وزير الحربية الى الخرطوم ليشرف على سحب الحاميات من السودان .

وكان نوبار يقول : ان القيادة العليا لن يسلم زمامها الى يد أفضل من يد عبد القادر الذى يعرف من السودان مالا يعرفه غيره فضلا عن أنه ضابط شجاع كفء .

ومن تحصيل الحاصل القول بأن الحكومة الانجليزية عارضت فى فكرة نوبار التى كان يؤيدها بيرنج لأنها لا تتفق مع الهدف المرسوم . ومن العدل أن نقرر أن جميع الممثلين الانجليز ، فى أثناء ثورة السودان وفى أطوارها المختلفة ، كانوا باستمرار على خلاف تام أو جزئى مع حكومة لندرة من جراء سياستها المصرية لأنهم كانوا يجهلون أو يتجاهلون أحيانا هدفها الحقيقى الذى لا يأتلف مع منطق الحوادث والحقائق الظاهرة .

لذلك نرى القائد فالنتاين بيكر باشا الذى كان فى السودان الشرقى منـذ ١٧ ديسمبر يعلن الى بيرنج ، فى كتاب مرسـل من سواكن ، بتاريخ ٧ يناير ، « انه يعتقد كل الاعتقاد أن ضياع السودان سيكون ضربة فادحـة لمصر وأن النفقات الضرورية للدفاع عن مصر نفسها ستكون مصدر خراب مالى لها فى المستقبل وأكثر أضعافا من المبالغ التى تكون قد أنفقتها فى السودان فى الماضى » .

وقد بعث بيرنج نفسه بكتاب سرى ، بتاريخ ١٩ يناير ، الى اللورد غرانفيل ، جاء فيه : « قابلت الخديوى هذا الصباح ، وقد أطلعنى فى أثناء الحديث ، على خطاب وصل اليه أخيرا من السير صمويل بيكر . وقد أبدى بيكر فى هذا الخطاب أسفه الشديد على اخلاء السودان مؤكدا أنه ، بفضل سياسة غلادستون ، أصبحت مصر فى حالة يرثى لها وأنها قد استبدلت العبـودية بحريتها . ثم رجا الخديوى أن يعمل كخديوى وأن يحارب بكل عزة هذه المقترحات — يعنى بصفة خاصة الاقتراح المتعلق باخلاء السودان [1] » .

وأخيرا ، فى ٢٥ يناير ، وصل غردون الى القاهرة ، وقلده الخديوى سلطات الحاكم بأمـره . وفى اليـوم السادس والعشرين سافر الى السودان . ولكنه فى اليوم ذاته أوصى بارسال الزبير الى السودان نظرا لكفاءته وحزمه ونفوذه الواسع فى ذلك الاقليم .

وفى أثناء الطريق كان غردون يرسل مذكرات الى بيرنج . وهذه المذكرات تكشف عما كان يشغل باله من ناحية « اخلاء السودان » . ومنها يتضح أنه كان يريد « اخلاء » مرتبا متدرجا من شأنه حصر الفوضى فى حدود ضيقة وانقاذ أعمال المدنية التى قامت بها مصر فى السودان . ولاريب أن هذه السياسة « المنطقية » التى لا تستغرب على

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٦٦٥

طبيعة غردون والتى لم ترق فى أعين حكومة لندرة تفسر لنا من ذلك الوقت السر فى مسلك الحكومة الانجليزية ازاء غردون وامتناعها عن ارسال النجدات الضرورية فى ميعادها والتضحية به فى صورة من الصور .

جاء فى مذكرة غردون الأولى التى وصلت القاهرة فى أول فبراير : « ان مشكلة المشاكل هى معرفة كيف ولمن تترك ترسانات الخرطوم ودنقلة وكسلا ؟ ومعلوم انه لا توجد أسر عريقة فى هذه المدن وان الخرطوم وكسلا حديثتان لأن بداية انشائهما ترجع الى أيام الفتح فى فى عهد محمد على » .

وفى ٨ فبراير (سنة ١٨٨٤) كتب غردون الى بيرنج من أبو حمد : انك لا تجهل أن نظاما عاما للبريد والبرق موجود فى السودان وأن محاكم قد أنشئت وادارات مالية وغيرها قد أسست ، وأن البلاد ، بصفة عامة ، قد ألفت ، ردحة طويلة من الزمن ، حكومة تراقب وتوجه وتدير الى حد ما .

« فالاخلال بهذا النظام ان لم يكن محوه ، فى الظرف الحالى ، معناه ، فى نظرى ، دفع البلاد الى الفوضى الكاملة . فكر فيما تؤول اليه الأحوال ...

« من أجل ذلك أرى أن الحكومة المصرية يجب عليها الاحتفاظ بمركزها كدولة متبوعة ، وتعيين الحاكم العام والمديرين وأن تكون فى ممارسة سلطتها شبه محكمة استئناف عليا . على أن لا يخرج اشرافها وادارتها العليا عن الصفة الأدبية البحتة .

« وعلى الرغم من كل ماحدث ، أرانى فى اغتباط لشعورى بأن هيبة حكومة القاهرة ، الا فيما يتعلق بمسلك جنودها فى ميادين القتال ، لم يصبها تخلخل جدى ، وأن القوم لا يزالون ينظرون الى حكومة القاهرة

باعتبارها الممثلة الشرعية للسلطان فى شخص الخديوى ، وان الانفصال التام ، فى نظرهم ، اذا تحقق ، كان أمرا ادا .

« لذلك ألح فى أن تكون الخطة التى تتبعها قائمة على الاخلاء evacuation لا الترك abandon وأن يحل محل الفرمان الذى أستمد منه سلطاتى فرمان آخر يعترف برقابة مصر الأدبية وبمركزها كدولة متبوعة [1] » .

هذه الوثيقة الهامة كانت تحمل امضاء غردون بصفته (الحاكم العام للسودان ومديريات البحر الأحمر) .

وفى ٢٨ فبراير كتب بيرنج الى حكومته يقول انه لا يوجد الا أحد أمرين : اما اخلاء السودان كله وتجنب أى مجهود لايجاد حكومة ما فيه قبل الرحيل واما العمل بكل الوسائل الممكنة فى الوقت الحالى على توطيد حكومة ما تحل محل الادارة المصرية السابقة .

« ان غردون من أنصار الفكرة الأخيرة وانى على اتفاق تام معه ..

« وأيا كانت وجهة النظر من الناحية السياسة أو العسكرية أو المالية لا مراء فى أن الموقف سيكون فى منتهى الخطورة اذا نحن سمحنا للفوضى المطلقة أن تهيمن فى جنوب وادى حلفا ، هذه الفوضى التى ستعقب حتما ذهاب غردون » .

وقد أوصى بيرنج فى ختام رسالته بارسال الزبير باشا خصوصا وأن طلبه هذا يؤيده بقوة غردون ونوبار .

ولكن الحكومة الانجليزية تمسكت برفضها بحجة أن الزبير من تجار الرقيق القدماء . والحقيقة أنها كانت تخشى أن يؤدى استعمال الزبير الى سحق حركة المهدى وايجاد حكومة وطنية قوية ، بعد رحيل غردون

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٦٦٧

وبالتالى الى عرقلة الخطة الانجليزية المبيتة فى لندرة وأهدافها البعيدة فى السودان .

والحق يقال كان غردون معارضا للترك وللاخلاء معا اذ كان يرى (برقية ٢٦ فبراير) أن المهدى يجب سحقه اذا أرادت مصر أن تعيش فى سلم وطمأنينة « اذكر دائما هذه الحقيقة وهى أنه اذا تمكن المهدى من أخذ الخرطوم أصبحت مهمتنا أكثر وعورة منها بالأمس ... وانى أكرر أن الاخلاء ممكن ولكنكم ستحسون بآثاره فى مصر ، وانكم سترغمون على مواجهة موقف جديد أشد خطورة للدفاع عن مصر » .

وأخيرا طلب غردون فى برقيته ارسال ٢٠٠ هنـــدى الى وادى حلفا ومال ...

والحكومة الانجليزية ، كدأبها ، لا تجيب طلبا لغردون أو للسلطات المحلية الانجليزية أو المصرية ، فى القاهرة : لا زبير ولا جندا من تركيا ولا جندا من الهند .

وفى أول مارس ، بعد أن أعلن تمسكه بسياسة الاخلاء المحتمل ، قال : « لقد كان الزبير أملى الوحيد . سأعمل جاهدا ، قدر الطاقة ، على تنفيذ تعليماتى ، ولكننى موقن كل الايقان اننى سأوخذ فى الخرطوم » .

وفى ٨ مارس : « أمام العاصفة التى ستنصب على كتدنا لماذا لانستعمل وود وقواته (المصرية) للسير الى دنقلة ومن هناك الى بربر . ان الطريق مأمون والجمال كثيرة » .

الواقع أن غردون كان يضرب على حديد بارد . وكانت كل تصرفات السلطات فى لندرة والقاهرة معه وسكوتها عن نصرته مما يساعد على اتساع الثورة وانضمام أنصار جدد كل يوم لها . وقد كان لاعلان نبأ ترك السودان على ملأ من السودانيين ، فى ذلك الوقت أكبر الأثر فى تقوية نفوذ المهدى واضعاف قضية مصر .

لم يسع غردون الا أن توفر على تنظيم المقاومة فى الخرطوم وقد سار على نهج عبد القادر فى تحصين الخرطوم والاستعانة بكبار الضباط المصريين والسودانيين ولكنه على الرغم من قوة جلده وذكائه كانت تنقصه رجاحة عقل عبد القادر وقدرته الواسعة وبصره بالرجال ولم يكن على أية حال « رجل الساعة » للقيام بمهمة دينية عسكرية معا . وقد حاول أن يقلد عبد القادر فكتب بتاريخ ٢١ فبراير ، الى الشيخ البصير ، أحد أقرباء المهدى ، ورئيس العصاة فى النيل الأبيض خطابا مملوءا بالآيات القرآنية والأحاديث التى تثبت كذب دعوة المهدى . ولكنه فى الوقت نفسه أظهر روحه الانجليزية بوعده بانقاص الضرائب ومعاملة الموظفين الوطنيين بالعدل والحسنى .

ولا ريب أن أخطاء الادارة المصرية ، وهى أخطاء فى طبيعة كل ادارة للبشر — اذا استثنينا اجراءات العنف التى اتخذت ضد تجارة الرقيق وما اليها من مصادرة وبطش وعدوان — لم تكن الا عاملا ثانويا جدا فى الاستياء العام . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه لم يكن هناك استياء عام بالمعنى الصحيح وأسباب جدية كافية لايجاد ثورة . ان الثورة المهدية ، بصبغتها الدينية البحتة ، لم تكن كغيرها من الثورات . انها حركة قد نشأت ونمت ووجدت غذاءها ومادتها فى النفوس لا فى العوامل المادية البحتة . وقد كان الدراويش والفقهاء والأعراب الذين تتألف منهم كتائب المهدى يتهافتون على الموت تسوقهم فكرة روحانية وعقيدة تسلطت عليهم وألهبت تعصبهم وتحمسهم للقتال . واذا حللنا منشورات المهدى كلها تبين لنا أنه لايوجد أية اشارة الى الادارة المصرية والى الضرائب وحتى الى تجارة الرقيق . كان المهدى يستحث أنصاره وعصبه على محاربة النصارى (الأجانب) والترك الذين زعم المهدى « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره صريحا بقتالهم وأخبره بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعه وارادتهم لاطفاء نور الله تعالى الذى

أراد به اظهار عدله » ، وكان يعدهم الجنة والثواب فى الآخرة . وكانت انتصاراته ودعاواه المصطنعة من رؤى يرى فيها النبى فيقول له كيت وكيت ويبشره بكيت وكيت تخدم دعايته بين القبائل والجهال والمشعوذين والسذج وهم السواد الأعظم فى البلاد .

ولذلك كانت منشورات غردون على أهل الخرطوم فى شهر فبراير لاتمت بصلة الى الحقائق الراهنة ، وكانت تنم عن فكر مشوش مضطرب ، وهى قائمة على محاربة الثورة بالقضاء على الأسباب التى مهدت لها ، وهذه الأسباب فى نظر غردون أهمها تجارة الرقيق ووسائل العنف التى استعملت للقضاء عليها وفداحة الضرائب وطرق جبايتها وهى تتلخص فى غشم الولاة وظلمهم .

وقد بينا من قبل أن معظم التبعة ، ان لم يكن كلها ، يقع على « الادارة المختلطة » التى بدأت تثير الفتنة فى السودان منذ دخولها فى سنة ١٨٧٠ ، وان العامل الدينى كان هو المحرك الأكبر الذى انتظم الحركة فى البلاد .

قال غوردون فى أحد منشوراته : « ان السودان قد فصل عن مصر فصلا تاما وقد جئتكم حاكما مفوضا عليه فجعلت محمد أحمد سلطانا على كردفان ، وألغيت الأوامر الصادرة فى منع الرقيق ، وأغضيت عن المتأخر من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وعن ضرائب سنتين فى المستقبل ، وسأجعل حكومة وطنية من أهل البلاد ليحكم السودان نفسه بنفسه ، وقد ندبت الشيخ عوض الكريم أباسن ليكون مديرا على الخرطوم .. »

كان المهدى منذ موقعة شيكان يستعد للزحف على الخرطوم وقد ظهرت الحكومة المصرية أمامه ، فى شخص غردون ، بمظهر العاجز الحائر . وبينما كان العصاة يشرعون فى حصار الخرطوم (١٢ مارس سنة ١٨٨٤) كانت الثورة تنتشر حوالى النيل ، فى سنار وفى اتجاه بربر .

وكان خطرها من ناحية المدينة الأخيرة يهدد بقطع طريق النيل (حلفا – أبو حمد – بربر) وطريق السودان الشرقى (سواكن – بربر) أمام كل حملة تركية أو انجليزية لانجاد غردون .

والذى يزيد من حرج الموقف ودقته اشتداد الحالة فى السودان الشرقى ، حيث كان الايذان ببدء الثورة فى منتصف سنة ١٨٨٣ حين نجح عثمان دقنه ، وهو أشد أعوان المهدى بأسا ودهاء وجلدا على الكفاح ، فى حملة قبيلة الهدندوة والقبائل الأخرى على الانضواء تحت راية المهدى وتطويق سواكن . فلم يمض نصف عام (فى أواخر سنة ١٨٨٣) حتى كانت الحاميات المصرية كلها فى المدن المحصنة المختلفة لغاية حدود الحبشة محاصرة (سنهيت وطوكر وكسلا وأماديب وغرة والقضارف والقلابات) .

وكان القائد الانجليزى بيكر يريد انقاذ سنكات أولا ولكنه علم من قومندان حامية طوكر أن المدينة قد نفدت ذخيرتها فذهب لنجدتها من سواكن على رأس خليط من الفرسان المصريين (٣٠٠) والفرسان الاتراك (١٥٠) وجندرمة القاهرة والاسكندرية (١١٥٠) وعساكر مصوع (٤٥٠) والمشاة الأتراك (٤٢٩) وعساكر الزبير باشا السودانية (٦٧٨) والطوبجية المصرية (١٢٨) ومجموعهم ٣٦٥٠ . ولما نزل فى ترنكتات (٢٨ يناير سنة ١٨٨٤) احترب مع عبد الله أمير الساحل وانجلت الموقعة عن مجزرة خسر فيها بيكر ٢٢٥٠ جنديا و ٩٦ ضابطا و ٤ مدافع ونصف مليون خرطوشة و ٣٠٠٠ بندقية فقفل راجعا الى سواكن وترك سنكات تحت رحمة الفناء أو التسليم .

وقد قاومت سنكات مقاومة البطولة قبل سقوطها فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٤ بدأ حصارها فى ٥ أغسطس سنة ١٨٨٣ ، ومنذ ١٨ أكتوبر من نفس السنة كانت جميع المواصلات مع الخارج قد قطعت بأكملها . وبعد أن أكلت آخر قطة وآخر جمل عاش القومندان توفيق بك

والمدافعون على الفيران والكلاب والأحذية ... وأخيرا أكلوا الحشرات وأوراق الشجر والطيور الجارحة التى كانت تحلق أو تحوم حول المكان .
وعلى الرغم من الجوع وتهدم الحصن الذى كانت تحميه أكياس من الرمل فان الجنود كانوا لاتخور عزيمتهم . فلما لم يبق شيء يقتاتونه رمى توفيق وجنوده المدافع فى الآبار ودمروا كل ما قد ينفع الدراويش ثم خرجوا — ونساؤهم وأطفالهم فى أعقابهم — وكان الجميع ٧٠٠ نفس — وحملوا على العدو حملة شعواء ودوخوه وغلبوه مرارا حتى اضطر العدو الى جلب نجدات جديدة وسحقهم تحت عدده وقد ذبح الرجال وأسر النساء اللواتى نجون من الموت ، وباع الأطفال عبيدا . وقد قاتل توفيق بشجاعة الى الممات .

كتب جاكسون فى كتابه عن (عثمان دقنه) يقول : « فى أثناء الستة الأشهر الأخيرة من المعارك كان دفاع البطل توفيق بك الصفحة الوحيدة الرائعة » .

وعلى أية حال كانت هناك صفحات رائعة كثيرة فى السودان شرقا وغربا منذ الأبيض » .

وفى أثناء ذلك كان بيكر غادر سواكن على عجل بفلول قواته فى حالة هرج ومرج لانظير لها . ولما كانت منطقة البحر الأحمر تهم انجلترا بنوع خاص فقد قررت ارسال حملة بقيادة جراهام لانقاذ طوكر ، وكانت مهمته محدودة ، ولكن طوكر سقطت قبل انجادها (٢٠ فبراير) .

وكان توفيق بك قبل ضرب الحصار الكامل حول مدينته ، من يولية الى سبتمبر ، أوقع بعثمان دقنه هزائم كثيرة ، فكان لابد من سحق دقنه نهائيا اذا أريد ، من جهة ، انقاذ كسلا والمواقع الأخرى المحاصرة ومن جهة أخرى فتح طريق بربر لمنع سقوط هذه المدينة الأخيرة وانجاد الخرطوم .

وقد انتصر جراهام ، فى أواخر فبراير ، على العدو فى معركة التيب فترك ٢٠٠٠ قتيل (من ٦٠٠٠) خلاف الجرحى ، واحتل من جديد طوكر فى أول مارس ، وفى ١٤ منه هزم عثمان دقنه فى تماى ، مركز جيشه ، وقتل له ٢٠٠٠ من « الأنصار » .

وكان النيل جميعه ، ابتداء من الخرطوم ، يتطلع فى محنته نحو السودان الشرقى ، كتب الكولونيل ستيوارت فى أول مارس الى بيرنج يقول : « لقد تبين لى فى سياحتى الأخيرة على النيل الأبيض أن السكان يتحفزون . ويظهر أن المهدى يؤثر أن لا يتحرك الى الأمام ينتظر قبل أن يتحقق من نبأ الحملة الانجليزية المنتظرة .. « فاذا نظرنا الى الأمر من هذه الزاوية لم يسعنى الا الاغتباط من كل قلبى ، بنزول جراهام فى سواكن . وأرى أن يتقدم الى بربر بعد هزيمة عثمان دقنه ، فهذا هو السبيل الوحيد لانقاذ حاميات سنار وغيرها .. »

وفى ١٣ مارس أبلغت وزارة الخارجية الانجليزية بيرنج انها لا توافق على الاقتراح الخاص بالزبير ولا على مناورة بربر . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، فى ١٦ مارس ، كتب اللورد غرانفيل الى بيرنج : « اننا موافقون على الحركة التى قام بها جراهام شطر سنكات ولكننا لا نسمح مطلقا بتقدم أية قوة فى اتجاه بربر حتى تصلنا المعلومات الكافية عن الأحوال العسكرية وحتى تتأكد تماما من ضرورة هذا التقدم لتأمين غردون لا أكثر » !..

وفى شهر مارس ، وعلى الرغم من هزائمهم ، انتهز عرب عثمان دقنه فرصة سكون جراهام القهرى وقطعوا الطريق بين سواكن وبربر وأخذوا يهددون طريق كوروسكو الذى يعتبر خط الانسحاب الوحيد لبربر ولمدافعيها التعساء ولآلاف الرجال والنساء والأطفال .

وفى ٢١ مارس كتب بيرنج الى حكومته : « يلوح لى أنه ليس من

المستحسن مطلقا منع جراهام من مهاجمة عثمان دقنه ، اذا اقتضى الأمر ، لفتح الطريق الى بربر » .

وفى ٢٣ مارس جاء رد وزارة الخارجية الانجليزية : « وصلت برقيتكم المؤرخة ٢٢ الجارى بخصوص اقتراح جراهام الزحف الى ايمانيب ومهاجمة عثمان دقنه فى مقره الحالى .

« ان حكومة صاحب الجلالة تستنكر كل عمل حربى جديد ليس له هدف معين » .

على أن وزارة الخارجية لاتلبث أن تقول بعد ذلك : « ولكن اذا كان جراهام يرى أن تأمين طريق بربر يستدعى هذه العملية فاننا نأذن له بالتقدم لغاية ايمانيب » .

ثم بعد كل هذا الروغان والتردد خشيت وزارة الخارجية مغبة الابهام السياسى والوقوف بين لا ونعم فكاشفت بما تنطوى عليه وقررت ابلاغ بيرنج ، « رفضها ارسال حملة انجليزية الى بربر » .

وفى نفس اليوم أرسلت وزارة الخارجية برقية سرية الى بيرنج لتقول له « ان غردون مطلق الحرية فى البقاء بالخرطوم أو فى الانسحاب عن طريق الجنوب أو عن أى طريق آخر » .

معنى ذلك أن انجلترا كانت تريد التضحية على طول الخط بغردون وبربر ودنقلة وكسلا والسودان جميعا وحامياته وآلاف المدنيين والأنفس وكل مايمكن انقاذه ، وانها كانت تريد فى نفس الوقت اطلاق العنان للفوضى والمذابح والنهب والسلب لتفعل فعلها وتأتى على جميع منشئات الحضارة والعمران التى أقامتها الادارة المصرية منذ عهد محمد على .

وبذلك كانت انجلترا تريد أن توجد فى السودان حالة تسمح لها بتطبيق النظرية القانونية « الأرض التى لا مالك لها »

لتمهد لنفسها فرصة الاستيلاء عليه من جديد عندما تسمح الظروف، وامتلاكه بحق الفتح .

وهذا الغرض المستتر الذى تهدف اليه الحكومة الانجليزية منذ تدخلها فى السودان وارغام مصر على استدعاء عبد القادر باشا أو بعبارة أدق منذ تعيين بيكر على رأس حملة خط الاستواء كان لابد من بلوغه بأى ثمن ، وهذه السياسة العليا منطقها الوحيد فى وسائلها الجبارة التى تبررها الغاية . وكان بيرنج وأمثاله من الممثلين الانجليز ، كما قلنا ، يعارضون فى هذه السياسة لأن منطق الحوادث كان يهولهم .

وعبثا كتب بيرنج الى حكومته ، بتاريخ ٢٦ مارس يقول ردا على برقية ٢٥ السرية : « تشرفت باستلام برقية أمس .. وانى على كل الأحوال لا أستطيع أن أحاول تبليغ رسالة كهذه قبل أن أعرض الأمر من جديد على سيادتكم . فاسمحوا لى أن أتقدم برجاء حكومة صاحب الجلالة أن تضع نفسها مكان القائد غردون والكولونيل ستيوارت . ان هذين الضابطين قد أرسلتهما حكومة صاحب الجلالة للقيام بتنفيذ مهمة من أصعب المهمات وأخطرها . وقد رفضت الحكومة اقتراحهما الخاص بارسال الزبير باشا الى الخرطوم مع أن هذا الاقتراح لو نفذ ، من بضعة أسابيع ، لتغير الموقف كله ولأمكن تفادى نتائجه المتوقعة .

« وفى حالة استلام غردون وستيوارت التعليمات التى تشتمل عليها البرقية المشار اليها آنفا فانهما سيستخلصان منها ، ان الحكومة الانجليزية ستتخلى عنهما وعمن معهما ، وانهما لايجوز أن يفكرا فى وصول مساعدة ما من هذه الحكومة بعد اليوم ...

« والحق يقال انى لاأعتقد فى استحالة انجاد غردون حتى فى الصيف باستعمال الجنود الهندية .. واذا فرض وتعذرت المساعدة فى الوقت الحالى فانى أقترح بالحاح أن يكلف غردون بالاحتفاظ بمركزه فى الخرطوم

فى أثناء الصيف وأن ترسل اليه حملة فى أول الخريف بحيث تصل النجدة فى حينها اذا كان الحصار لايزال باقيا .. »

ثم يقول بيرنج فى الختام : « بما أننا أرسلنا غردون الى الخرطوم يلوح لى أن فى عنقنا التزاما أدبيا ، من الناحيتين الانسانية والسياسية ، يقتضى منا عدم التخلى عنه » .

ولكن قضى الأمر ، وظلت فكرة الحملة الشهيرة (حملة بعد الأوان The Too LATE Expedition معلقة بين التردد والاحجام ولم يتقرر أمرها فى لندرة الا فى آخر أغسطس . أى بعد خمسة أشهر من تاريخ عرض اقتراحها .

وقد كان غردون بالهامه على بينة من الأمر يستشف أبعد البواطن فى سياسة حكومته . شاهد ذلك برقيته الى بيرنج بتاريخ ٣١ مارس : « أخاف أن تكون الآن موغلا فى تضييع وقتك بلا جدوى وأن لا يُنتج عملك الا بعد الأوان » .

وفى أثناء ذلك كانت السلطات تكتفى بابقاء سواكن والساحل تحت حماية السفن الانجليزية بينما فى داخل السودان الشرقى ، على أثر انسحاب قوات جراهام ، اضطر معظم السكان ، على كره منهم ، الى الانضمام الى العصاة .

وقد كتب الكولونيل تشيرمسايد ، فى ٩ أبريل ، من سواكن ، يصف الحالة : « ان العصيان الحالى قد أدمج فى « اتحاد » جميع القبائل العربية التى كانت بطونها وأفخاذها المتعددة المختلفة يندر فى التاريخ أن تتحد وتتألف منها كتلة واحدة الا اذا استثنينا عصور الحركات الدينية القوية . وهى تؤلف مؤقتا شعبا خاضعا منظما رزق شجاعة خارقة مستميتة . ويؤدى عثمان دقنه مهمته كعامل للمهدى دون أن يتقاضى أجرا أو يتلقى أقل مساعدة مادية من مال أو غيره » .

وقد أرسل عثمان دقنه ٤ مدافع الى العرب المحاصرين الذين كان عددهم فى ازدياد حول بربر ، فى حين أن المدينة كانت لاتملك الا مدفعا واحدا وقوة حربية صغيرة (٢٨١٠ جنود نظاميين وغير نظاميين ضد ٥٠,٠٠٠ مسلحين بالبنادق والحراب والسيوف) . وعبثا أرسل حسين باشا خليفة المدير النداء بعد النداء طالبا من حكومة القاهرة انجاده من طريق سواكن أو من أصوان حيث وصلت قوات مصرية جديدة (منذ مارس) .

سقطت بربر فى ٢٠ مايو ، وقد أعمل العرب حين دخلوها القتل فى الأهالى والمدافعين على السواء (٢٠٠٠ قتيل) ونهبوها عن آخرها .

وكان لهذه الحوادث المتتابعة وقع أليم فى مصر . وقد أبلغ بيرنج حكومته أن الرأى العام فى مصر ثائر . وان احدى الصحف المصرية كتبت تقول :

« ان الصحف الانجليزية حين علمت التخلى عن بربر للعصاة تعلن غير هيابة ان المدن الأخرى ستلاقى نفس المصير وشيكا .

« وهذا أمر لا نظير له فى التاريخ . وان هدف السياسة الانجليزية واضح . لن تخطو خطوة واحدة لانقاذ السودان ، فى الصيف ولا فى الشتاء ، أو لانقاذ غردون .

« وقد نجحت انجلترا بهذه السياسة التى لاضمير لها فى نقض عمل محمد على وخلفائه فى السودان من أساسه [1] » .

وبعد الاستيلاء على بربر قصد الدراويش دنقلة حيث صدهم مرارا قائد الحصن مصطفى باشا ياور وأوقع بهم خسائر جسيمة فبقيت الخرطوم وكسلا وسنار ودنقلة والقلابات تقاوم فى أحرج ساعاتها .

---

(١) لم نعثر على النص العربى الأصلى .

وأخيرا وصلت الحملة الموعودة (حملة بعد الأوان) مصر فى شهر سبتمبر . ولم تصل حلفا الا فى شهر أكتوبر لانقاذ الخرطوم من طريق النيل ، ولكن حين وصلت طلائعها بالقرب من الخرطوم كانت المدينة قد سقطت (٢٦ يناير سنة ١٨٨٥) .

وقد عانت المدينة فى أثناء الحصار ضروب البلاء وأصابها فى الأشهر الأخيرة الجوع والقحط وفقد غردون خيرة أعوانه من القواد المصريين والسودانيين ومن بينهم القائد السودانى محمد على باشا الذى انتصر مرتين انتصارا رائعا على الأعداء ولكنهم تمكنوا منه وأخذوا جيشه على غرة على النيل الأزرق فى سبتمبر فمزقوا شمله .

ويستدل من أقوال شهود العيان ان جنود الحامية فى الشهر الأخير أكلوا حمير المدينة وان اردب الاذرة كان يباع بألف ريال .

وقد اقتحم الدراويش المدينة فى مطلع الفجر وقتلوا كل الرجال حتى الشيوخ والمرضى وأعملوا النهب والسلب كعادتهم فلم يبقوا على شىء وباعوا النساء والأطفال بيع العبيد . وذبحوا جميع موظفى الحكومة وأسرهم وكثيرين من التجار والسكان الآمنين ومعظم جنود الحامية .

ويقدر عدد القتلى فى الخرطوم بـ ٢٠,٠٠٠ ، وقد استمرت المذبحة ست ساعات . ودام النهب والتخريب ثلاثة أيام أصبحت المدينة بعدها كومة أنقاض . وقتل غردون فيمن قتلوا ...

وقد اضطرت حملة بعد الأوان أن تعود أدراجها بعد أن بلغت هدفها الحقيقى : الوصول بعد الأوان . وقد كتب كرومر فى هذا الصدد يقول : « ان سوء التقدير الذى ارتكبه غلادستون وصمة فى سمعة انجلترا وليس فى وسع التاريخ المنصف ولا القاضى المتحيز محوها أبد الدهر » .

وكان غردون بصدق حسه والهامه ومعرفته ببواطن السياسة الانجليزية يتوقع وصول الحملة بعد الأوان اذ كان كتب فى يومياته بتاريخ ١٣ أكتوبر سنة ١٨٨٤ : « لقد كتب على الخرطوم أن تؤخذ تحت عين الحملة وأنفها فى اللحظة التى تصل فيها تماما . ولقد تظن الحملة أن عليها أن تسترد المدينة ، ولكن مثل هذا العمل لن يقدم ولن يؤخر وسيجر الى معركة دامية بلا جدوى : والخير كل الخير فى أن تعود أدراجها فى أمن وسلام وهى تأكل الخزى وتشربه » .

وقد علق مترجم (يوميات غردون) الى الفرنسية على ذلك بقوله : « يلاحظ أن الحكومة البريطانية قد ضربت بجميع آراء غردون عرض الحائط الا هذا الرأى فقد أخذت به » .

وكان غردون توقع أنه « سيؤخذ فى الخرطوم » وقد أخذ فعلا وقتل فحاولت السياسة الانجليزية أن تستغل موته مع أنه من ضحاياها .

ومن العجيب أن الصحافة الانجليزية ، بعد موت غردون ، أصبحت تسمى السودانيين « عصاة » و « متعصبين » مع أن الحكومة الانجليزية ، على ملأ البرلمان ، فى سنة ١٨٨٤ ، كانت تصرح أن السودانيين يقاتلون فى سبيل استقلالهم ... وهذه الحكومة نفسها ، لم تتردد بعد انتصارات جراهام فى التيب وتماى ، فى الاعلان عن أسفها لموت ٥٠٠٠ من الدراويش ...

على أن سيل الحوادث لم يقف . فقد كتب مدير كسلا ، بتاريخ ١٣ أبريل سنة ١٨٨٥ يقول : « لقد أكلنا كل الحمير . ولا يوزع على الجنود الا قليل من الحبوب . ولقد وصلنى كتاب من قومندان سنهيت ينصحنى فيه أن أنجو من المدينة عبر خطوط العدو ولكننى لن أبرح مكانى وسأحمل على العدو » .

وبعد الحمير أكل المحاصرون الكلاب . وكان يموت جوعا من جنود

الحامية ، فى يولية ، من ٤٠ الى ٥٠ يوميا فاضطرت المدينة الى التسليم فى يوم ٣٠ . وبعد التسليم جاء الى كسلا عثمان دقنــه وثلاثة أمراء وبسطوا فيها حكم الارهاب . وقد وضعوا البطل الذائد عن المدينة فى الحديد ثم قتلوه .

واستولى الدراويش على جميع أملاك الحكومة والتجار والأهالى ؛ وأخذوا كميات عظيمة من الذهب والفضة ومستودعات ضخمة بلغت حمولة ٦٠٠٠ جمل توجهت الى الخرطوم .

وفى ٢٠ أغسطس ، بعد مقاومة بئسة طويلة أسلمت سنار بدورها ، ومحق المدير والحامية كلها محقا (من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ رجل) .

أمادنقلة فان الماجور كتشنر كان كتب الى السير وود من المدينة فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٤ : « ان الحالة فى هذه المديرية أصبحت دقيقة للغاية ، وهى بلد غنى آهل بالسكان والناس فيها باقون على ولائهم ، وقد تطوعت كل قرية بارسال رجال منها للقتال الأخير . وكلامهم يختلف كل الاختلاف عن أنصار المهدى الذين لن يترددوا ، لو أتيح لهم ، فى غزو البلاد وتخريبها . وهم لا يظهرون أقل ميل الى المهدى .

« وقد استلم المدير ثلاث مرات الأمر بالانسحاب ولكنه يقول : كيف أترك أولئك القوم الذين أولونى كما أولوا الحكومة المصرية ثقتهم ، ويقول ان دنقلة مفتاح مصر وأن أنصار المهدى متى استولوا على موارد هذه المديرية أمكنهم السير الى الأمام عن طريق النيل ..

« ويلح المدير والأهالى فى طلب ارسال جند لنجدتهم وانى أؤيد هذا الطلب بكل قواى » .

وفى ٦ أغسطس (سنة ١٨٨٤) كتب ايجرتون ممثل انجلترا فى مصر ، الى وزارة الخارجية البريطانية ، يثنى على شجاعة مدير دنقلة ، الذى لا يزال ، رغما من أمر الانسحاب ، يضرب العدو ويخذله ، ومن رأيه

أن بعض القوات المكلفة بالدفاع عن مصر يكون استعمالها أتم وأفضل لو أنها أرسلت صوب الجنوب قليلا ، الى ما وراء الشلالات ، لغرض مد اليد الى غردون ، وتيسير سبيل النجاة له عبر دبة ودنقلة .

« ولكن النيل سيكون عاليا بعد زمن وجيز ، والمدة قصيرة محدودة لامكان ارسال حملة نهرية . لذلك يتحتم ارسال الحملة فى الحال والا كان ارسالها فى حكم العدم » .

وقبل سقوط الخرطوم بزمن لم تساعف دنقلة بل أخليت بالقوة . وقد كتب ايجرتون الى حكومته ، بعد ذلك بعام ، فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٥ يقول : « اننى أتذكر جيدا أن العجلة التى نفذ بها قرار ترك السودان هى التى كانت أصل الرزايا والنكبات الفادحة التى لا عدد لها وان العجلة التى نفذ بها أيضا اخلاء دنقلة هى التى تسببت بأعمال التخريب الواسعة بهذه المديرية » .

الفصل العاشر

المدنية المصرية

وصف الدكتور أبت باشا رئيس الجمعية الجغرافية بالقاهرة حالة دنقلة ، بعد اعادة فتحها فى سنة ١٨٩٧ ، فقال : « ان أراضى دنقلة كانت كثيرة السكان كثيرة الخصب والنماء تحت الحكم المصرى قبل غزوة المهدى التى قضت عليها .

« وقد كانت ضفافها عامرة بالسواقى التى لا سبيل الى الاستغناء عنها وقت هبوط النيل . وكان عددها يبلغ ال ٨٠٠٠ لم يبق منها اليوم الا حوالى الألف . وتلك نكبة لمنطقة تتوقف حياتها على الماء والرى ، أين الآن تلك الزراعات ومحصولاتها الوفيرة ؟ أيان نذهب لا نرى الا آثار الاهمال والهرج . ويحق لنا أن نأمل أن تتمكن الحكومة المصرية من اصلاح هذه البلاد التى دخلت لحسن الحظ من جديد فى حوزتها ، ووضعها بمأمن من التقلبات الطارئة ، وذلك باعادتها تدريجا الى حالة الرفاهية واليسر الأولى [1] » .

---

(١) Dr. Abbate Pacha, Aegyptica, 1909.

« فى أثناء الخمسة أشهر التى قضيتها فى مديرية دنقلة ، سنة ١٨٩٧ ، شاهدت فى كل مكان أشنع أنواع البؤس والشقاء ، وقد هلك اربعة اخماس السكان ، وبقيت معظم الأراضى مقفرة بلا زرع ، واهملت النخيل اهمالا جعل محصول البلح لا يكاد يكفى لقوت بقية السكان التى كانت تضطر جاهدة لتعيش . وكانت معظم السواقى قد حرقت أو حطمت واكل الدراويش كل الدواب التى كانت تديرها ولم يكن فى البلاد أثر تجارة أو مال . وكان الفتيان قد اهلكتهم حروب المهدى والخليفة . وحملت الفتيات الى منازل البقارة حريما لهم . =

أما الخرطوم فانها بعد سقوطها وموت المهدى الذى وقع فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٥ أقام الخليفة عبد الله فى أم درمان وجعلها مقرا له لأن الخرطوم كان أصابها من التدمير ما جعلها غير صالحة للسكنى .

والمصريون هم الذين أنشأوا الخرطوم وكسلا فى سودان النيل وبربرة على خليج عدن وجلديسة فى هرر وأدخلوا وسائل العمران الحديثة فى حواضر السودان المختلفة .

وقد كانت الخرطوم قبل الفتح المصرى قرية للصيادين مكونة من بعض الخيم والعشش المتفرقة ، وفى سنة ١٨٢٣ ، على أثر انشاء معسكر دائم ، حلت التكلات [1] محل الخيم وحلت محل العشش المساكن المبنية بالطوب (اللبن) المجفف فى الشمس ومبان أمتن مخصصة للضباط . ثم

= « وكانت حالة البلاد بين أبو حمد والخرطوم أشد تعاسة . وكنا نرى هنا وهناك الذين أخنى عليهم البؤس ، وخصوصا المسنين والعجائز ، اجتمعوا معا لمحاولة تكوين قرية . والذى حرنا فى فهمه وزاد من عجبنا كيف وبم كان أولئك القوم يعيشون ؟ وقد كان النبات الشوك يغطى تقريبا كل الأراضى التى كانت من قبل مزارع زاهية . وكانت مظاهر التخريب والتدمير ماثلة فى كل مكان . وقل الأنيس فلا ناس ولا دواب . واختفت الكلاب وانقطع كل أثر لها . (مقدمة (Wallis Budge, The Egyptian Sudan)

ويمكن أن نضيف الى ما تقدم أن الخراب عم سكان السودان قاطبة ففتكت بهم الثورة والحروب والأمراض فنقص عددهم من ٨,٥٠٠,٠٠٠ فى سنة ١٨٨٢ الى ١,٩٠٠,٠٠٠ فى سنة ١٩٠٥ أى بعد ٦ سنوات سلم .

(١) تكل (بضم التاء والكاف) وجمعها تكلات مساكن من حطب الذرة والهشيم على شكل دائرة ترتفع عن الأرض نحو متر ويعلو هذه الدائرة شكل هرمى بارتفاع مترين تقريبا (انظر غرائب الزمان فى فتح السودان لمحمود طلعت طبع سنة ١٣١٤ هـ) .

ويقول هارى جونستون فى كتابه عن النيل The Nile Quest ان الخرطوم كانت قرية صيادين مكونة من العشش وان ابراهيم باشا فى سنة ١٨٢٣ اختارها كمعسكر يسيطر على النيل الأبيض والنيل الأزرق معا ويسهل الدفاع عنه . ومن ذلك الوقت اخذت تنمو نموا سريعا بفضل موقعها حتى أصبحت حاضرة السودان .

شيد جامع فسوق فمبان أخرى . وفى سنة ١٨٣٠ جعلها خورشيد باشا، الحاكم العام للسودان (١٨٢٦ ــ ١٨٣٩) عاصمة البلاد الرسمية ، وأقام فيها قصرا للحكومة ومبانى عمومية وحوضين على النيل الأبيض والنيل الأزرق وحدائق . ولما زار محمد على الخرطوم ، سنة ١٨٣٨ ، كان يوجد بالخرطوم ثكنات عسكرية ، ومستشفى ، وحوالى ٤٠٠ أو ٥٠٠ بيت . وقد كان خورشيد باشا أول حاكم حث الأهالى على ترك عششهم المصنوعة من سيقان النبات وجلود البقر وبناء مساكن بالطوب الأحمر .

على أن معظم هذه المساكن كانت دائما مهددة بالانهيار عند ارتفاع النيل من تهطل الأمطار وقد مات الدكتور توسكانيللى ؛ بالخرطوم ، سنة ١٨٤١ ، تحت أنقاض بيته اذ جرفه فيضان استثنائى .

ويقول الدكتور أبيت باشا أن منازل أكثر متانة ارتفعت رويدا رويدا هنا وهناك ، وكانت مبانى الحاكم والمديرية وبعض منازل الموظفين والتجار بالآجر (الطوب المطبوخ) فكانت لها روعة وسط المساكن المحيطة بها . ثم بنيت ترسانة ، وثكنة ، ومخزن ذخيرة ، وجامعان ودار للمبشرين وبدىء فى غرس شجر التين والبرتقال والليمون والموز والنخيل فى الجنات ، وأخذت حدائق الحضارة تنتشر فى وقت معا حول أجمل المبانى وأحقر الأكواخ التى كان يقطنها جنود الحامية . »

وكان بران روليه ، فى سنة ١٨٥٦ ، يقدر عدد سكان الخرطوم من ٤٠ الى ٤٥ ألفا ، وقدرها أبيت ، فى سنة ١٨٨٢ ، من ٥٠ الى ٥٥ ألفا .

والواقع أن الخرطوم قد أصبحت منذ عهد محمد على ، على حد قول المؤرخ اميل بورجوا ، « رأس جسر المدنية فى أفريقيا » .

وقد نشأت كسلا بجانب القرية القديمة فى هذه الناحية .

وكان يقطن القرية قبيلة الحلانقة التى تدعى أنها هاجرت من سواحل بلاد العرب الجنوبية منذ ستة قرون ، وقد كان وصول الأسرة المرغنية

فى سنة ١٨٤٠ سببا فى حدوث انقلاب فى أحوال البلاد لأن الجنود المصرية ، فى هذه السنة عينها ، قد تملكت منطقة كسلا وأخضعت قبائل الهدندوة التى لاتهدأ .

وقد ساد الأمن والنظام فى ربوع السودان الشرقى كله مما أدهش صمويل بيكر : « ان ضم السودان واخضاع القبائل العربية الكثيرة لنفوذ مصر كانا الخطوة الأولى الضرورية لاصلاح شؤون هذا البلد ، وعلى الرغم من أن المصريين سادة قساة لا يعنيهم أن يكفلوا بالرفاهية المقبلة للشعوب المغلوبة (كذا) لا يجب أن ننسى أن جميع القبائل ، قبل الفتح ، كانت فى احتراب مستمر . ولم تكن هناك حكومة ولا قانون ، فكانت البلاد من أقصاها الى أقصاها مغلقة فى وجوه الأوربيين [١] لايجرؤ أحد منهم على دخولها واليوم يتجول السائح فى أرجاء مصر العليا (السودان) آمنا مطمئنا كما يتجول المتنزه بجنات (هايد بارك) فى لندرة . وفى وقت زيارتى لكسلا ، سنة ١٨٦١ ، كانت القبائل العربية متباينة يحكمها رؤساؤها أو مشايخها الذين كانوا مسؤولين أمام السلطات المصرية عن جباية الضرائب المفروضة على رهطهم . ومنذ ذلك العهد وضعت القبائل كلها بجميع أسمائها وضروبها تحت سلطة الشيخ الكبير أحمد أبو سن .

« وقد خلقت يد الظلم الحديدية تطورا يثير العجب عند العرب فان نظام الحكم الذى أوجده المصريون قد عجزهم وجعلهم أذلة [٢] » .

وكانت زراعة القطن فى كسلا زاهية بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٧٤ . كتب فليمنج ، سنة ١٩٢٢ يقول « بعد مضى ثلاثين عاما على احتلال كسلا جازت الزراعة مرحلة التجارب وقرر أحمد باشا ممتاز الذى كان

---

(١) بلغ تعداد الأوربيين فى سنة ١٨٨٢ فى السودان من ١٠ الى ١٥ الف نسمة .

(٢) S. Baker, The Nile Tributaries of Abyssinia

أدخل الصناعة القطنية فى طوكر ادخال الحلج « الميكانيكى » فى كسلا .
ولا تزال زراعة القطن فى السودان الشرقى ، حتى اليوم ، تتسمى بممتاز .

« ولغاية العهد الأخير كان سكان كسلا يزرعون هذه الشجرة الغريبة التى كانت لا تعرف أثناء نموها باسم « القطن » ولكن باسم « ممتاز » . ولا يزال الزارع على ضفاف الرهد يزرع « الممتاز » وينسج منه دمورا جيد النوع .

« وهو الذى أدخل مصنعا للنسيج فى كسلا وبنى معملا لحلج القطن . وقد جلب الآلات من مصوع عبر الجبال ، وكان مشروعه قد أشرف على التمام فى سنة ١٨٧٤ .

« فلما سقطت كسلا فى يد الدراويش سنة ١٨٨٥ لم تلبث هذه الآلات التجارية السلمية التى كلف نقلها فوق الجبال مصاعب ومشاق لاحد لها أن أصبحت حديدا ضربوه وحولوه الى آلات حرب .[١] »

وفى تقريره الى ماليت ، المؤرخ ٢٣ يولية سنة ١٨٨٣ ، تكلم ستيوارت عن زيارته لكسلا ومعمل القطن الذى بلغت تكاليفه من ٢٠ الى ٣٠,٠٠٠ من الجنيهات ثم قال : « لقد كان المعمل تاما فى كل ناحية منه ذا محركات قوة ١٠٠ حصان و ٢١ آلة حلج [٢] » .

وقد احتل المصريون دارفور سنة ١٨٧٤ وشرعوا منذ توطيد احتلالهم فى أوائل سنة ١٨٧٥ فى تنظيم ادارة حكومية فى البلاد واصلاح شؤونها .

كانت مدينة الفاشر عند دخول المصريين مجموعة توكول أو عشش مبنية بغير نظام حول قصر الأمير على شاطىء البركة التى تتوسط المدينة ، وكانت الحرائق فى كل عام تجتاحها . وكانت البركة فى كل عام تمتلىء

(١) Sudan Notes and Records, vol V, No. 2, 1922
(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٥٥٦ .

بالماء الذى يفيض من واد فى غرب المدينة وكان الأمير عبد الرحمن بنى سدا لتحويل الماء حتى يمكن تموين السكان به فى الخمسة الأشهر التى تجف فيها البركة وكان يكفى فحر آبار صغيرة فى قاعها لينبع الماء بغزارة .

وسرعان ما شرع (اسماعيل باشا أيوب) فى بناء سور متين حول مقر رياسة الجيش ثم ابتنى لنفسه شققا مؤلفة من غرف نوم بحمامات الخ واقتدى به الضباط فابتنوا بيوتا متينـــة ذات نوافذ وأبواب من الخشب . وقامت وراء هذه البيوت مساكن للجنود (قشلاقات) مبنية بالطوب الأخضر ولكن بطريقة محكمة . ثم بنى ديوان المديرية بطريقة هندسية فخمة . وأخذت المدينة رويدا رويدا تنشأ . عندئذ صدر أمر من السلطات المصرية بتحريم بناء عشش من القش مستقبلا . ووضع تصميم عام للمدينة تقرر بمقتضاه أن تلتقى الشوارع الجديدة فى زاوية قائمة وأن لايقل اتساعها عن عشرين قدما . وقد اقتدى التجار فى الحال بالحكومة وأخذوا فى بناء بيوت جميلة على خط مستقيم بحذاء السوق وشرع محمد بك خبير من أهالى الفاشر فى بناء صف من المنازل التجارية بالحجر بدلا من القش ثم أنشأ تجار آخرون من الأغنياء فى بناء صف آخر من العمارات مواز للأول وقد تركوا بينهما فضاء حرا خصص للمحصول الذى يجلبه الفلاحون من حقولهم . وقد وجهت العناية الى زراعة الخضر وكانت جميع فصائل الجنود تزرع الخضر على حافة البركة وتقيم الأسوار حول حدائقها وكان الجنود قبل حلول فصل الأمطار يزرعون الدخن حول المدينة وكان لكل كتيبة مساحة معينة من الأرض لهذه الزراعة . وبمجرد ابتداء مياه البركة فى النفاد يزرعون القمح فى قاع البحيرة . وجملة القول بدأت الفاشر ، تحت تأثير المدنية المصرية ، تبدو فى شكل مدينة جديدة مبنية كلها بالطوب الآجر [1] .

---

(١) هذا ملخص مذكرات خطية مأخوذة من تقرير الكولونيل بيردى Purdy وهى موجودة بالجمعية الجغرافية بالقاهرة . (انظر كتاب دوان تاريخ عصر اسماعيل . الجزء الأول من الكتاب الثالث ص ٤٧٠ ــ ٤٧٤) .

وكل ماعيب على الادارة المصرية أن بعض الحكام كانوا من المرتشين وان الضرائب كانت مرهقة فى جبايتها وتوزيعها ولا شك أنه لا توجد ادارة « بشرية » منزهة عن الأخطاء . وحسب الحكومة المصرية أنها كانت دائما تعمل على اصلاح كل مختل وانها لم تتردد فى القاء ممتاز باشا فى السجن تحت التحقيق مع أنه كان من كبار الحكام المصلحين .

وكثيرا ماذكر الانجليز الباشبوزق وقسوتهم فى جبـاية الضرائب ويحسن بنا أن نذكر بهذه المناسبة ما كتبه غردون من الخرطوم بتاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٨ الى ريفرس ولسن على أثر اطلاعه على تقرير لجنة التحقيق التمهيدى الخاص بالحالة المالية فى مصر .

« . . يسرنى أن ألاحظ أن الاختلال الذى تتكلم عنه لم يوجد قط فى السودان وان المساوىء القليلة الموجودة قد محوتها كفرض الضرائب على النخل قبل أن يحمل الثمر أو على الأرض التى ابتلعتها الرمال أو جرفها النهر الخ . أما فيما يتعلق بجباية الضرائب فمما لاريب فيه أن الأهالى دائما هم الفائزون لأنهم قادرون دائما فى هذه البلاد الواسعة على الفرار من الجباة . وقد زاد متأخر الضرائب وتعاظم . ولا فائدة من تهوين الأمر . فالسكان لايدفعون الا اذا قسرتهم على ذلك قسرا . وقد استعملت الوسائل اللينة فلم تجد نفعا [١] . . »

هذا من ناحية السكان . أما من ناحية الحكومة فاننا نكتفى هنا بنشر الكتاب الآتى[٢] المرسل من الجناب العالى الى حكمدار السودان بتاريخ ٦ رجب سنة ٨١ (نوفمبر ١٨٦٤) :

« ان أحمد أغا من بلوكات المحافظين (بدنقلة) سابقا قد قدم الى ديوان معاونتى عريضة مفادها أنه فى سنة ٧٢ قد أنشأ ساقية بالغابة

---

(١) Rivers Wilson, Chapters From My Official Life, pp. 195-197

(٢) دفتر ٥٢٩ معية تركى مكاتبة رقم ٤ نمرة ١٩٧ (سجلات عابدين)

والتلول الواقعة خارج زمام مديرية دنقلة وأصلح فعلا قسما من تلك التلول وغرس فيها نخيلا وأشجارا من الليمون والسنط وانه يريد انشاء حديقة وسبيل بها . وبما أنه قد فرض مال أميرى على تلك الساقية كما فرض مبلغ ٨٨,٥ قرش سنويا على النخيل قبل طرحها الثمار وذلك فى الاحصاء الذى عمل سنة ٧٨ . وبما أنه لم يسبق فرض أموال أميرية على بعض الحدائق الموجودة فى المديرية قديما وأن السواقى التى فرض عليها الأموال الأميرية واقعة على البحر يلتمس رفع المال عن الساقية والنخيل المذكورة فعليكم باعفائه من الأموال المفروضة على الأشجار التى غرسها والسواقى التى حفرها . وانه لمن البديهى فى حالة اعفاء الحدائق الموجودة بالأراضى السودانية من الأموال سيرغب حينئذ كل شخص فى غرس تلك الأشجار وسيكون سببا فى ازدياد تلك الحدائق يوما فيوما وعمران الأقاليم السودانية والاكثار من اصلاحها ومدنيتها ، وهذه زبدة أفكارى فى ذلك » .

كل ذلك يدل ، على أنه رغما من الأخطاء التى لامناص منها ، خصوصا فى عصر التأسيس الأول ، وهو أخطر عصور الانتقال ، كانت الروح المحركة للادارة المصرية فى جميع أرجاء الوادى وملحقاته روح اصلاح وتعمير ، وهى أبعد ماتكون من الروح الاستعمارية وأساليبها .

ولعل من أهم خصائص الادارة المصرية — التى تعجز أية إدارة أخرى أن تشاركها فيها — العمل على ترقية اللغة العربية والثقافة العربية والدين والنهوض بالجماعات الاسلامية المتأخرة من هذه السبيل الروحانية الكبرى . وها نحن أولاء نضرب مثلا واحدا :

أرسلت محافظة بربرة الى المعية السنية فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ (٣٠ مايو ١٨٧٦)الكتاب الآتى[١] :

(١) دفتر نمرة ٣٧١٤ (سجلات عابدين) .

« بمناسبة تعيين الشيخ محمد بيومى قاضيا فى بربرة واقتراح ارجاعه وتعيين قاض من أهل البلاد لمعرفة أحوالها ... يرى رضوان باشا أفضلية بقائه لجهل قضاة البلاد بالسنة والشريعة ويقول : « ان عقال القبائل والسومال قد تحولت أحوالهم من الأمور المخالفة لسنة نبينا من نحو عقد الأنكحة والطلاق وتهذيب الأخلاق وتأدية الصلوات الخمس ورفع المواد غير اللائقة بالشعائر الدينية .. »

« حاشية — خصوصا وأن السومال ما كانوا يعرفون كيفية تقسيم المواريث من سنوات عديدة وكل من توفى عن ذرية أو زوجة حرموا الجميع من حقوقهم الارثية وجعلوا الميراث للعم وابن العم ونحوه من أقارب المتوفى ، ولكن مع انتشار الشريعة والشعائر الدينية بهذه الديار صار تقسيم المواريث حسب الجارى شرعا » .

والسومال قبائل متوحشة مسلمة ولو أن الحكم المصرى دام قليلا لظهرت نتائجه كلها من الناحية الدينية الاجتماعية ولتهذبت طباع القوم وحسب مصر أنها نشرت السلم بين قبائل كان شغلها الشاغل الاحتراب والتنازع والغدر وبدأت تحثهم على الاقلاع عن العادات الهمجية القديمة بارشادهم الى حقائق الدين وتعاليمه الصحيحة . وقد قسمت بلاد السومال بعد اخلائها بين الفرنسيين والانجليز والطليان والأحباش فرجعت الى الهمجية الأولى .

من ذلك نفهم حقيقة ما كتبه الرحالة الألمانى « هلدبراند » فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ بعد عودة حملة نهر الجب الى الدكتور شفانيفورت رئيس الجمعية الجغرافية المصرية « يلوح لى أن مصر لن توفق الى بسط نفوذها فى أفريقيا الشرقية وهذا أمر يحزن له اذ لا توجد أمة أصلح ، فى اعتقادى ، من مصر لرفع مستوى المدنية فى أفريقيا » .

وقد رفعت مصر فعلا مستوى المدنية بين الجالا الوثنيين فى هرر

وشجعتهم على زراعة الأرض وفلاحتها ورفعت مستوى المدنية بين زنوج السودان الجنوبى وخط الاستواء مما بيناه وسنبينه ، وقد شـاءت السياسة العاتية التى تسلطت على أفريقيا تبديد معالم هذه المدنية لتحل محلها مدنية أجنبية لا تعيش الا من طريق الاستغلال المادى وقتـل الروح والحيوية الكامنة فى نفوس الشعوب واعاقة كل تقدم .



الكتاب الرابع

ممالك السودان المتطرفة

(١٨٨١ — ١٨٩٨)

السودان بين الاخلاء والاستعادة

تمهيد — كانت ممالك السودان المتطرفة : « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء فى الجنوب ، ومديرية هرر فى شرق الحبشة ، وزيلع وبربرة على خليج عدن وجميع ساحل البحر الأحمر وأهم مينه سواكن ومصوع . أقول كل هذه البلاد النائية التى تحكمها مصر كانت مستعصية على نفوذ المهدى شأنها فى ذلك شأن حواضر السودان والأماكن التى تطور فيها السكان فى ظل الادارة المصرية .

كان الخديوى عقب رحيل غردون فى آخر سنة ١٨٧٩ ، قرر تقسيم الأراضى السودانية الى ثلاثة أقسام وتعيين ثلاثة حكام عموميين للسودان وهرر والساحل . فوقع الاختيار للسودان على اسماعيل باشا أيوب ولكنه اشترط ، نظرا لحالة السودان بعد غردون ، أن يمنح سلطة مطلقة ويأخذ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه و ٢٤,٠٠٠ رجل عدا الـ ١٥,٠٠٠ الذين كانوا هناك . ولما لم يكن من المستطاع اجابة هذه المطالب بسبب اضطراب الحالة المالية والسياسية عين رؤوف باشا فى السودان وعين زكى باشا فى هرر (يناير ١٨٨٠) وعلى رضا باشا فى الساحل (أبريل ١٨٨٠) .

كتب ماليت بهذه المناسبة ، بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٨٨٠ ، الى حكومته

يقول : « لقد رجوت الخديوى ، قبل تعيين أى شخص كان فى منصب الحاكم العام للسودان تعيينا نهائيا أن يعطيه تعليمات بالغة منتهى الشدة والصرامة فيما يتعلق بتجارة الرقيق [1] » .

والغريب أن غردون حين ألغى فى فبراير سنة ٨٤ الاجراءات الخاصة بتجارة الرقيق استعمل نفس ألفاظ ماليت فقال « الشديدة الصارمة » وصفا لهذه الاجراءات التى كانت سببا فى تغير السودان وتحوله عن مصر .

وقد حاربت مصر فى كل عصر هذه التجارة المنكرة التى كانت متأصلة فى طباع السكان وعاداتهم ولكن كان يجب ، كما قلنا ، محاربتها باستعمال الحكمة والكياسة وتجنب أساليب العنف والطفرة . قال أبيت باشا : « بعد وصولنا بأيام ، سنة ١٨٥٧ ، صدرت أوامر رسمية مشددة بتحريم هذه التجارة ، فى الخرطوم بوجه خاص ، فهدمت سوق العبيد وسورهم وحرر أولئك المساكين الذين كانوا فريسة الجلابة .

« وقد بقيت هذه الأوامر زمنا طويلا من الزمن لاتتبع حرفيا . وبعد سنة ١٨٦٢ فشلت مجهودات بيكر وغردون وأمين وجيسى كلها رغما من تأييد الحكومة المركزية وحسن استعداد الخديوى ونبله . وقد أساءت بعض القبائل تأويل هذه الأوامر والنواهى وساعد قال الجلابة وقيلهم فى هذه الأوساط التى كانت المهدية قد تطرقت اليها واستكنت فى مطاويها على انتشار نار الثورة التى أصبحت من الآن فصاعدا غازية جبارة ، دافعة متدفعة [2] » .

وبالرغم من السياسة التى جرت عليها الحكومة الانجليزية منذ احتلال البلاد فى سنة ١٨٨٢ وتشجيع الثورة بطريق غير مباشر حتى انتظمت معظم الأصقاع وانتشر الخراب من الجنوب الى الشمال ومن الغرب الى

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣١٤

(٢) Dr. Abbate Pacha, Aegyptica Le Caire, 1892

الشرق فان ممالك السودان المتطرفة التى بقى العنصر المصرى مهيمنا على ادارتها بقيت على ولائها لم تحولها عنه تلك الاجراءات « الصارمة الشديدة » ولم تستطع المهدية من ناحية أخرى اجتذابها أو التوغل فيها ، ولكن انجلترا لم تشأ أن تترك هذه البلاد الهادئة الموالية المستعصية على الثورة وشأنها وحتمت أن يشملها قرار الاخلاء قوة واقتدارا لتتحقق أغراضها فى السودان وملحقاته جميعا .

الفصل الحادى عشر

ساحل السومال وهرر

فى سنة ١٨٨٠ كانت فرانسا وانجلترا مهيمنتين على مصر ماليا وسياسيا وكان المراقب المالى الانجليزى أوكلاند كولفن يفكر فى ذلك العهد على ارغام مصر على التخلى عن قسم من مديرياتها المتطرفة المتاخمة للحبشة بحجة النفقات الباهظة التى تتكلفها .

وقد كتب ، فى ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، ماليت الى حكومته ، بهذه المناسبة يقول : « قد أفهم تماما أن يقلق مستر كولفن بسبب النفقات التى تبهظ موارد مصر ، ولكن من المشكوك فيه جدا أن يكون سحب السلطات المصرية من هرر ومن بعض الأراضى الكائنة فى جنوب مصوع والسودان علاجا للموقف . والثابت الذى لا ريب فيه أن الأحباش سيتقدمون فى أعقاب انسحاب المصريين ويتبعونهم ويصير للبلادين من جديد حدود مشتركة . أما بخصوص امكان تخلى مصر عن زيلع وتاجورة وبربرة وبلهار فانى أعتقد أن عملا كهذا يتنافى مع مصالح حكومة صاحب الجلالة لأن هذه المين اذا قدر لها أن تقع فى يد الأحباش أو قبائل محلية فمن أين يتأتى لها حكومة مناسبة . واذا قدر لها ، من ناحية أخرى أن يمتلكها الطليان أو الفرنسيون ، وهذا أقرب الى الاحتمال ، فقدت نقطة عدن هيمنتها [١] » .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٣

والواقع أنه منذ تدهور أحوال مصر الاقتصادية والسياسية اتجهت أطماع الحبشة وفرانسا وايطاليا وانجلترا الى الممتلكات المصرية ، وقد جاء فى مذكرة لوزارة الخارجية الانجليزية ، تاريخها أغسطس سنة ١٨٧٩ ، أن القائم بأعمال السفارة الألمانية فى لندرة البارون فون دن برنكن كان أرسل الى اللورد سالسبرى كتابا جاء فيه :

« ان أراضى الساحل التى كانت من قبل تحت السيادة التركية قد حصلت عليها الآن الحكومة المصرية مقابل تضحيات جسيمة ، وهى فى الوقت الحالى جزء لايتجزأ من الأراضى المصرية ، باعتراف الباب العالى ، وتشرف عليها ادارة بالمعنى الصحيح [١] » .

على أن انجلترا ، وان كانت تطمع فى هذه المناطق ، آثرت فى ذلك الوقت الاكتفاء باقصاء الدول المنافسة باستمساكها باحترام القانون العام والمعاهدات .

لذلك كتب وزير الخارجية الانجليزية الى ماليت ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٠ ، بالاشارة الى اقتراح كولفن السابق الذكر الخاص باخلاء المناطق المصرية : « ان خطة كهذه تناقض على طول الخط نصوص اتفاقية ساحل السومال التى تولتها حكومة صاحب الجلالة أكبر قسط من عنايتها واهتمامها لأن مصالح هذا البلد مرتبطة ، الى حد كبير ، بالمحافظة على حقوق مصر فى جميع المناطق المعترف بها حاليا فى هذه الاتفاقية وفى فرمان سنة ١٨٦٦ وفرمان سنة ١٨٧٣ . ومهما كان من الأمر فان حكومة صاحب الجلالة مقتنعة أن التخلى عن هذه المناطق قد يوقع مصر فى ارتباكات أفدح بكثير من النفقات التى يشكو منها مستر كولفن [٢] » .

وكانت انجلترا بالطبع لا تغفل لحظة عن مراقبة السودان وأصقاعه

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية ، رقم ٧٨ مجلد ٣١٩٢

المتطرفة فعينت ، فى أول مارس سنة ١٨٨١ ، عاملها هنتر قنصلا لساحل السومال من تاجورة الى راس حافون . وفى شهر نوفمبر من السنة نفسها ، زار القبطان سيلى المقيم المساعد فى عدن ، زيلع والساحل وبعث بتقارير مختلفة الى حكومته .

ومن جهة أخرى فان ملكولم العامل القديم المكلف بالغاء تجارة الرقيق فى البحر الأحمر والذى اضطر الى الاستقالة بسبب اعتراض غردون والحكومة على اجراءاته الشديدة المرهقة ، كان معتكفا فى مدينة بادن بالنمسا وكان يرسل من هناك تقارير شتى الى اللورد نورثبروك .

وفى أحد هذه التقارير المؤرخ ٨ نوفمبر سنة ١٨٨١ ، أظهر ملكولم خوفه من أطماع فرنسا التى كانت تفكر ، بعد تونس ، فى بناء امبراطورية لها فى أفريقيا . وكان يرى أن أفضل وسيلة للحيلولة بين هذه الدولة وبين سبق انجلترا الى تحقيق مآربها هى أن تحرص الحكومة الانجليزية كل الحرص على أن لا تدع لها سبيلا تتذرع بها للتدخل فى أملاك مصر وذلك بأن تخفف من وطأة الاجراءات المتخذة ضد تجارة الرقيق فتتقى بذلك كل سبب للتذمر والثورة .

وقد قال ذلك فى غير مواربة بعد أن أشار الى خطر التدخل الأجنبى أو بعبارة أدق الى «عدم الخطر» بالنسبة لزنجبار من ناحية اجراءات الرقيق ، نظرا لأن ذلك البلد كان موضوعا تحت حماية بريطانيا العظمى : «أما مصر فان حالتها تختلف تماما (عن حالة زنجبار) لأن السودان فى الوقت الراهن غير موال لمصر اطلاقا ويكفى أقل سبب لقيامه فى ثورة عامة . والحبشة معادية .

«وانى وان كنت أرغب ، لو قدرت ، فى سحق تجارة الرقيق كل مسحق ، الا أننى أرى أنه يجب علينا أن لا ننسى أن هذه مسألة معضلة وأنه يجب أن تتحامى تعريض مصر الى أية صعوبة من الصعوبات التى

ذكرناها وذلك بارغامها فى الوقت الحالى ، مع علمنا بحالة الرأى العام فى مديرياتها ، على اتخاذ اجراءات شديدة أكثر من اللازم Too decided بل بالعكس يجب علينا أن نكتفى باجراءاتنا نحن ، الناجعة الرادعة ، فى البحر ، وأن نبذل أقصى جهدنا، بواسطة وكالات قنصلياتنا ووكالات الدول الصديقة لتحصين مركز مصر الأدبى والتجارى ، وأن نعمل المستحيل لاصلاح ذات البين بين مصر والحبشة [1] » .

ولكن هذه الصيحة الكاشفة جاءت متأخرة لأن انجلترا ستعرف كيف تستفيد من الثورة فى مصر لتحتلها وفى السودان لترغم مصر على اخلائه كما أنها ستعرف فى الوقت نفسه ببراعتها ودهائها كيف تتخلص من الدول المنافسة لها . فلم تكن انجلترا اذن بحاجة الى مصانعة مصر ومداراتها قبل الثورة ، ومن باب أولى بعدها ، فما كادت تستقر قدمها فى مصر حتى أخذت تملى ارادتها املاء (برقية غرانفيل فى ٦ يناير سنة ٨٤ واستقالة شريف) بخصوص السودان . ثم لما رأت أن الثورة التى تتذرع بها لم تنفذ الى ممالك السودان المتطرفة ، أى الى ملحقاته ، كما كانت تتوقع ، وذلك بسبب بقاء الادارة مصرية بهذه البلاد منفصلة عن سلطة حاكم السودان لجأت الى القوة لتنفيذ سياسة الاخلاء العام دون تمييز .

وقد خاطب ايجرتون ، فى ٢ يونية سنة ١٨٨٤ ، نوبار باشا فى موضوع اخلاء هرر وساحل السومال فاعترض نوبار . وكان بعض الممثلين الانجليز يؤيدون سياسة عدم الاخلاء لعجزهم عن ادراك كنه تلك السياسة التى لا قلب لها ، المرسومة فى وزارة الخارجية البريطانية، والكشف عن أغوارها وأغراضها البعيدة .

---

(١) هذه التقريرات المطبوعة مكتوب فى أعلاها « سرى » وهى موجودة فى المجلد ١٣ من القسم الخاص بمطالب مصر Claims To Sovereignty (سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨) .

كتب هنتر من عدن فى مذكرة ، مؤرخة ٥ يونية سنة ٨٤ ، معترضا على كل اخلاء لا روية فيه ، وامتدح ادارة المصريين فى بربرة «والأعمال العمومية الجليلة التى تجد فيها أية ادارة مصدر فخار لها» . وفى ٢٩ يونية قررت وزارة الخارجية الانجليزية « الاخلاء فى أول فرصة » . وفى ٢١ يولية كتب ايجرتون يقول ان نوبار ، بعد استشارة الخديوى ، أعطى الأوامر اللازمة لتسليم بربرة الى القنصل هنتر «أما فيما يتعلق باخلاء هرر فانه لا يميل بتاتا الى اتخاذ أى اجراء فعلى فى الوقت الحالى . ثم لما قلت له ان الحاميات تكلف مصر مالا بطريق مباشر أو غير مباشر أجاب أن الخديوى يؤثر الاحتفاظ بهرر لأنه يعلم تماما أنها لا تكلف مصر شيئا وأنها تكفى نفسها» .

وقد بلغ دخل هرر فى سنة ١٨٨٣ مقدار ٧٥٠٠٠ جنيه والنفقات ٦٠٠٠٠ بزيادة ١٥٠٠٠ جنيه .

وكان السكان فى بربرة ، رغما من دسائس هنتر وتوزيع الذهب بين العقال أو رؤساء القبائل المجاورة ، يرسلون الى الحكومة المصرية عرائض لبحملوها على عدم التخلى عنهم . وقد جاء فى احداها : «منذ ١٥ عاما يتمتع سكان بربرة بالتبعية لحكومة خديوى مصر التى تحنو عليهم وتترفق بهم ، وهم لا يريدون بهذه الحكومة بديلا . وقد بعث الماجور هنتر ، سرا وبغير علمهم ، ترجمانا الى العقال الذين ذهبوا للمفاوضة والتعاقد معه بغير توكيل .

«اننا مسلمون ولا ندين بالطاعة الا لمسلمين مثلنا» . وفى ٩ أغسطس صرح نوبار أن دخول الجنود الانجليزية فى زيلع قد يجر الى مصاعب مع الباب العالى وأن مصر تدفع سنويا الى تركيا ، ١٥٠٠٠ جنيه جزية، نظير امتلاك هذا الميناء . وفيما يتعلق ببربرة كان يرى أن نفقات الاخلاء والتعويض عن الأشغال العمومية والمبانى التى شيدتها مصر يجب أن تدفعها سلطات عدن .

وفى ١١ أغسطس أصدرت وزارة الخارجية الانجليزية الأمر الى الحكومة المصرية «بأن تساعد دون ريث ولا ابطاء على اخلاء هــرر ومين ساحل السومال . وفى ١٢ صدع نوبار بالأمر وفى ٢٥ أغسطس قررت الحكومة الانجليزية أن تكون نفقات الاخلاء على عاتق الحكومة المصرية وأن ينظر فيما بعد فى مســألة التعويض عن المبانى العمومية وخلافها .

وقد وقعت أوامر الاخلاء على المصريين فى هرر وقع الصاعقة، وكان لابد من ترحيل ١٤٥٠٠ مصرى من مدنيين وعسكريين بأسرهم . وقد كتب حاكم هرر فى ١٩ شوال ســنة ١٣٠١ (١١ أغسطس) يقــول : « . . على أن جميع الضباط والموظفين والعساكر أصبحوا بلا مال لأنهم أنفقوا كل ذخرهم فى بناء المساكن بناء على أوامر الحكومة التى كانت تريد أن تجعل منهم قدوة للسكان الآخرين وتبعث المنافسة بينهم[1]» .

وجاء فى عريضة أرسلها الى رئيس الوزارة المصرية ٥٣ من الأعيان والتجار الوطنيين والأوربيين بمدينة هرر ، فى ١٠ أغسطس : «من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميدانا للبربرية يحكمها ملوك صغار ، وكان اهراق الدماء وأعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق .

«وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد ، قبل تسعة أعوام ، فوطدت النظام والأمن وجعلت من مدينة هرر مركزا من أهم مراكز التجارة . فاذا كان قرار الحكومة لامرد له لم يكن لنا بد من الهجرة مع الجنود وترك أملاكنا للنهب .. »

ولم تخف دقة الموقف واختلاطه على هنتر سيما وأن الحكومة الانجليزية كان قر رأيها على احتلال الساحل بمجرد اخلائه أما هرر فكان قرارها

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

لايعــدو الاخلاء ، الاخلاء الذى ينطوى على أفدح العــواقب لمصر وللمديرية .

واذا كان اخلاء الساحل قد يبرره فى منطق السياسة الانجليزية رغبة انجلترا فى احتلاله مع ما فى ذلك من اهدار حقوق مصر ، واذا كان اخلاء السودان وما صحبه من تخريب شامل وقتل الملايين من الأنفس وتغليب الهمجية على المدنية قد تبرره الى حد ما هذه الرغبة نفسها فان اخلاء هرر الآمنة المطمئنة الزاهية الزاهرة فى ظل المصريين لايجد ما يبرره الا شهوة التخريب المجرد وتمزيق مصر كل ممزق واذلالها .

كتب هنتر من عدن الى ايجرتون ، بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ، يقول : « انى أعترف أن فكرة الاخلاء ثقيلة على النفوس لأن تنفيذها يستدعى خسارة جسيمة فى السمعة والأموال ونتيجته التخلى عن كل ما تحصــل وتجمع بثمن غال من التضــحيات العظيمة والنفقــات الباهظة [١] » .

وفى ٤ سبتمبر اقترح هنتر اعادة استقلال المدينة تحت حكم ابن الأمير السابق والاعتراف بالسيادة الانجليزية بواسطة قبائل السومال والجالا فى الطرق بين الداخل والساحل .

وقد استولى الانجليز على زيلع فى ٢٤ أغسطس وأصبحت ادارة ساحل السومال جميعه تابعة للحكومة الهندية .

وكان هنتر يفكر من ذلك الوقت فى نشر المسيحية فى أقليم هرر فكتب ، فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ، يقول : «لا يجب الاعتقاد أن الجالا الذين لا يدينون بالاسلام مسيحيون . انهم لا يزالون وثنيــين لأن الدعوة للصليب لم تنشر بينهم .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٧

« ومن المهم أن يلاحظ أن أولئـك الذين يسمون « مسـلمى الباشوات » : أى الجالا الذين اعتنقوا الاسلام منذ وصول الباشوات المصريين ، ليسوا متعصبين أو متعبدين . ومهما كان من الأمر فانهم ليسوا مستغلقين أمام النفوذ المسيحى . وقد حاز القسيس كاهان Cahagne كل ثقتهم بطريقة ظاهرة ملموسة ، وهو من أصدقائى الذين يعول عليهم وولى حميم[1] . »

وتفسيرا لما تقدم يجب أن نذكر أن امتداد النفوذ المصرى كان مطردا من سـنة الى أخرى . ولم تكن سيادة الخديوى معترفا بها ، فى بدء الاحتلال ، الا على ساحل السومال وفى حدود امارة هرر التى هى ، كما بينها رؤوف باشا ، جلديسة من ناحية الساحل ، ونهر الواش فى الشمال الغربى ، وقبيلة أوجادين فى الجنوب الشرقى ، ومنطقة الأروسى فى الجنوب[2] . ثم أخذت مصر تسيطر على البلاد الواقعة وراء هذه الحدود الضيقة ، حتى بلغ عدد القبائل الخاضعة لها ، فى سنة ١٨٨٣ ، رقما ضخما : مليونا ونصف مليون من النفوس[3] اعتنق قسم كبير منها ، من بين الجالا الوثنيين ، الاسلام .

وكان الأب كاهان قسيس الجالا قام فى سنة ١٨٨١ برحلة حول هرر وشاهد فى مختلف البقاع مزارع جميلة من شجر البن والموز « لم يمض على وجودها الا سنوات قلائل » .

وقد تكلم ذلك المبشر عن انتشار النفوذ المصرى بين الجالا فقال : « قبل الاحتلال المصرى كانت قبائل الجالا ، التى لاتعترف لأمير هرر

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٨

(٢) سجلات عابدين . تقرير من رؤوف باشا بتاريخ ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٣ هـ (٢٧ ابريل سنة ١٨٧٦) .

(٣) سجلات عابدين . تقرير من محمد نادى باشا بتاريخ ٤ ابريل سنة ١٨٨٣ .

الا بسلطة اسمية ، تحكم نفسها بحسب تقاليد السلف ، تلك التقاليد التى اعتراها بعض التحوير والتبديل فى الأصقاع التى نفذ منها الاسلام ، وكان لكل بطن من قبيلة ، كالنونو عند الآلا ، وال معين بمقتضى نظام وسط بين الوراثة والانتخاب ، يدينون له بالطاعة ثمانية أعوام ، اسمه البوكو ..

« يأتى من بعده ، وللمدة عينها ، الدورى ، وهو محدود السلطة جدا ، ثم من بعده ، الرابا ، يقوم ببعض الشؤون القليلة الأهمية . وقد اجتهد المصريون فى محو كل هذه التقاليد القومية ليطبعوهم بطابعهم ويدمجوهم فى جنسهم ، فاختفى البوكو عند القبائل الخاضعة وانتزعت منه كل سلطة وأصبح فقيرا ذليلا . وعين مكانه موظف ، ينتسب فى معظم الأحايين الى هرر ، يقوم بجباية الضرائب ، وتوزيع العدالة فى صورة من الصور . وحل الجراد محل الدورى ، وهو غالبا من أصحاب الأملاك الكبيرة السابقين ... وشارة منصبه العمامة . ومن هنا كان يقال : لف الباشا العمامة حول رأسه (ساباتا مارى) ونزع منه اللفافة (ساباتا نيقة) بمعنى قلد الجراد الوظيفة أو عزله [١] . »

على أن المبشر كاهان لم ترقه الناحية الدينية من التوسع المصرى فقال فى ختام مقاله : « ولاشك أن احلال عادات أجنبية محل عادات قوميــة (كذا) بطريق العنف هو الذى يحول دون تقــدم السيطرة المصرية . »

ويلاحظ أن المصريين كانوا يحلون تعاليم الدين الاسلامى محل الوثنية وقد أشــار المبشر فى بداية مقاله الى هذه التعاليم : « رحلنا فى يوم ٢٥ أكتوبر ، فى ساعة مبكرة ، فكنا نسمع صغار الأطفال فى هذه الساعة يتلون القرآن . وقد انتشر هذا التعليم فى ضواحى هرر وكان المصريون يعملون على تعميمه فى البلاد على الرغم من نفور الجالا منه» .

---

(١) T. Cahagne, Missions, Catholiques No. 678, 2 Juin 1882

والواقع أن الجالا ما كانوا يأنفون من هذه التعاليم وكان اقبالهم على الاسلام ، الذى كان يسن على تلك القبائل المتوحشة سننا من التأدب العالى ، يزداد كل يوم بدرجة أقلقت الانجليز ، وقد كتب هنتر المكلف بالاشراف على اخلاء هذه المناطق ، من عدن بتاريخ ١٥أبريل سنة١٨٨٤، ما نصه : «لو استمر النظام الحالى بضع سنوات أخرى لانضوت القبائل كلها تقريبا تحت راية الاسلام [١] » .

ولا يفوتنا أن نقول بهذه المناسبة ان مصر اذ كانت تنشر الحنيفة السمحاء بين أولئك الوثنيين ما كانت تفكر مطلقا فى منع المسيحية من نشر تعاليمها العالية بين الجالا والقبائل الأخرى . وبالعكس من ذلك كان تسامحها الدينى وتقـاليدها الانسانيـة تدفعها الى حماية المبشرين ومساعدتهم على التوطد وتأدية مهمتهم على أحسن وجه فى الامبراطورية السودانية . وشاهد ذلك ما كتبه جبرائيل سيمون فى كتابه عن زيارته ، فى سنة ١٨٨١ ، لقرية كرن المصرية بمديرية بوغوص المجاورة للحبشة : « هناك كان يقيم المبشرون اللازاريون وكان المشرف عليهم وقتئذ كبير القساوسة توفييه : وقد ابتنوا مساكن رافهة ، وكانت لهم فى الضواحى أملاك يستغلونها . وكانت لهم كنيسة فخمة مبنية بالحجر شيدتها لهم الحكومة المصرية على نفقتها . وهم يعلمون الصبيان الكثيرين الفرنسية والحرف المختلفة على أن شغلهم الشاغل الحقيقى كان التنصير الذى هو مهمتهم الأساسية ، وكان عملهم فى هذه الناحية يمتد الى ماوراء الحدود المصرية [٢] » .

وقد اعترف القسيس كاهان نفسه فى مقاله بمجلة البعثات الكاثوليكية (يولية سنة ١٨٨١) ان الخديوى أوصى السلطات المصرية فى زيلع

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٧٢٥ . مذكرة من هنتر الى بيرنج مؤرخة عدن فى ١٥ ابريل سنة ١٨٨٤

(٢) G. Simon, Voyage en Abyssinie

وهرر بتقديم كل مساعدة له ، وقد أنشئت أول نقطة لتنصير السومال فى بربرة فى مارس سنة ١٨٨١ ، وقد أحسن وفادته هناك الحاكم المصرى وأرسل ابنه الى « البعثة » ليتعلم الفرنسية وتبعه آخرون .. ومن هناك ذهب كاهان الى زيلع وهرر فى قلب بلاد الجالا فقدمت له السلطات المصرية المسلمة كل معونة وأمدته بجند مسلحين لحماية بعثات المبشرين من اعتداء الجالا والدناكل وغيرهم .

والذى كانت تعترض عليه مصر ولا تتغاضى عنه هو تنصير المسلمين بين القبائل الخاضعة لها — وهذا حق لها — خصوصا وان غرض الجمعيات التبشيرية الأوروبية المختلفة كان السعى ، تحت ستار الدين ، فى تحقيق فكرة سياسية وهى نشر نفوذ الدول التى تنتمى اليها تمهيدا لتدخلها ، ولطالما طغت الفكرة السياسية على الفكرة الدينية وأدت الى حروب وحشية وفظائع — كما حدث بين المبشرين الفرنسيين والمبشرين الانجليز فى أوغندة مما سنبينه فيما بعد .

ويمكن القول أن نفوذ مصر الدينى فى أفريقيا قد أوجد لها مناطق نفوذ بعيدة خارج حدود سيادتها الثابتة . كتب القائد بلير ، المقيم السياسى فى عدن ، فى ٢٤ ديسمبر (٨٤) ، ردا على خطاب طلب فيه بيرنج معلومات بخصوص الراية المصرية التى كانت لاتزال مرفوعة فى راس حافون على المحيط الهندى :

« ... أرى لزاما على أن أقول ان سلطة حكومة الخديوى لم تقرر قط ولم يعترف بها بالطبع ، فيما وراء بضعة أميال من شرقى بربرة .

« ولكن يجب أن نذكر فى الوقت نفسه أن السومال والدناكل والعرب فى خليج عدن ، سواء أكانوا مستقلين أو تحت الحماية الانكليزية أو الفرنسية أو الايطالية ، يرفعون على سفنهم ، وكثيرا ما تبدو على منازلهم أو قبورهم ، راية لايشك الناظر فى أنها تركية أو مصرية .

« وكثيرا ما أدى هذا العمل ، حتى وقتنا الحالى ، الى خلق عوامل سوء تفاهم كثيرة ، ونحن شارعون فى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتصحيح الموقف فيما يتعلق بالقبائل الموضوعة تحت الحماية البريطانية [١] » .

وقد انتشرت مظاهر الفوضى فى هرر فى أثناء اخلائها الذى دام من نوفمبر سنة ١٨٨٤ لغاية يونية سنة ١٨٨٥ ومنذ اعادة سلطة أمرائها الأقدمين . كتب كنج من زيلع ، فى سبتمبر سنة ١٨٨٥ ، يقول : « ان الملك منليك ، باغراء الفرنسيين ، كان على وشك مهاجمة هرر ، وان حياة الأوربيين مهددة كل يوم وكل ساعة ، وان جميع الجالا وقبائل أخرى أصبحوا يتجنبون هرر مفضلين المرور من طريق جلديسة وذلك بسبب الأموال الفادحة التى يأخذها منهم الأمير [٢] . »

وكتب كبير قساوسة هرر كاهان ، من ناحيته ، الى هنتر ، بتاريخ ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٥ : « يظهر ان الآمال التى علقناها ، نحن الأوربيين ، على التدخل الانجليزى ، لن تتحقق ...

« ونظرا لسوابق أمراء هرر لا مناص من النص على وجوب تمتع المسيحيين بحرية السكن آمنين بين حيطان المدينة ، دون أى اقلاق لهم ..

« وانى أسمح لنفسى بأن أعرض عليكم شكوى النائب الدينى فى زيلع . بعد أن كنا تتمتع بامتيازات جمركية واسعة تحت الحكم المصرى أصبحنا الآن ، نحن والناس سواء ، وانى لا أشكو من ذلك ولكن يظهر أن تقدير ما نستورده قد زاد عن الحد [٣] . »

وفى أبريل تأهب التجار الأوربيون للرحيل مع الفوج الأخير من الجنود المصرية .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٥٧

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٠.

(٣) سجلات وزارة الخارجية الإنجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٥٩

وفى يونيــة (٨٥) تم الاخلاء وتركت هرر ليستبد بها أمراؤها وخلفاؤهم الأحباش الذين غزوها بعد سنتين (٨٧) .

وقد أرسل ، فى ٢٠ يناير سنة ١٨٨٧ ، منليك « ملك شوا وجميع الجالا » الى القائد الانجليزى فى عدن ، خطابا كاشفا ، هذا نصه :

« كيف حالكم ؟ اننى بحمد الله فى حالة جيدة . ان الأمير عبد الله كان لا يطيق مسيحيا فى مملكته .

« انه جران آخر . ولكننى ، بعون الله ، قد هزمته ورفعت رايتى فى عاصمته ..

« ان هرر ليست بلادا اسلامية كما يعلم الجميع . » !

وكان ملك الحبشة ، حوالى سنة ١٨٨٠ ، عمد من ١٠ الى ٢٠,٠٠٠ مسلم فى الممالك المصاقبة للبحر الأحمر بحجة أن أولئك المسلمين من سلالة مسيحيين كان أحد الفاتحين المسلمين عمدهم بالقوة [١] .

وفى مذكرة عن الحالة فى هرر ، من عدن فى ٤ يناير سنة ١٨٨٨ ، أى بعد سنة من احتلال الحبشة ، شكا المقيم من أن الراس مكونان ، حاكم مديرية هرر ، أغار فى العهد الأخير على قبيلة جيسى السومالية فى شرق هرر وحمل عددا كبيرا من النساء والأطفال والحيوانات .

وقد زار يوليوس بوريللى مؤلف كتاب (الحبشة الجنوبية) هرر فى مايو سنة ١٨٨٧ ، ورأيه حجة ، قال :

« ان احتلال الحبشة سيكون ، فى الزمن الأول على الأقل ، ضربة قاصمة لهرر . وكان الملك أقام معسكره بالقرب من المدينة . وبعد رحيله هجرت الخيام وطرد الغزاة قسما من الأهالى . ولم يتمكن بعض

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣١٤١ . القاهرة فى ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٠ .

السكان الهائمين على وجوههم من حمل بعض الأمتعة التى لا غناء عنها . وقد استولى الغزاة على كل المؤن المخزونة ...

« وهرر خاضعة اليوم لنظام ادارى يطابق النظام الذى يزدهر فى شوا .

« وفى الأحوال الراهنة من المحتمل حدوث مجاعة . لأن تموين ، الأذرة وشيك النفاد ، والتبذير مستمر ، والتوزيع لا ضابط له . وفوق ذلك ينهب الأحباش كل ما لم ينتهبوه فى الأيام الأولى من الغزو .

« ويبيع الجنود كل ما لايستطيعون استهلاكه فى سبيل الحصول على المال .

« وقد اضطرب نظام التعامل وأخذ عدد التجار يتضاءل ..

« وعلى الرغم من أن الضرائب قد جبيت فى القرى المجاورة فان الأحباش كانوا يغزونها كل يوم . والماشية فى نقصان . والأثمان فى ارتفاع .

وقد حدث أن قبيلتين كانتا دفعتا الضرائب المطلوبة . وبعد أيام قصدهما الجند واستولوا قسرا على النساء والأطفال والقطعان » .

وقد زارت بعثة بونشان Bonchamps اقليم هرر سنة ١٨٩٧ وكتب أحد أعضائها شارل ميشيل كتابا عنوانه (صوب فاشودة من طريق أثيوبيا) جاء فيه : « وقد أمضت مصر مع النجاشى يوحنا — يونية سنة ١٨٨٤ — معاهدة ردت بمقتضاها اليه بلاد بوغوص ، ثم تنازلت له عن هرر (كذا) بعد أن وضعت على العرش ابن الأمير السابق عبد الله .

« عندئذ عادت الفوضى الى البلاد وعاد معها نظام الانقلابات وضياع الأمن الذى عانت منه المدينة كل بلاء قبل مجىء المصريين .. وكانت سنوات الاحتلال الأولى أبعد ماتكون من السعادة والرفه .. وقد

طرد جنود الأحباش وهم آلاف سكان المدينة من منازلهم وأقاموا فيها وخربوا كل ماوجدوه حولهم ونهبوا مخزون القمح وبضائع التجارة ، وتقرر التعامل بالعملة النحاسية القديمة فأغلقت أسواق المدينة وهرب التجار والتجارة الى الريف القصى .

« وكان نصيب الزراع البؤساء نصيب غيرهم من الظلم والاستبداد . وقد أخذت قطعان بحالها من أصحابها ووقع الفلاحون الجالا فى أشد حالات الضنك والمحنة .

« وكانت نتيجة هذه السياسة الغاشمة الخراب العام فى مديرية هرر ، وفى المدينـــة . يضــاف الى ذلك أن الأمراض المعــدية والديزنتاريا والجدرى الخ قد أتمت فعل البؤس واجتاحت الأهالى التعساء » .

ثم قال بعد ذلك : « وأكبر رجائنا أن يحدث تبديل فى الادارة لأنها بنظامها الحالى لاتساعد على ترقية التجارة واعلاء شأنها » .

وقد كانت مناطق الجالا فى هرر من أغنى البقاع بزراعتها وان ما حاق بهرر والجالا فى عهد منليك الأول حاق بمناطق الجالا الغنية وهضابها فى جنوب الحبشة فى عهد منليك الثانى الذى تمكن من اخضاع ممالكهم فى مدة خمسة أعوام ، وما قهرهم الا بفضل الأسلحة النارية التى كانت أوربا تبيعها للحبشة . قال ميشيل وقد زار بلاد الجالا التى فتحها الأحباش فى نفس السنة التى زار فيها هرر (١٨٩٧) :

« يظهر اليوم أن اخضاع الجالا أصبح تاما بعد حرب دامية لارحمة فيها . كانت مجزرة قتل فيها ثلاثة أرباع السكان الذكور ، وسبى فيها عدد كبير من النساء والأطفال وأحرقت مساكن وقرى بأكملها وأصبح مكانها بلقعا .. وقد أبلغنى أحد رؤساء الأحباش أنه اذا لم تجتح الغارة الأولى البلاد اجتياحا ثار السكان ولم يكن بد من ارسال حملة جديدة كبيرة ..

« وللجالا مزايا كبيرة فهم قوم جد وعمل ومهارة يحبون الاستيطان وعدم التنقل ، وفى مقدورهم أن يستغلوا أرضهم لو تركوا وشأنهم ولكن سيطرة الأحباش كانت نكبة عليهم[1] » .

* * *

أما بربرة فقد عين والش أحد المقيمين المساعدين فى عدن ، منذ

---

(1) Mission de Bonchamps Vers Fachoda à la Rencontre de la Mission Marchand à Travers l'Ethiopie, par Charles Michel, Second de la Mission

الواقع أن السومال والدناكل والجالا المحيطين بالحبشة الذين ضمهم منليك الثانى الى الحبشة بالقوة ليسوا أحباشا. واذ كان يوليوس بوريللى الفرنسى يرى «أن احتلال الحبشة لهرر ، فى الزمن الأول على الأقل ، سيكون ضربة قاصمة» فان هذه البلاد الاسلامية بوجه خاص منذ احتلالها الىاليوم تئن تحت نير الاستعباد وتحن الىعصر المصريين الذهبى. وقد نشرت جريدة (الأساس) بتاريخ ٢٩ اغسطس سنة ١٩٤٨ تحت عنوان : (وفد مسلمى الحبشة عند فضيلة الأستاذ الأكبر) مقالا جاء فيه: «استقبل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الأزهر فى مكتبه أمس وفدا من مسلمى الحبشة يتألف منحضرات السادة محمد عبد السلام ويونس يوسف ومحمد احمد يوسف وعبد الرحمن عبد الله ، وهم من أهالى مقاطعة «هرر» وقد تحدثوا الى فضيلته فىبعض شؤون المسلمين بالحبشة وخاصة فى مقاطعة «هرر» وقدموا اليه مذكرة بحالتهم الدينية والثقافية فى تلك البلاد .

وقد تحدث أعضاء الوفد بعد خروجهم من لدن الشيخ الأكبر الى مندوب الأساس فذكروا له أنهم كانوا فى المملكة العربية السعودية وتحدثوا الى سمو الأمير فيصل آل سعود عن أحوال المسلمين بالحبشة وانه اعطاهم كتاب توصية لسعادة أمين الجامعة العربية ثم امر أن توضع تحت تصرفهم طائرة خاصة هى التى حملتهم الى القاهرة .

وقال حضراتهم لمندوبنا أنهم يأملون خيرا فى رحلتهم هذه من جراء اتصالهم بزعماء العالم الاسلامى .

باسم مسلمى الحبشة

وقد تقدم الوفد بمذكرة الى الأستاذ الأكبر فوعدهم خيرا ومما ورد فيها باسم مسلمى الحبشة عامة ومقاطعة هرر خاصة يتقدم الوفد الى العالم العربى والاسلامى بشكواه من الوضع القائم لحكومة الحبشة وما يلاقيه مسلموها حيث يعامل الشعب الحبشى معاملة ذات وجهين . =

أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، مشرفا على ادارة المدينـة بلقب ووظيفة نائب قنصل .

وكانت مصر تطالب بأن تدفع على الأقل تكاليف المنارة التى شيدتها عمالها وكذلك ثمن المستودعات والمنشآت المختلفة التى وضع الانجليز يدهم عليها . وقد استشار اللورد كمبرلى ، بهذا الخصوص ، حكومة الهند ،

بعض ظلاماتهم

وتتلخص شكواهم من عدم المساواة وانه لايوجد فى مقاطعة هرر موظف واحد من المسلمين مع أن الهرريين فى غاية الرقى منذ ٣٠٠ سنة وبفضل ما ثقفوه من المصريين ترقوا أكثر وان الحكومة الحبشية تنفق على التعليم ١٢ مليونا لايخص المسلمين منها أى شىء لأى مدرس ونسبة تلاميذ المسلمين نصف فى المائة ولا يرسل مسلم واحد الى البعثات ولا تعان مدارس المسلمين الأهلية .

وميزانية الحكومة حوالى ٤٠ مليونا لايخص الضعفاء منها شىء ويمنع المسلمون من التحاكم أمام القاضى الا فى النكاح والمواريث كما يمنعون من ادخال اللغة العربية فى المحاكم الشرعية .

ثم تضمنت المذكرة شكايات تتعلق بالمساجد والشعائر واللغة العربية والكتب الدينية ومنع الحجاج مع أن الحبشة فيها دينان منتشران هما الاسلام والدين الارثوذكسى وتطرفوا الى شكاياتهم من مصادرة الحريات وان البرلمان الحبشى فيه ٤٧ عضوا من بينهم ٧ للمسلمين وقالوا ان الضرائب باهظة والمعاملة هناك دكتاتورية قاسية .

استفتاء شعبى

وجاء فى نهاية المذكرة انهم يرغبون فى أن يجزى استفتاء شعبى لنوع الحكومة ويرجون الانفصال عن الحبشة لانهم دولة دام سلطانها ٥٠٠ سنة ولا يزالون مختلفين عن الحبشة فى اللغة والدين والأخلاق .

هذا وقد وعدهم الأستاذ الأكبر بأن يعمل جهده فى مساعدتهم على ضوء مايصل اليه من معلومات .

وقال أحدهم : ليس صحيحا ما صرح به الوزير المفوض للحبشة من أن معاملتهم حسنة وان المسلمين هناك يتمتعون بالمساواة » .

ونشرت جريدة (البلاغ) فى عدد ٧ سبتمبر سنة ١٩٤٨ تحت عنوان (المسلمون فى هرر يعرضون شكواهم من الحكومة الحبشية) مايأتى :

« جاءنا وفد من مسلمى هرر وقدموا لنا شكوى طويلة ختموها بما يأتى :

لقد تقدم المسلمون الى الحكومة الحبشية عدة مرات بمطالبهم فكان مصيرهم التشريد والتعذيب .

فى يونية سنة ١٨٨٥ ، فكان جوابها (يناير سنة ٨٦) انه لا حاجة بها الى استعمال المنارة فى البحر الأحمر وانه يجب وضعها تحت تصرف الحكومة المصرية . وفيما يتعلق بالمستودعات كان رأيها أن تتولى حكومة الهند دفع ثمنها من دخلها بشرط أن يقوم الدليل على أن لها قيمة .

= ولما لم يجد المسلمون من وسائل السلم والتفاهم ما يحقق بعض مطالبهم العادلة ومعاملتهم بالمساواة مع مواطنيهم كأبناء بلد واحد حاولوا الدفاع عن حقوقهم المدنية والسياسية أمام اللجنة الدولية التى ذهبت الى الصومال لتحقيق أمر المستعمرات الايطالية السابقة فذهب وفد منهم الى مقدشو عاصمة الصومال وكان يمثل جميع المقاطعات التى تسكنها الأكثرية المسلمة فكان نتيجة ذلك العمل أن ازداد اضطهاد الحكومة الحبشية للمسلمين فى الحبشة وأرسلت جنودها الحربيين المسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة الى ديار المسلمين عامة فأخذ الجنود ينهبون أموالهم ويأخذون كل مايجدونه من أمتعة وحلى النساء ثم يشبعون الرجال بالضرب ويسوقونهم الى السجن .

وقد قامت مظاهرة فى مدينة هرر يطالب فيها المتظاهرون بالانفصال عن الحبشة والانضمام الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك فاعتقلت الحكومة الحبشية زعماء الحركة تحت ستار التفاهم معهم ونقلتهم الى جهة مجهولة كما ذهب ضحية هذه الحركة عدد كبير من المسلمين واعتقل نحو ثلاثة آلاف تجرى الآن محاكمتهم فى اديس أبابا ويلاقون الكثير من التعذيب والتنكيل كما نفت الحكومة نحو خمسمائة من ابناء هرر الى جهة غير معلومة وقطعت المواصلات بين الجهات التى تسكنها الأغلبية المسلمة كهرر وهاروسة وولوا .

ونحن مسلمى هرر قد خبرنا الحكومة الحبشية ولاقينا على أيديها أسوأ ما عرفته البشرية من صنوف التعذيب والتنكيل والظلم والاضطهاد، وحاولنا أن نصل معها بطريق التفاهم السلمى الى حقوقنا فكان جزاؤنا النفى والتشريد ، لم نجد أمامنا ـ بعد هذا كله ـ الا ان نتقدم الى العالم العربى والاسلامى خاصة والانسانية عامة بشكوانا هذه راجين الانصاف فى قضيتنا العادلة ،وذلك لا يكون الا بأن نفصل عن الحكومة الحبشية ونضم الى الصومال الكبرى عندما يقرر ذلك ان شاء الله .

وغير خاف أننا كنا دولة دام سلطانها خمسمائة سنة تقريبا والتاريخ شاهد على ذلك وقد كنا ولا نزال مختلفين عن الشعب الحبشى عامة فى اللغة ، والدين والأدب والأخلاق والعادات ، هذا كله علاوة على سوء معاملة الحكومة الحبشية التى اوضحناها فى هذه المذكرة .

واذا لم تقرر الصومال الكبرى نرجو مساعدتنا فى الانفصال عن الحبشة لنكون تحت رعاية هيئة الأمم المتحدة على أن يجرى استفتاء شعبى بشأن الدولة التى تتولى الاشراف علينا » .

وبذلك أرغمت مصر فى هرر على دفع نفقات الاخلاء واضطر الجنود والموظفون المصريون العائدون الى بيع بيوتهم ومتاعهم بالمزاد . وفى بربرة أصبحت المدينة الجديدة التى بناها المصريون — وهى المسماة «بالشعب» — بينما كان السومال لايزالون يعيشون فى أكواخهم على أرض واطئة بجوارها — وأصبحت المنارة والأرصفة ومجارى الماء الحديثة ، والمستشفى وجميع المبانى الحكومية الفخمة شيئا لايذكر بعد أن تملكها الانجليز .

وكان أمر زيلع عجبا فى تصرفات السياسة الانجليزية وغرائبها . اذ بالرغم من امتلاك انجلترا المدينة منذ سنة ١٨٨٤ فان الحكومة المصريه «ظلت تدفع مرتب نائب القنصل الانجليزى ونفقاته ونفقات الادارة فى بلد أخلى رسميا واحتلته عسكريا جنود صاحب الجلالة [١] » .

وظلت الحكومة المصرية أيضا تدفع للباب العالى مبلغ (١٥٠٠٠ جنيه) مقدار الجزية السنوية عن زيلع المحتلة . وقد قرر مؤتمر لوزان أن تستمر مصر فى دفع أتاوة هذه البلاد التى أخذت منها الى سنة ١٩٥٥ !

وأعجب من هذا أن الحكومة الانجليزية حين طالبتها مصر بأن تقوم هى بدفع الجزية عن بلد استولت عليه كان ردها : «اننا نرى أن مصر ليس لها أن تشكو منا . نحن لسنا مسؤولين عن صفقة سنة ٧٥ الخاسرة . لأن زيلع لا تغطى نفقاتها » .

وأعجب من هذا وذاك أن انجلترا فى أثناء احتلال زيلع أرادت أن تغطى نفسها تجاه الباب العالى بستار من سيادة مصر الشكلية وأن تنتفع فى الوقت نفسه بخدمات مصر فبقيت الجنود السودانية المصرية تحتل المدينة لحساب انجلترا لغاية يولية سنة ١٨٨٧ . ولم يستغن عنها الا عقب مطالبة الجنود فى الشهر السابق (يونية) بأن تغير وتصرف لها ملابس .

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨٦٢ . القاهرة فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ .

ومع ذلك فان الانجليز استبقوا عددا من الجنود ورجال الشرطة المصريين لغاية ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٨ وهو التاريخ الذى أنزلت فيه الراية المصرية التى كانت لا تزال تخفق على المدينة .

أما ماحدث بعد الاحتلال المصرى فى البلاد المختلفة فأمره معلوم . فقد تحولت مناطق النفوذ المصرية على ساحل السومال الى «السومال الانجليزى» و «والسومال الايطالى» و «السومال الفرنسى» وظلت شعوب هذه الجهات فى حالة تأخر شديد بسبب حرمانهم من المدنية المصرية العربية التى ترفع مستواهم وتلائم طباعهم .

وقد ثار السومال على السيطرة الانجليزية منذ تنظيم الحماية فى سنة ١٨٩٨ . ودوخ السيد محمد عبد الله الشهير (بالملة المجنون) حملات انجليزية عديدة وانتصر عليهم فى حروب شعواء طاحنة حتى سنة ١٩١٠ .

وكان هذا الزعيم السومالى نشأ وترعرع فى بربرة فى عهد المصريين الذين ساعدوا على وجود فكرة « الجنس » و « القومية » .

الفصل الثانى عشر

ساحل البحر الأحمر

كانت انجلترا ، منذ عهد محمد على ، تنظر بقلق الى امتداد السيطرة المصرية على سواحل البحر الأحمر التى يقطنها شعوب عربية مسلمة . وقد كتب وزير خارجية بريطانيا ، فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٤٧ ، الى اللورد كولى :
« وصلنى كتابك المؤرخ فى ٣ نوفمبر وكذلك ترجمة الخطاب الذى يطلب محمد على فيه حق الاشراف على ميناءى سواكن ومصوع :

« انه على الرغم من موافقة الباب العالى يعتبر هذا العمل من محمد على اعتداء على الحبشة وهى بلد تحاول بريطانيا العظمى الآن أن ترتبط معه بعلاقات تجارية (١) » .

وفى ١٠ ديسمبر سنة ١٨٤٨ كتب القنصل بلاودر الى بالمرستون يقول بما أن الحبشة المسيحية مستقلة استقلالا كاملا فانه يقترح ضرورة وضع سكان مصوع تحت الحماية الانجليزية .

ولكن بالمرستون عارض فى الفكرة خوفا من اثارة المشاكل وقد حصل اسماعيل ، فى مايو سنة ١٨٦٥ ، على فرمان من الباب العالى بالتنازل له عن ميناءى سواكن ومصوع مع مديرية التاكة .

وقد تمكن اسماعيل ، بين سنتى ١٨٦٥ و ١٨٧٤ من أن يحتل احتلالا

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣١٨٥ .

فعليا أهم النقط الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربى ، من سواكن الى رأس حافون على المحيط الهندى ، وايجاد ادارة منتظمة فيها . وكانت السفن المصرية الحربية تراقب الساحل باستمرار مما أزعج سلطات عدن وجعلها تشكو من « وجود أسطول مصرى ضخم فى خليج عدن » .

ومعلوم أن الدول بعد شق القناة مباشرة — وبالأخص فرنسا وايطاليا — كانت تتنافس فى وضع قدمها على الساحل والايغال منه الى داخل أفريقيا .

وكان ممتاز بك وقتئذ محافظا لسواكن فعينه اسماعيل محافظا للبحر الأحمر وأصبح ممتاز باشا (١٨٧٠) . وقد قام فى سنة ١٨٧١ برحلة فى جميع مناطق البحر الأحمر وذكر البلاد التى كانت تظللها الراية المصرية فذكر بيلول (شمال عصب) ورهيطة فى جنوبها وعـدن على الساحل وزولا وأمفيلا بالقرب من مصوع . وكل هذه البلاد ستصبح فيما بعد جزءا من أرتيريا .

ولا بأس من الآن أن نذكر حدود أرتيريا : تبتدىء شمالا من رأس قصار فى جنوب سواكن . وتمتد جنوبا الى حلة رهيطة عند بوغاز باب المندب وغربا الى سبدرات قرب كسلا ، وهى أعرض نقطة اتساع فى أرتيريا اذ تبلغ حوالى الثلثمائة كيلو متر .

وقد كانت الراية المصرية تخفق فى معظم البلاد والمناطق التى تتألف منها أريتريا . وكانت أول نقطة استولى عليها الطليان فى منطقة أريتريا حوالى خليج عصب وذلك فى سنة ١٨٧٠ اذ بدأت الشركة الايطالية (روبا طينو) تشترى من الشيخ شحيم زعيم قبائل الدناقل والشيخ برهان شيخ رهيطة الذى كانوا يسمونه سلطانا قطعا من الأرض ، وكان الشيخ برهان هذا يتقاضى مرتبا ثابتا من الحكومة المصرية حتى احتضنه الطليان وقد احتج اسماعيل وطعن فى صحة العقود التى يتصرف

عقتضاها مشايخ غير مسؤولين فى حقوق مصر وتركيا وكان شيخ رهيطة باع الى الانجليز جزر موسى (سنة ١٨٤٠) كما باع الى الفرنسيين أوبوك سنة ١٨٦٢ فطلب اسماعيل سنة ٧٣ من الانجليز أن يردوا هذه الجزر حتى يقتدى بهم الطليان ولما أخذ رأى السير هنرى اليوت سفير انجلترا فى تركيا قال انه يؤيد فكرة اعتراف الحكومة الانجليزية بحق مصر وتركيا على جميع الساحل الغربى للبحر الأحمر وخليج عدن باعتبار ذلك أفضل الوسائل لوضع حد لتجارة الرقيق والحيلولة دون وقوع نقط من الساحل فى قبضة دول أخرى ووافق أيضا على أن تتنازل الحكومة الانجليزية عن جزائر موسى التى لم تحتلها قط .

وقد عارضت حكومة الهند فى اخلاء الجزر ولكن المبادىء الأساسية التى استند اليها اليوت فى رأيه كانت أساس اتفاقية سنة ١٨٧٧ التى اعترفت فيها انجلترا بسيادة مصر على الساحل لغاية رأس حافون على المحيط الهندى .

وكانت انجلترا تعارض دائما فى اعتداء ايطاليا على حقوق مصر فى البحر الأحمر ، وكانت ايطاليا توغل فى الساحل من ناحية عصب رغما من احتجاجات مصر المتكررة على ذلك التوسع التجارى المزعوم . وقد كتب اللورد سالسبرى وزير الخارجية الانجليزية فى يناير سنة ٧٩ يقول : « لو كان هذا التوسع تجاريا بحتا لنظرت اليه بعين العطف ، ولكن نريد أن نتأكد أنه خلو من كل غرض سياسى لأن البحر الأحمر وترنا الحساس » .

وفى نفس السنة (١٨٧٩) كان غردون اقترح ضم زولا ، وهى ميناء صغير بالقرب من مصوع ، الى الطليان فعارضت الحكومة الانجليزية أشد اعتراض ، وكتب وزير الخارجية سالسبرى الى السير باجيت فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٠ يبدى وجهة نظره فى مشروعية احتلال الطليان لخليج عصب قال :

« أيا كانت الأعمال (يريد الاعتداءات) التى تجرى الآن أو فيا بعد فى الأراضى المصرية من السويس الى رأس جردفون وأيا كانت الادعاءات التى يتقدم بها الغير فمما لا ريب فيه أن حكومة صاحب الجلالة ليس فى مقدورها أن تسلك سبيلا آخر سوى الاستمرار فى احترام ما تعتقده : أعنى سيادة الساحل الشرعية ، هــذه السيادة التى أصبحت فى رأى الحكومة الانجليزية تتمثل غير مدافع فى خديوى مصر الذى يحكمها بمقتضى فرمان من سلطان تركيا . وكل ادعاء أن سيادة كهذه ثابتة شكلا وموضوعا يمكن ابطالها أو تعطيلها بواسطة شيخ من المشايخ المحليين من شأنه خلق مبدأ خطير فى نتائجه العامة ، مبدأ لا يسع حكومة صاحب الجلالة ان تسلم به بطريقة سليمة لا غبار عليها [١] » .

ولكن فى سنة ١٨٨١ بدأت انجلترا تغير سياستها نحو ايطاليا والسر فى ذلك تكشف عنه مذكرة فى سجلات وزارة الخارجية الانجليزية كتبت فى سبتمبر تقول « ان الفرنسيين يبذلون أقصى الجهد لاخراج مصر من قبضة انجلترا » .

من ذلك التاريخ أخــذت انجلترا تصانع ايطاليا على حساب مصر وتتخذ منها كما كانوا يقولون « كلب الجناينى » أى الكلب الذى يحرس لسيده أملاكه حتى تحين الفرصة الملائمة ليرد الحارس ما يملك اسما . ومن ذلك الحين ، أى ابتداء من سنة ١٨٨١ أخذت ايطاليا تجرى على سياسة القوة و « التوسع المسلح » .

بدأ الطليان باحتلال رهيطه فى جنوب خليج عصب باعتبارها تابعة لمستعمرة عصــب وفى أغسطس سنة ٨١ طلبت الحكومة المصرية الى الحكومة الانجليزية ارسال مدرعة حربية الى رهيطه لأن سفينة حربية ايطالية منعت انزال جنود مصرية جديدة الى البر هناك .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥ .

وقد بلغ الأمر بالطليان أن سفير ايطاليا فى لنــدره ذهب الى وزير الخارجية الانجليزية فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ وأبلغه أن المصريين يريدون احداث الشغب فى ناحية عصب . وقد أشار فى حديثه الى أن مركز الطليان فى خليج عصب يرتكز من جهة الحق على نفس الأسس التى يرتكز عليها مركز الانجليز فى عدن [1] .

وقد حولت عصب فى يونيه سنة ٨٢ الى مستعمرة ايطالية وقــدم بذلك قانون الى مجلس النواب الايطالى . وفى يناير سنة ١٨٨٥ احتل الطليان بيلول فى شمال خليج عصب وطردوا الحامية المصرية منها بعد أن جردوها من السلاح ، وفى شهر فبراير بالاتفاق مع انجلترا قررت ايطاليا احتلال مصوع بعد بيلول وبسط حمايتها على الساحل من عصب الى مصوع وكان ذلك مبدأ تأسيس أريتريا .

وقد جاء فى وثائق وزارة الخارجية الانجليزية أنه فى فبراير سنة ٨٥ أعلن وزير خارجية روسيا الى سفير انجلترا فى بطرسبرج « بأنه لم يكن هناك أى أساس أو ذريعة تخول ايطاليا الحق فى الاستيلاء على بيلول أو مصوع لا سيما وان كلا البلدين كانت تحتله حامية مصرية ، ولاشك فى أن عمل ايطاليا مخالفة صريحة لروح المعاهدات القائمة [2] » .

وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٨٥ دخل الطليان مصوع وطردوا الحامية المصرية واستولوا على المستودعات ومخازن الذخيرة وجميع أمــلاك الحكومة المصرية ، حتى الخزانة .

ولما طالبت مصر ايطاليا بتعويضات كان مسلك ايطاليا شبيها بمسلك انجلترا فرفضت أن تدفع شيئا . وأكثر من ذلك : كانت مصر تدفع للباب العالى ، نظير التنازل عن مصوع ، ١٧٠٠٠ جنيه جزية سنوية . وقد

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٣٣٦٥ . ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

(٢) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية رقم ٧٨ مجلد ٣٨٦٠ .

استمرت مصر فى اداء هـذا المبلغ رغما من احتـلال المدينة بواسطة الطليان ...

وقد قرر مؤتمر لوزان ، كما قلنا ، أن تستمر مصر فى دفع أتاوتها المقررة لزيلع ومصوع لغاية سنة ١٩٥٥ !

وكانت انجلترا من ناحيتها ، منذ سنة ١٨٨٤ ، تحتل ميناء سواكن التى كانت تطمع فى أخذه ، وتعين حكاما انجليز « لساحل البحر الأحمر » .

وقد حاول بيرنج أن يجس نبض نوبار بخصوص سواكن ، وكتب بهذا الصدد فى ٣ أبريل سنة ١٨٨٧ : « انه (نوبار) يفكر من الآن فى اللحظة التى تعود فيها من جديد مديريات السـودان المجاورة الى حظيرة السيادة المصرية ، لا بطريق الفتح ثانية ولكن بطريق العلاقات التجارية ، وكان يرى أن دنقلة وسواكن هما النقطتان اللتان يمكن منهما السيطرة على السودان » .

ولتصريح نوبار أهمية كبرى فى ذلك الظرف لأن شركة انجليزية تجارية على غرار شركة الهند الشرقية كانت تعمل وقتئذ على الحصول من الحكومة على امتيازات تخول لها الحق فى انشاء مركز لها فى سواكن ، لتوغل منها فى السودان ايغالا تجاريا يساعد على السلم .

وتحقيقا لهذا المشروع التجارى السياسى كتب القنصل كامرون ، بتاريخ أول أبريل سنة ١٨٨٧ ، كتابا يقترح فيه لأجل التمهيد للسلم فى السودان الشرقى أولا ، أن يسحب من سواكن جميع الموظفين غير الانجليز (سوريون وفلاحون ومصريون) واحـلال موظفين انجليز مدنيين برياسة كتشنر مكانهم ثانيا ، فتح البلاد للتجارة .

ولكن مشروع الشركة التجارية فشـل بسبب اعتراض الحكومة المصرية .

وفى أثنا ذلك كانت ايطاليا تبسط سلطانها فى داخل السودان الشرقى وتتقدم نحو كسلا التى كانت هدفها ..

فزعج بيرنج من هذا التقدم وكتب الى حكومته ، بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٩ يقول « انكم أبرقتم الى فى ١١ الجارى بأن الحكومة الايطالية تريد الاتصال بزعماء كسلا .

« وفى برقيتكم بتاريخ ١٣ ، تقولون : « ان السياسة التى تعمل على ابقاء قوم آخرين خارج بلاد متوحشة ليس فى مقدورنا نحن أن نحتلها ، سياسة لا يمكن متابعتها أو الدفاع عنها » .

« انى أعترف كل الاعتراف بقوة هذه الملاحظة . ولكننى فى الوقت نفسه أجرؤ على اقامة الدليل على أن حالة السودان لا تطابق تماما حالة بلاد أخرى متوحشة لا تحتلها أو لم تحتلها قط دولة ما متمدينة أو شبه متمدينة . ولا شك من الناحية القانونية ، وان لم يكن من ناحية الواقع ، فى أن السودان جزء من الأراضى العثمانية . وان الخديوى يدفع جزية الى الباب العالى من أجل السودان ..

« ومن الظلم البين أن تستمر الحكومة المصرية فى دفع جزية من أجل مصوع ، وهذا الظلم يتضاعف أضعافا اذا وضع الطليان أقدامهم فى بلد تأمل الحكومة المصرية بحق أن تستعيده فى يوم من الأيام ..

« من الواضح أن الطليـــان يريدون امتلاك كسلا ليتمكنوا من التوسع نحو الغرب والانقضاض اذا ساعدت الحوادث على وادى النيل فى الخرطوم أو فى نقطة ما بالقرب من الخرطوم .

« وانى لأجرؤ على الزعم ان الحرص على المصالح المصرية يحتم اتقاء نكبة كهذه واننا لانبالغ اذا قلنا ان توطد دولة متمدينة فى وادى النيل يصير طامة لمصر .. »

وبعد أن أشار بيرنج الى الخطر ، الذى يتهدد النيل من ناحية الدراويش ، فى رأى البعض ، قال : « ان القبائل المتوحشة التى تسيطر الآن على السودان لاتملك الوسائل الضرورية أو المهارة الفنية لالحاق أذية حقيقية بمصر . ولكن الحالة تختلف كل الاختلاف فيما اذا توطدت دولة أوربية متمدينة فى وادي النيل ، لأن دولة كهذه ، كما قال كولين مونكريف « تضع مصر فى قبضة يدها » وتستطيع انقاص مؤنة مصر من الماء حتى تحول الى جرداء لازرع فيها ولا ضرع .

« وأيا كانت الدولة التى تحتل أعالى النيل فان هذه الدولة بفضل مركزها الجغرافى ، تهيمن على مصر .

« وفى نظر أوربا ، وفى نظر الشعب المصرى ، وأستطيع أن أضيف ، وفى نظر الكثيرين من الانجليز ، الحكومة الانجليزية معتبرة مسؤولة عن فقد السودان [1] » .

وأخيرا تقرر بمقتضى اتفاق مبرم فى ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ ، بين ايطاليا وانجلترا جعل الحد الشمالى لمستعمرة اريتريا الجديدة يبتدىء من راس قصار على ساحل البحر الأحمر ، على أن يسير من هناك فى اتجاه جنوب بغرب نحو العطبرة مارا فى شرقى كسلا ، وقد أضيفت مادة فيما بعد تسمح للطليان بأخذ كسلا اذا استطاعوا ، ومعها جزء صغير من الأراضى المصرية بشرط أن يردوها الى مصر عند الطلب .

وقد ظلت ايطاليا تحتل اريتريا لغاية الحرب الكبرى الثانية [2] .

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ مجلد ٤٢٤٣ .

(٢) لا بأس هنا ان نذكر بهذه المناسبة أن كاتب هذه السطور نشر فى جريدة المصرى بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٤٨ مقالا تحت عنوان (هل لنا سياسة أفريقية !) جاء فيه :

ان سكان مناطق البحر الأحمر واكثرهم من العرب يتطلعون الى مصر ويأملون من مصر أن تعمل على الأقل على نشر ثقافتها فى هذه البلاد .

وهأنذا أضع تحت انظار القراء الوثيقة الآتية : =

= الجالية العربية فى اريتريا . المكتب الرئيسى بأسمرة .
شارع بادوليو نمرة ١١١ .
أسمرة فى ٢٦ جمادى الأولى ١٣٦٦ الموافق ١٨ أبريل سنة ١٩٤٧ .
حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشي باشا ــ رئيس مجلس الوزراء ــ القاهرة .
نتشرف بأن نقدم الى دولتكم أصدق التحيات والتمنيات وأكمل الاحترام متقدمين الى دولتكم بأجمل التهانى بما تم من جلاء الاحتلال عن القاهرة والاسكندرية فى عهد دولتكم الزاهر آملين من عونه تعالى أن نقدم الى دولتكم قريبا التهنئة الكاملة بالجلاء التام عن وادى النيل وتحقيق كامل الأمانى الوطنية داخلها وخارجها داعين لدولتكم بالصحة والعمر الطويل .
يا صاحب الدولة :
أن رجاء الأمم العربية فى معقد آمالها صاحب الجلالة الفاروق وفى حكومته السنية كبير جدا وفى أريتريا جالية عربية نامية زاهرة تشارك الأمم العربية الأخرى فى هذا الرجاء متطلعة اليكم فى أن تأخذوا بيدها وأن تحققوا مطالبها التى تشرفت بأن كتبت عنها الى وزارتى الخارجية والمعارف والمفوضية الملكية المصرية باديس أبابا ، وحين زار البلاد الاريترية الأستاذ عبد الله حسين فى عودته من أديس أبابا انتهزت الطبقات المختلفة هذه الزيارة فأقامت لحضرته الحفلات العديدة منوهة برعاية مصر للعالم العربى والاسلامى والتعلق بصاحب الجلالة مولانا المعظم فاروق الأول ، وباسطة المطالب السياسية والاجتماعية .
أما السياسية فتتلخص فى رجاء العرب الاريتريين فى أن يسمع صوت مصر مجلجلا فى كل مؤتمر دولى أو لجنة دولية تعهد اليها فى البت فى مصير اريتريا السياسى ولعلنا فى غنى عن التحدث عن علاقات مصر ومصالحها التاريخية فيها ونحن واثقون أنه لن يفوتكم أن تعدوا الشعب الاريترى والعربى جزءا من وادى النيل ولسنا الآن فى صدد تفصيل هذه المسائل الدقيقة فدولتكم اعرف بذلك .
أما مطالبنا الاجتماعية فتتلخص فى أن تقوم مصر بتوثيق علاقاتها بهذه البلاد بالوسائل التى تراها وحسبنا أن نذكر هنا من ذلك المبادرة الى ارسال ستة مدرسين مصريين على نفقة الحكومة المصرية انأمكن للتدريس بمدرستى الجالية العربية بأسمرة ومصوع وبعثة أزهرية للوعظ والارشاد والاشراف على المعاهد الدينية والمساجد الاريترية واهداء كتب علمية للمدارس والاندية العربية .
ونحن مستعدون لاستقبال المندوب الذى قد تعهدون اليه بدراسة هذه المسائل وتسهيل مهمة هؤلاء المدرسين من ناحية المساكن وتوفير أسباب الراحة لهم مما بسطناه للاستاذ عبد الله حسين وكما هو مدون فى طلباتنا التى قدمناها الى وزارة المعارف ونرفق منها صورة مع كتابنا هذا.
وتفضلوا يا صاحب الدولة بقبول أسمى عبارات التحية والاجلال .
رئيس الجالية العربية بأريتريا .

(الامضاء)

الفصل الثالث عشر

المديرية الاستوائية

أو

مديريات خط الاستواء

كان يطلق على الفتوحات المصرية فى أواسط أفريقيا التى ظلت حدودها منذ حوالى سنة ١٨٧٤ يعتورها التغيير والتعديل بسطا وقبضا بسبب اضطراب سياسة غردون ومآرب السياسة الانجليزية اسم « الاستوائية » أو مديرية خط الاستواء . وأحيانا كانت تسمى « مديريات خط الاستواء» باعتبار مديرية بحر الغزال جزءا من الاقليم الاستوائى ، أو باعتبار تقسيم مديرية خط الاستواء الى مديريات خصوصا وانها كانت تشمل بصفة عامة منطقة النفوذ المصرى فى الأنيورو وأوغندة وما حولهما فى الأصقاع الواقعة فى شمال بحيرة فكتوريا وفى الجنوب الغربى من بحيرة ألبيرت عند منابع النيل .وكانت وقتئذ بلاد الجالا أو الجزء الجنوبى من الحبشة الحالية لايتجزأ من هذه المنطقة ، وكان نفوذ مصر يمتد من النيل الأبيض مارا ببلاد الجالا وبلاد السومال حتى يصل الى ساحل المحيط الهندى فى اطراد مستمر لا يعوقه عائق .

وقد ذكرنا من قبل أن شاييه لونج الأمريكى كان عقد ، باسم مصر ، مع امتيزا ملك أوغندة معاهدة حماية ، ذكرها فى كتابه (مصر ومديرياتها الضائعة) : « لقد تكلمت فى تقريرى الى الحكومة ، بتاريخ ١٦ ديسمبر

سنة ١٨٧٤ ، عن المعاهدة التى وقع عليها الملك امتيزا ووضع بمقتضاها مملكته تحت الحماية المصرية . وهذه المعاهدة أبلغت الى الخديوى وكانت أساس ثبليغ رسمى أعلنت به مصر ضم جميع الأراضى الواقعـة حول البحيرتين الكبيرتين فكتوريا وألبيرت وقـد اختفت من سـجلات القاهرة ..

« وعلى الرغم من استقصاء البحث فى جميع الوزارات لم يوجد لها أثر مطلقا . ولعلها فقدت مع جميع المستندات النفيسة والتقارير العلمية التى تمثـل خمسة عشر عاما من الجهود والأعمال التى قام بها زملائى الفرنسيون والأمريكيون فى أركان حرب الجيش ، كل هذه الأوراق فيما يظهر ألقاها فى النار ذات يوم ضابط فى الجيش البريطانى أصابته نوبة مخمور » .

وقد كان نفوذ مصر سائدا فى أوغندة ، رغما من دسائس المبشرين والساسة الانجليز ، وكان امتيزا أرسل ابنته الى مصر سنة ١٨٧٤ فأقامت فيها حتى سنة ١٨٨٢ ، وكان فى نية الخديوى اسماعيل أن يزوجها ضابطا مصريا يكون ممثلا له فى بلاط امتيزا ولكن الحوادث حالت دون تحقيق هذه الأمنية .

وقد أشرنا من قبل الى أن قوة مصرية بقيادة الضابط السودانى نور بك محمد قد احتلت ، بناء على طلب امتيزا نفسه ، روباجا عاصمة ملكه على ساحل بحيرة فكتوريا .

١ — أحوال المديرية من سنة ١٨٨٠ لغاية سنة ١٨٨٨

فى سنة ١٨٨٠ فتح أمين ثانية فويرا وجميع المحطات الأخرى التى كان اضطر الى اخلائها بأمر غردون وضم لاتوكا الى المديرية وهى أخصب بقعة فيها « جنة أفريقيا » .

وفى أوائل هــذه السنة وصــل كازاتى مصر وجاء الى الخرطوم (٢٦ يناير ٨٠) فوجد وكيل المديرية جيجلر فى انتظار قدوم رؤوف باشا وقد قضى العام فى ارتياد بحر الغزال ثم لعب بعد ذلك دورا فى حوادث خط الاستواء .

وفى ســنة ١٨٨١ تعين فيتا حسان صــيدليا للمديرية حيث ظل عشر سنوات . وفيتا حسان كما قلنا تونسى اسرائيلى كان والده قنصلا لايطاليا وأرسله الى الاسكندرية ليتم دراسته . ثم عين رئيسا لصيدلية أرملة عباس باشا ثم عين موظفا فى صحة العريش ثم صيدليا فى السودان (مايو ١٨٨٠) .

وفى السنة عينها (١٨٨١) كانت مونبوتو أوجورجورو ملحقة بمديرية بحر الغزال وانفصلت عنها فى يولية سنة ١٨٨١ مع مركز (رول) وألحقت بمديرية خط الاستواء لأنها أقرب اليها .

وعيّن لبتون الانجليزى Lupton وكيل مديرية خط الاستواء حكمدارا لبحر الغزال مكان جيسى الذى عزل من الخدمة وأدركته المنية وهو فى طريق العودة بالسويس [1] وكلف الضابط المصرى حواش أفندى منتصر قائد جنود مكراكا بادارة مركز مونبوتو . وتمتد مكراكا من جنوب رول لغاية جورجورو (مونبوتو) .

وقبل أن تتكلم عن موارد المديرية وحاصلاتها ومعيشة السكان يحسن

---

(١) جاء فى مذكرات أمين باشا Emin Pasha, His Life And Work ص ١٢٧ ما يأتى :

«كان جيسى يفكر فى العودة الى ايطاليا لأن الحكومة كانت تطالبه بالرد على التهم الخاصة بالفظائع التى يصعب القول انه لم يرتكبها ضد الرقيق، بصرف النظر عن البواعث الانسانية (خصوصا ضد سليمان الزبير الذى غرر به ليسلم نفسه ثم حوكم عسكريا واعدم بالرصاص) . وقد ارسل التجار بدورهم شكاوى لاتحصى ضد جيسى . وعلى اثر حدوث طامة كبرى فى بحر الغزال بسبب المؤونة وصل جيسى الى الخرطوم ومنها رحل الى سواكن ثم الى السويس حيث مات بائسا متعوسا » .

بنا أن نذكر النظام التجارى فيها كما وصفه فيتاحسان لما كان له من أثر فيها وقد أشرنا اليه من قبل ، قال : « يرجع تاريخ احتكار التجارة [1] الى عهد ضم أراضى المديرية والواضع لهذا النظام هو غردون باشا وقد استمر معمولا به من ذلك الوقت .

---

(١) كان قرار غردون الخاص باحتكار التجارة سببه الأول العلاقة الكائنة بين تجارة السن وتجارة الرقيق ولكن هذا الاحتكار شأنه شأن جميع الاحتكارات الاستغلالية التى جرت عليها فيما بعد جميع الدول الأوربية فى أفريقيا أكبر ضربة للتجارة وقد كانت مبعث شكوى التجار والأفراد على السواء . وقد كان العقاد يدفع ٢٠٠٠ جنيه فى العام للحكومة ليكون حرا فى تجارته وقد أمر اسماعيل باشا أيوب بمصادرة ٨٠ قنطار عاج فى بور يملكها العقاد قبل وصول غردون الى خط الاستواء (مارس سنة ١٨٧٤) فكان تطبيق النظام فجائيا ، يضاف الى ذلك أن العاج كان يمكن الحصول عليه فى أوغندة والحبشة من طريق المقايضة أو من طريق الصيد فاحتكار التجارة حول هذه التجارة عن مناطق النفوذ المصرى . وقد أراد غردون بعد تعيينه حكمدارا للسودان تعميم هذا النظام فى السودان وملحقاته . ولكن يظهر أن حكام الملحقات المصريين احتاطوا للأمر : يدل على ذلك صورة المكاتبة الصادرة من محافظة بربرة الى المعية رقم ٥٣ بتاريخ ١٥ جمادى الأولى سنة ٩٤ هـ (٢٨ مايو سنة ١٨٧٧) — دفتر رقم ٣٧١٦ من سجلات عابدين :

« وردت لنا برقية من سعادة حكمدار عموم الأقاليم السودانية تاريخ غرة مايو سنة ٧٧ نمرة ٢٠٨ يذكر أن سن الفيل صار احتكاره للميرى ومرغوبا ضبط كل ماورد بهذه الجهة من الصنف المذكور وتوريده للميرى مع أن هذه الجهة منظمة مجددا (حديثا) وغالب تجارها مسئولون عن مبالغ جسيمة من طرف تجار بندر عدن من من أوروبيين وفرس ونوبيين ويهود ونحوه برسم الشركة وتدارك مايوجد من البضاعة التجارية بما فيه الصنف المذكور ، وهذا فضلا عن صرف مبالغ أيضا من طرف تجار عدن الى مذكورين سومال وغيرهم خلاف شركاهم المقيمين بالجهات برسم تدارك صنف السن فيل فقط وتعيين أشخاص بسلاح لصيد الأفيال بماهيات ومصاريف جسيمة من طرفهم الخ » .

وتتلخص بقية المكاتبة فى « أن تنفيذ الأمر قد يؤدى الى استياء عام وعطل واضرار بالحكومة » .

ولا توجد تجارة بالمعنى الصحيح فى لادو لا محطات خط الاستواء الأخرى وبحر الغزال ابتداء من لادو .

كان يوجد فى لادو ثلاثة تجار فقط وهم صبرى وهو مصرى من أهالى الوجه القبلى وروفائيل وهو مصرى قبطى وديمترى وهو يونانى . وكان رأس مالهم جميعا ١٥٠٠ ريال قيمة السلع التى تنحصر فى بعض الأنسجة القطنية والدمور وبعض المشروبات الروحية والمواد الغذائية .

وكانت المواد الهامة المعدة للتصدير هى وحدها المحتكرة وترسل الى الخرطوم وهى العاج وريش النعام وجلود الثيران فالعاج من ممتلكات الحكومة وعلى الأهالى توريده لمستودعات الحكومة حالا عقب صيد الفيلة بدون مقابل (كانوا يكتفون بلحومها وشحومها) وكانوا قبل احتكار العاج يبادلون عليه بالخرز أو بزجاجة من الخمر المغشوشة التى يجلبها التجار (يستثنى من ذلك سكان مملكتى الأونيورو وأوغندة بسبب علاقاتهم التجارية مع الزنجباريين) .

وفرضت الحكومة بعد ذلك على الأهالى توريد العاج بصفة جزية فاضطروا الى اقتناص الأفيال لتوريد أنيابها . وعاد الاحتكار على الأهالى بأضرار أقل كثيرا من التى وقعت على العرب لأن هؤلاء كانوا يجنون مغانم كثيرة من وراء بيعهم العاج فى الخرطوم .

وكان من المتعين أيضا تسليم ريش النعام فى مستودعات الحكومة فتدفع هذه نصف الثمن والجزء الباقى يحجز سدادا لضريبة الحكومة . وكان ثمن رطل الريش الأبيض العالى ١٨ ريالا .. وكانت هذه الأثمان لاتدفع نقدا بل غلة وكانت السلع تقوم مقام النقود المتداولة فى مديرية خط الاستواء فيدفع منها رواتب الموظفين والجند وكذلك الحال فى باقى المعاملات التجارية .

ولم ير فيتاحسان طول المدة التى أقامها الا شحنة واحدة من النقود تحتوى على ٥٢,٠٠٠ ريال بعث بها رؤوف باشا من الخرطوم ليدفع منها

المعاشات المتأخرة ومرتبات المستخدمين لغاية آخر عام ١٨٧٩ وكون هذا المبلغ القيمة التى استعملت للمبادلة عينا فى جميع أنحاء المديرية زهاء عشر سنوات وكانت كل باخرة تأتى من الخرطوم تجلب سلعا بنحو ٣٠,٠٠٠ ريال [١] » .

وكان تموين المديرية يصل بالبواخر من الخرطوم ولكن آخر باخرة وصلت سنة ٨٢ فكان يجب على المديرية أن تعتمد على نفسها بعد انقطاع المواصلات .

وعلى أية حال كانت المديرية منذ انشائها تعمل على توفير حاصلاتها من زراعاتها فكان الضباط المصريون وأمين منذ وصوله يجرون على سنة واحدة متبعة فى جميع البلاد التى فتحها أو أنشأها المصريون فى السودان وسواحل البحر الأحمر وهرر وهى انشاء مبان للموظفين والحكومة وحدائق وزراعات تؤتى الخضر وغيرها مما يستعينون به فى معاشهم ويرفه عنهم والمصرى بطبيعته مولع بالحدائق والحقول فهو مدنى متأنق وقد كان لهذه النزعة أكبر الأثر فى تطور السكان وتحبيب المدنية اليهم .

وقد أشار فيتا حسان ويونكر وأمين الى ذلك فى كتاباتهم ورغما من اختلافهم فى التعبير فان هذه الحقيقة تتجلى باهرة .

قال فيتا حسان « لاشك أن زراعة الذرة البيضاء التى تفضل الذرة الصفراء لأنها تتطلب مجهودا أقل وتأتى بعشرة أضعاف الربح . ويرجع الفضل فى زراعة الذرة البيضاء فى جورجورو الى حواش منتصر الذى أتى بها وتمكن بقوة العزيمة والذكاء والمبادرة وحسن التدبير الى استجلاب وزراعة أشجار الفاكهة من برتقال وليمون وكذلك الخضر

---

(١) الجزء الأول من كتاب فيتاحسان . الفصل الخامس . ص ٦٢ (الحقيقة عن أمين باشا بالألمانية) .

من كل نوع ، نخص بالذكر منها البصل ، وكذلك الدخان الذى أحضر بذرته من القضارف بمديرية كسلا [1] » .

وكتب فى فصل آخر فى كلامه عن مكراكا :

« وان أنفع النباتات والزراعات التى أدخلهــا أمين بك فى خط الاستواء زراعة القطن والأرز ويرجع الفضل فى نجاح زراعتهما نجاحا باهرا الى ما بذله حواش منتصر من عظيم المساعدة والهمة التى لا تعرف الكلال . كما نجحت زراعة الذرة والفضل فى نجاحها يعود على أمين بك . وقد أفاد القطن افادة عظيمة جدا فيما بعد وذلك عندما استدعت الأحوال أن يزاول رجال الحكومة وجنودها هم أنفسهم صنع ملابسهم عقب انقطاع المواصلات مع الخرطوم [2] » .

وفى سنة ١٨٨٥ كان حواش منتصر حاكما على جنوب المديرية ومركزه دوفيلة كما كان مرجان أغا حاكما على الشمال ومركزه أمادى . وقد زاره فيتا حسان ووصف الحالة هناك قال :

« ومن باب الاحتياط للطوارىء ملأ حواش مستودعات دوفيلة بالحبوب والمؤونة والزرائب بالأنعام . وهو احتياط مبنى على الفطنة وبعد النظر ، وأنشأ كذلك زراعات واسعة للأقطان وألزم الأهــالى والجنود بزراعة هذا النوع . وبفضل هذا التدبير تمكن فعلا من جمع الجنية الأولى وأخذ جنوده الزنوج فى غزل القطن تحت مباشرة رجل دنقلاوى من فاديك فتعلموا نسج الدمور . ونشر حواش أفندى

---

(١) الجزء الأول من كتاب فيتاحسان : الفصل الخــامس ص ٦٢ (الحقيقة عن أمين باشا بالألمانية) .

(٢) الجزء الأول . الفصل السابع . ص ٨٣ ــ ٨٤ . ذكره طوسن باشا فى كتابه (مديرية خط الاستواء) .

فيما بعد زراعة القطن ونسيج الدمور بدرجة أن سكان المديرية من ملكيين وعسكريين أمكنهم أن يكتسوا منه [1] » .

وكان حواش يملك عددا كبيرا من الرقيق يستخدمه فى الأعمال المختلفة مثل زراعة البصـل والقطن وصناعة الدمور والأحذية وكانت قطعانه العديدة تستطيع أن تفى بالشطر الأكبر من حاجات المديرية كما تأتى له بايرادات كبيرة .

وكتب جونكر السائح الألمانى فى رحلته الأولى سنة ١٨٧٨ يقول : « ان زراعة الحقول والحدائق هى أول أساس وطيد للتجارة . وهى خير وسيلة للعمل على ترقية الزنوج من الناحية الأدبية بل هى أقرب الوسائل الى مداركهم . والآن يمكن القول أنه على الرغم من الأخطاء الكبيرة التى ارتكبها العرب (المصريون) ضد الزنوج فانهم هيأوا فى مكراكا الظروف التى جعلت تقدم المدنية فى حيز الامكان والتى جلبت للبلاد مزايا حكومة تضم بقايا شعوب كثيرة تحت سلطان واحد قوى .

« ويرجع الفضـل الى المسلمين ، وهم الذين تعزى اليهم المطاعن والمثالب ، فى الزام الزنوج بضرورة المعيشة فى هدوء وسلام مع القبائل المجاورة لهم والاقامة على قدر الامكان فى دورهم ومواطنهم والانصراف الى زراعة حقولهم . وهذا العمل يجب أن نقدره حق قدره دون أن نبخسه شيئا . ومما يشرف الحكومة المصرية وضع بلاد الزنوج تحت سيطرتها . وهذا الأمر مكنها أن تفتح بابا لانتشار المدنية فى مستقبل الأيام .

« ومهما بلغ من ثقل النير الأجنبى فهو فى الواقع أفضل للزنوج

---

(١) الجزء الثانى من كتاب فيتاحسان . الفصل الرابع . ص ٤٢ ــ ٤٣ ذكره عمر طوسن فى كتابه (مديرية خط الاستواء) .

من حكم نفس المستبدين منهم اذ أن حكم هؤلاء مصدر حروب لا نهاية لها يفنى فى خلالها بعضهم بعضا [1] » .

وكتب جونكر سنة ١٨٨٢ عن حواش يقول : « حواش أفندى منتصر ضابط مصرى عاش سنوات فى بلاد الزنوج وكان خبيرا بجميع شؤون أعالى النيل ، بلاد مكراكا ورول [2] .

« وهو ذو همة لبق فى معاملة الوطنيين وهذه الصفات وضعته فى مستوى أعلى بكثير من مستوى معظم زملائه الموظفين [3] .

وفى يونيه سنة ١٨٨٤ كتب فى أثناء مقامه فى دوفيله : « لقد أطلت مقامى فى دوفيلة وأصلحت من شأنى فقام أحـد الأونباشية بصنع « بنطلون » وصديرى لى من دمور مكراكا وصبغهما [4] » .

وفى سنة ١٨٨٦ كتب جونكر : « وفى ذلك العصر ، رغما من الأزمنة السيئة ، فان أمين عزل بعض كبار الموظفين أمثال عثمان لطيف وكيل المديرية .وأحمد محمود سكرتيره الخاص مما أدى طبعا الى زيادة عدد المستائين . ولكن كان لنا أن تتعزى برؤية العزيمة المبذولة فى فلاحة الأرض بما فيها زراعة القطن التى كانت أهملت قليلا ثم عنى بها . وقد كان لحواش أفندى القدح المعلى فى هذا الميدان ، وقد كسب أرباحا طائلة [5] .

وتكلم أمين باشا فى مذكراته عن مكراكا (سنة ١٨٨١) قال : « فى حدائق الموظفين نجحت زراعة الليمون بأنواعها وكذلك زراعة الشمام

(١) الجزء الأول . ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠ من كتاب جونكر (رحلات فى أفريقيا) . الطبعة الانجليزية .
(٢) الجزء الثانى من كتاب جونكر . ص ٣٩٦
(٣) الجزء الثانى من كتاب جونكر ص ٤٢٧
(٤) الجزء الثالث من كتاب جونكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠٩
(٥) الجزء الثالث من كتاب جونكر ، ص ٥١٨

والبصل . وقد زرعنا القطن لأول مرة هذا العام وحصلنا من أقتين من البذرة على عشرين قنطارا من القطن الجيد [1] » .

وقال بعد ذلك : « ان جوزا Gosá المحطة المركزية فى مملكة أبوقاية Abukaya لم ترتفع الى مرتبة محطة الا منذ بضعة أشهر . وهى ذات موقع جميل جدا لمراقبة الطريق الممتد من مونبوتو الى الشمال والطريق المؤدية الى مركز رول وبحر الغزال . وقد كان نجاح زراعة القطن هنا باهرا بدرجة أنه ساعد على نشوء صناعة النسيج التى يحتمل أن تصبح ذات أهمية كبرى فى المستقبل . ويشتغل السكان — الدناقلة وعبيدهم فى الوقت الحالى — بنسج قماش القطن الخفيف المعروف فى جميع أرجاء السودان بالدمور الذى يناسب الى أقصى حد الجو الذى يعيش فيه . ولكن صناعته هنا أرقى بكثير منها فى الخرطوم . [2] » .

وكتب كازاتى سنة ١٨٨٣ يقول : « يوجد القطن فى أماكن كثيرة فى أشكال مختلفة وهو عند قبائل البارى تظل بذوره خضراء عند نضجها . ويرجع الفضل فى انتشار صناعته الى بعض الدناقلة الذى تولوا صنع المناويل بأنفسهم فأصبح الكثيرون من الأهالى يبتغون رزقهم من نسج الدمور المحلى [3] » .

يتضح مما تقدم أن الزراعة والصناعة كانتا فى تقدم مستمر بفضل المصريين فى مديرية خط الاستواء وان التجارة كانت متقدمة بفضل العرب النـــازحين فى أوغندة والأنيورو ولكن كانت متأخرة فى خط الاستواء بسبب سياسة الاحتكار التى وضعها غردون .

---

(١) كتاب أمين باشا فى أفريقيا الوسطى . ص ٣٧٤ (بالانجليزية)
Emin Pasha In Central Africa

(٢) أمين باشا فى أفريقيا الوسطى . ص ٣٨٦

(٣) كازاتى (عشرة أعوام فى مديرية خط الاستواء) . الطبعة الفرنسية ص ١٨٩

ولا شك أن الثورة المهدية قد ربكت الى حد ما الحركة الاصلاحية العامة ونشرت الاضطراب فى المحطات الكثيرة التى أنشأها المصريون على ضفاف النيل الأعلى وفى السهول الممتدة شرقا وغربا وكانت كلها مراكز مدنية ونظام .

وقد كان من نتائج فتح السودان منذ عهد محمد على نزوح التجار المصريين والعرب والسودانيين كالنوبيين والدناقلة جنوبا الى ما وراء الحدود المصرية الى ما بعد فاشودة أى ان هذه الأقطار الاستوائية كانت مفتوحة للتجارة وبدأ احتكاك الزنوج بالعرب قبل الفتح المصرى فى سنة ١٨٧٠ ثم أخذت بعد ذلك تدخل المدنية بطريق واسع منظم فى هذه الأرجاء .

وقد كانت الحكومة المصرية تحمى الدناقلة وتعفيهم من الضرائب ولكن أمين باشا كان يطاردهم بفرض الضرائب عليهم ويضطرهم الى العودة الى مواطنهم وهم وان لم يكونوا من خيرة العناصر السودانية الا انه ثبت أن وجودهم فى بلاد الزنوج كانت له بعض المزايا التى لاتنكر من ناحية المدنية والعمران .

وقد كانت مملكة مونبوتو (أو ما نجباتو كما يسميها جونكر) أقصى ممالك خط الاستواء غربى النيل ولم تكن بها ادارة منتظمة بالمعنى الصحيح الا فى عهد أمين أو بعبارة أدق فى عهد حواش منتصر الذى أخضع زعماء قبائلها وطارد أمير مونبوتو المسمى مامبانجا Mambanga وأوغل فى مطاردته حتى أخضع القبائل المجاورة لمونبوتو وزعيمها بورو Buru لحكومة مصر وكانت هذه المديريات خاضعة اسما لمصر قبل حواش . وقد أنشأ حواش سنة ١٨٨١ محطة سميت باسمه (محطة حواش) فى رأس زاوية فى أقصى الحدود الغربية واقعة فى رأض قبائل البارمبو A-Barmbo ورئيسها بورو . وقد زار جونكر المحطة الجديدة فى

سبتمبر سنة ١٨٨١ فامتدح تصميمها البديع وجمال البناء وحسن التقسيم والاحتياط لطوارىء الحرب والحريق وما اليهما [١] وكانت هذه المحطة تقع فى شرق نهر الأوله . وتبعد غربا عن بحـر الجبل (النيل) نحو خمسمائة كيلو مترا . ومعظم مديرية المكراكا الغنية وجميع مونبوتو لغاية محطة حواش هى الآن جزء من اقليم الأولة التابع للكونغو البلجيكى باعتبار هذه البلاد قسما من بحر الغزال الذى كانت بلجيكا تطمع فى ضمه كله اليها لولا اعتراض فرانسا .

وقد كانت مديرية خط الاستواء ، فى بداية الثورة المهدية ، تمتد على ساحل النيل من مخرجه فى بحيرة ألبيرت الى ما وراء لادو وكانت تشتمل على القسم الشمالى من الأنيورو وأراضى الشولى والمادى والبارى واللاتوكا والمكراكا والمورى والمونبو . وكانت تمتد من ناحية أخـرى على النيل بين بحيرة ألبيرت وبحيرة فكتوريا لغاية نياميونجو على بحيرة ابراهيم بل الى نقطة أبعد من ذلك نحـو الجنوب فى درجة دون خط الاستواء أو على مسافة حوالى خمسين ميلا من بحيرة فكتوريا .

ولكن فى أثنـاء الثورة المهدية اضطرت الحاميات الى ترك فويرة والمراكز الواقعة على النيل — فكتوريا وتجمعت على النيل من سواحل بحيرة ألبيرت الى ما بعد لادو شمالا .

ومن ماجونجو عند مخرج بحيرة ألبيرت لغاية لادو يمر الطريق بدوفيلة ولابوريه وموجى وكيرى وبيدن ورجاف وغندوكورو ثم يصل الى لادو بعد أن يقطع مسافة ٢٠٠ ميل تقريبـا . ويلاحظ أن أوغنـدة الانجليزية الحالية تبتدىء جنوبا من سواحل بحيرة فكتوريا وتنتهى شمالا فى نيمول . وتؤلف الأونيورو جزءا منها .

وكانت مديرية خط الاستواء فى مجموعها واديا مستطيلا مخصبا تنتشر

(١) انظر الجزء الثانى من رحلات جونكر (الطبعة الانجليزية) ص ٤٠١

فى أرجائه سهول محتفلة بالزرع ومراع ناضرة . وكان اقليم فاتيكو فى بلاد الشولى يسمى « جنة النباتيين » لامتلائه بالنبات والزهر والفاكهة والعطر من كل لون .

وقد ساعد اخلاء مديرية خط الاستواء ، وتجنيد الحاميات السودانية تحت الراية البريطانية بغير مسوغ ، انجلترا أولا على احتلال أوغندة القديمة التى كانت مساحتها لا تزيد على ٥٠,٠٠٠ كيلو متر مربع فى حوض بحيرة فكتوريا بين سواحلها الشمالية والشمالية الغربية وثانيا على ضم الأنيورو ومديرية خط الاستواء نفسها الى أوغندة .

وقد بلغت مساحة أوغندة الجديدة فى سنة ١٩٠٠ بعد أن تكونت واتسعت على حساب مصر وبقوة مصر حوالى ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر (أى ستة أضعاف مساحتها الأولى) وامتدت حدودها الشمالية لغاية غوندوكورو فى جنوب لادو ، التى كانت لغاية سنة ١٩١٤ تكون الحد الجنوبى الأقصى للسودان الذى أخذ فى التناقص والانقباض . وعدا ذلك تنازلت انجلترا للكونغو البلجيكى عن أراض واسعة كانت تؤلف من قبل جزءا من مديرية خط الاستواء على الضفة الغربية للنيل كما تنازلت له عن ساحل بحيرة ألبرت نيانزا الغربى .

وكانت انجلترا مسوقة الى التعجيل باحتلال مديرية خط الاستواء وأوغندة لتسبق فرانسا وألمانيا اليهما من ناحية — لأن بعثات هاتين الدولتين التبشيرية والكاثوليكية المقيمة فى البلدين كانت تعمل على ترجيح كفة نفوذهما — ولتحول من ناحية أخرى دون توطد النفوذ العربى فيهما .

كتب فوتيرز المؤلف البلجيكى : « ان المدنية العربية قد تمكنت فى أقل من عشرين سنة من تغيير اللباس القومى تغييرا كاملا ، ولم يكن ذلك اللباس فى ابان زيارة اسبيك شيئا مذكورا . واليوم أصبح الأوغندا (السكان) يلبسون لبوسهم من الرأس الى القدم ، وكذلك الأنيورو .

وقد حلت تدريجا الملابس العربية مكان « اللباس » القديم المصنوع من لحاء الشجر . وترى فقراءهم يلبسون القميص والحزام والقفطان على أجسادهم والطربوش على رؤوسهم .

« وعقب موت امتيزا ، فى سنة ١٨٨٥ ، خلفه ابنه موانجا . وما كاد يتسلم مقاليد الحكم حتى خاف على استقلال بلاده وبقاء سلطانه من تقدم الأوربيين على بحيرة فكتوريا [1] » .

---

(١) A. I. Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha. Paris, 1890
جاء فى مذكرات امين باشا ، لسنة ١٨٧٦ ، مايأتى : « قبل أن يجد العرب طريقهم الى أوغندة والأنيورو — بصرف النظر عن منشأة عربية قديمة فى كاراجوا — كانت تجارة هذه البلاد منحصرة فى تبادل المواد الضرورية جدا للحياة وكانت قيمة البضائع المعروضة للبيع تتوقف على هوى البائع وعلى حاجة المشترى وقدرته . ولم يكن للنقود أو ما يعادلها وجود ما . ولكن منذ اللحظة التى دخل فيها أول العرب موسى مزورى (كذا) واحمد بن ابراهيم اوغندة بناء على دعوة سونا والد امتيزا تغيرت الأحوال . وقد سهل افتتاح طريق زنجبار — رحلة خمسة أشهر فى ذلك الوقت — استيطان العرب فى البلاد ووجود وكلاء لهم فى كارجوا وأونيامقيزى وفيما بعد على البحيرة على تغيير الأسعار فى أسواق البلاد . وكانت ترد من زنجبار مقادير كبيرة من البضائع وخصوصا المصنوعات والمنسوجات من كل نوع من الأقمشة والأسلحة والذخيرة والنحاس وتجد رواجا عند قوم نهمين فى امتلاك ملابس انيقة وحلى وأسلحة . وقد أحس الناس بالحاجة فى نفس الوقت الى عملة متداولة فوجدت العملة المسماة « كاورى » لاشباع هذه الحاجة .

« ويرجع الى العرب الفضل فى ايجاد هذه العملة بين الزنوج وقد تعلم الواجندة سريعا كيف يستعملونها . وكانت تنظم الكاورى أو المحار فى خيوط بالمئات . تعادل كل خمسة خيوط منها ريالا ، والعرب هم الذين قرروا هذه القيمة أساسا للتعامل . فكانت المعزة تساوى من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ محارة ، وربطة الملح فى الأنيورو ١٠٠٠ والثور من ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ وهلم جرا . وكانت الخيوط مقسمة أنصافا فى كل خيط خمسون محارة وكان أقل خيط يشتمل على ٥ محارات لشراء الحاجيات الرخيصة . وقد اعتاد الناس هذه العملة التى كانت تجرى بواسطتها — الا فى أحوال المقايضة النادرة — جميع المعاملات التجارية .

« وقد حاول امتيزا زمنا طويلا احتكار تجارة الأسلحة فاجتهد فى منع العرب من دخول الأنيورو ولم يتمكن الا حديثا — من حوالى خمس =

وكان العرب يفدون من زنجبار ومونباسة على الساحل الى أوغندة بقوافلهم ، ولكن كان الأوربيون لا يرون فيهم الا نخاسين يجب القضاء عليهم مدفوعين الى ذلك فى الواقع بعوامل سياسية بحتة .

= سنوات فقط ـ التاجران الهمامان العربي سعيد بن صيفي والفندى حسن من الوصول الى عاصمة الآنيورو ، من كاراجوا ، وهناك أحسنت وفادتهما ونجحا رغما من النظام السائد فى الحصول على مقدار كبير من السن . وبمجرد انتشار تجارة زنجبار فى الآنيورو جرى استعمال الكاورى (المحار) كعملة فيها للتداول . على أن أغلبية شعب الأنيورو ظلت متمسكة بنظام البدل التجارى . ومهما كان من الأمر فان من دلائل الروح التجارية النشطة عند العرب أنهم أوغلوا فى البلاد الى هذا الحد بينما أخطأت ادارة غردون باشا فى مديريات خط الاستواء المصرية فى عدم بذل أقصى الجهد لفتح هذه الأقطار لتجارتنا .

«ويذهب الواجندة بأنفسهم الي زنجبار مرسلين من ملكهم . ويستبدلون بالعاج الأسلحة والذخيرة .

« وكانت غزوات امتيزا وكاباريجا المستمرة فى سبيل الحصول على الماشية والسن وغيرهما تهدف فى نفس الوقت الى أخذ الاماء وكانت فتيات الفاهوما تلعب فى الرقيق نفس الدور الذى تلعبه فتيات الأحباش .

«على أن السن لا يزال أهم صادرات الممالك الاستوائية . وقد كانت لاجراءات الحكومة المصرية الخرقاء (احتكار السن) سببا فى أن كل هذا السن ، بدلا من أن يذهب الى منفذه الطبيعى صوب الشمال صار يتجه نحو الجنوب .

«وقد انتشرت التجارة ونشطت فى البلاد الواقعة بين البحيرات وأدت العلاقات الناشئة بين القبائل المختلفة بعضها وبعض وبينها وبين التجار العرب الى جهود صادقة تهدف الى فتح طرق تجارية جديدة وخلق حوائج وطلبات جديدة واجابتها . وقد ظلت الأراضى المصرية فى الشمال، من هذه الناحية ، متأخرة جدا . ولم يحدث أى تقدم بسبب نظام الحدود المراقبة المتعوس والاحتكار التجارى اللذين تجد فيهما الحكومة الى اليوم الوسيلة الوحيدة لمنع السطو على العبيد وتهريبهم للمتاجرة . وكانت نتيجة هذه السياسة تعطيل كل تقدم طبيعى فى ممالكنا دون أن يكون لها أثر حاسم فى القضاء على تجارة الرقيق .

«أليس من الأفضل اذن أن نتخلص من النظام الخيالى العتيق والمبادىء الانسانية المشطة وأن نوجد فى هذه البلاد المنتجة ادارة تطابقها وتناسبها لترقية مواردها واجابة مطالبها وحاجاتها ؟» .

(انظر مذكرات امين باشا فى سنة ١٨٧٦ صفحات ١١٣ ــ ١١٨ و١٢٣ من كتاب Emin Pasha In Central Africa. Annotated by Prof. G. Schweinfurth, Prof. Ratzel. C. Felkin and C. Hartlaub. London, 1881

كان امتيزا فى أواخر سنى حكمه منح العرب حرية التسوطن فى مملكته لا كتجار فحسب بل كأساتذة دينيين ، وقد اعتنق أخوه أمبوحا الاسلام .

وكانت انجلترا تفكر فى ذلك الوقت فى تنفيذ مشروع سنة ١٨٧٥ المصرى الخاص بايجاد مواصلات بين الساحل ومنابع النيل ونشر نفوذها فى هذه الأرجاء .

كان غردون ، اذ كان حاكما لخط الاستواء ، يرى أن أخصب مناطق البحيرات تمتد جنوب غوندوكورو وأن الأراضى فى شمال غوندوكورو لغاية الخرطوم مغطاة بمستنقعات غير صحية وأنها بسبب طقسها لا رجية فيها ، فكان المنفذ الطبيعى لمناطق البحيرات التى تربطها بالشمال خطوط مواصلات صعبة وطويلة هو من ناحية الشرق صوب المحيط الهندى .

ولا شك أن انجلترا بضمها الى أوغندة الأراضى الواقعة جنوب غوندوكورو ضمنت لنفسها امتلاك الهضاب والوديان الخصبة أى أهم قسم فى السودان الجنوبى . ولم تكتف انجلترا باقتطاع أكبر حصة لها بل انها تنازلت للكونغو عن بلاد مكراكا ونيام نيام الغنية فى غرب النيل على حساب مصر متبعة نفس السياسة التى جرت عليها ازاء الممتلكات المصرية فى البحر الأحمر وبلاد السومال .

وقد كان مشروع وصل الساحل ببحيرة فكتوريا بالسكة الحديد موضوع دراسات طويلة منذ سنة ١٨٨٥ . وتم تأسيس شركة أفريقيا الشرقية الانجليزية برياسة وليام ماكينون ومنحت الامتيازات اللازمة. فكانت أراضى الساحل التابعة لزنجبار ومديرية خط الاستواء القواعد الأولية التى تصلح أن تكون أساسا للامبراطورية الانجليزية الجديدة

فى أواسط أفريقيا . ومن هنا كان لابد من «اخلاء» المديرية الاستوائية والعمل على « انقاذ » أمين باشا (الدكتور اشنيتزر) حاكم المديرية .

كان غردون عين أمينا ، فى سنة ١٨٧٨ ، حاكما عاما للمديرية ، وهو يهودى ألمانى يزاول الطب والعلوم النباتية . وكان أشد العناصر اعتدالا فى الحكومة الأوربية المختلطة التى استثارت السودان[1] . وكان جيسى باشا الطليانى ولى غردون الحميم أشدها تطرفا . ولا تزال حروبه الشعواء فى سنة ١٨٧٩ وقتله سليمان بن الزبير ماثلة فى الأذهان . وقد استحضر جيسى فى أواخر هذه السنة عينها الى السودان ، ايطاليا آخر ، كازاتى ، الذى ظل مع أمين منذ ابتداء الثورة لغاية مجىء استانلى سنة ١٨٨٩ .

ويلاحظ أن كتابات جيسى وكازاتى تنضح بكراهية العرب . وقد أرسل كازاتى ، فى أواخر أغسطس سنة ١٨٨٣ ، الى جريدة المكتشف Esploratore عيلان كتابا يصف فيه أحوال السود فى الممتلكات المصرية ، جاء فيه :

«يجب أن تفصل تماما البلاد السوداء (بلاد الزنوج) من البلاد العربية أو التى يهيمن عليها العرب ، وأن نجمع تحت ادارة مستقلة موحدة أراضى بحر الغزال ومديرية خط الاستواء وأن نوجد بهذه الطريقة حدودا سليمة ترسمها الطبيعة نفسها ، وأن نثبت للزنوج ، الذين هم فى ريب مما نقول ، ان الحكومة مهتمة بأمرهم .

«ان العرب المتفرقين فى البلاد ، بدون مأوى وبدون أى اندماج مع العنصر المحلى ليسوا الا لصوصا أو شحاذين . فيحتم ارجاعهم جميعا الى بلادهم الأصلية وقطع كل أمل عندهم فى العودة . ومتى تمت عملية التطهير هذه — لأن العربى دائما خطر وكثيرا ما يكون أداة تدمير وافناء — وجدت المنطقة الجديدة فى الحال نقطة توازنها واستقامت

(١) The Revolt against Europeanized Egyptian Rule which broke out in 1881-83 (Harry Johnston, Africa. p. 653).

آمورها : ان حكومة السودان قائمة على العنصر العربى الذى يفصل بينه وبين العنصر الوطنى اختلاف اللغة والجنس والميول والعادات[1] » .

لم ير جيسى وصنيعته كازاتى فى العرب أى النوبيين أو الدناقلة الا لصوصا أو قطاع طريق وقد خبر جونكر صديق جيسى أحوال بلاد السودان الجنوبية ودرسها من كثب . قال فى أثناء رحلته الثانية بعد

---

(1) Casati. Dix Années En Equatoria

من الغريب أنه فى نفس السنة (مارس سنة ١٨٨٣) أبدى أمين باشا نفس الآراء فى صورة مختلفة قال : «من السخف التفكير فى الغاء تجارة الرقيق فى السودان بانشاء مصلحة خاصة بذلك فى الخرطوم وفروع لها.

«وقد كان اسماعيل يريد باخلاص تحقيق هذه الفكرة الانسانية فى قلب أفريقيا ، ولكن الوسيلة الوحيدة ، فى اعتقادى ، للنجاح هى ضم أقطار الزنوج فى اتحاد واحد ـ بحر الغزال ومديريات خط الاستواء ـ وفصلها فصلا تاما عن أجزاء السودان العربية . ويجب أن يعين لها بعد ذلك حاكم أوروبى كفء» . Emin Pasha In Central Africa. p. 425

وقد كان جيسى يعمل على تحقيق ذلك الهدف فى سنتى ١٨٧٨ و ١٨٧٩ فى مديريات السودان الجنوبية (بحر الغزال ، دارفور ، كردفان)

كتب جيسى فى مجلة Esploratore الايطالية ، بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، بمناسبة فشل البعثة الانجليزية التبشيرية (الدكتور فلكن والدكتور ولسن) وعودتها من أوغندة : « أن الوسيلة الوحيدة لتنصير هذه الممالك ، فى اعتقادى ، هى الاستعمار على نطاق واسع . اذ بهذه الطريقة يمكن التغلب على الاسلام وكسر شوكته » .

واقترح أمين بعد ذلك مد خطوط حديد دولية داخل افريقيا برؤوس أموال أوربية كوسيلة مؤكدة للتوغل والسيطرة : « وعندئذ فقط تصيب دين محمد الضربة القاضية » .

وفى ٤ ديسمبر سنة ١٨٧٩ كتب جيسى : « انى أرغب فى الذهاب الى الخرطوم ولكنى لن أستطيع ذلك قبل طرد جميع العرب واخراجهم من هذه الديار » .

وفى سنة ١٨٨٠ كان جيسى يقول : « انهم (العرب) يتهموننى بأننى أعمل على اقصاء العنصر العربى ونشر فكرة التحرر ، وتوظيف الوطنيين فى الادارة ، والقيام باستعدادات حربية كبيرة ، ومساعدة هذه المناطق على تحقيق استقلالها يوما ما » (Seven Years In The Soudan, by Romolo Gessi Pasha, London, 1892)

والواقع ان جيسى كان يعمل بسياسته الخرقاء على نشر عوامل الفتنة والخراب فى السودان الجنوبى وفصله عن مصر . وحسبنا أن نذكر =

تركه ديم سليمان « الذى يعد أهم المنشئات العربية فى بلاد الزنوج » لزيارة الأمير اندورومة الزنجى Andorouma : « بعد انتصار جيسى على سليمان أظهر زعماء وأمراء مملكة نيام نيام البعيدون روح المودة فى كل مكان وكانوا يرسلون طوعا واختيارا الرسل والعاج الى الحاكم الجديد ، بل كانوا يحضرون بأشخاصهم فى المحطات لاعلان حسن استعدادهم . ولكن هذا العمل من جانب الحكام الذين حررهم جيسى من ربقة ظالميهم (العرب) قد حمل جيسى على كثرة الاعتداد بالنفس والقيام بأعمال لاتنم عن صدق النظر وخصوصا اخلاء سبيل الجنود الزنوج الكثيرين الذين

= اعترافه بأن « تدمير تجارة الرقيق » كان يكلف مدينة الخرطوم سنويا خسارة لاتقل عن ٢,٨٠٠,٠٠٠ ريال . وطبعا كان ذلك التدمير يشمل التجارة كلها بصفة عامة لأن الحروب واجراءات العنف وضروب المضايقات والمصادرات والبطش كانت تشل الحركة التجارية وتنشر الاستياء والفوضى .

وقد كان غردون لايجهل أن الغاء تجارة الرقيق معناه القضاء فى الوقت نفسه على التجارة المشروعة وكل تجارة . وقد كان سلطان زنجبار ، فى أبريل سنة ١٨٧٦ ، بناء على الحاح الدكتور كيرك قنصل انجلترا ، حرم فى جميع البلاد الواقعة تحت سيادته ، تجارة الرقيق التى كان يزاولها القوافل الآتية من أواسط افريقيا الى الساحل . فلما علم ذلك غردون صرح بأن التجارة المشروعة سيقضى عليها ايضا اذ كان من المستحيل الفصل بينها وبين تجارة الرقيق ، ولذلك اتجه تفكيره وقتئذ الى اجتذاب تجارة البحيرات الى مديرية خط الاستواء والخرطوم وذلك بقصر سياسة الاحتكار على العاج المحصل فى الأراضى المصرية أما عاج البلاد الأخرى فيكتفى بفرض ضريبة عليه نظير رسوم الدخل وتكاليف النقل ، ولكن احتكار العاج ، ولو بصفة جزئية محدودة ، لم يكن من شأنه تيسير تنفيذ الفكرة الجديدة وذلك بصرف النظر عن العوامل الأخرى المرتبطة بسياسة غردون العامة فى الأقاليم الاستوائية واذا كانت التجارة المشروعة قد اختفت فى المناطق المصرية من جراء سياسة غردون فمن الصعب اجتذاب تجارة البلاد الأخرى المشروعة الى هذه المناطق لأن العوامل التى أدت الى شل هذه التجارة واحدة فى البلادين . وفى أوائل يناير سنة ١٨٧٦ صرح الخديوى اسماعيل للمالى الانجليزى كيف Cave أن صادرات السودان نقص ثلثاها بسبب اختفاء التجارة المشروعة « التى كانت تسير جنبا لجنب مع تجارة الرقيق » .

كانوا فى خدمة سليمان والعرب . وقد صرح لى فى ذلك الوقت مرارا عن وثوقه بعدم الحاجة الى تسليحات كبيرة مطلقا فى مديريته (بحر الغزال) بعد انتهائه قدر المستطاع من طرد العنصر العـــربى . وكان يؤكد أن الزنوج لن يتحولوا عن اظهار ولائهم وانهم عند الحاجة يقبلون الخدمة العسكرية ... على أن جيسى لم يكتف بتسريح العبيد الذين احتموا به والذين كانوا من قبل خدم النوبيين بل سرح أيضا طائفة من الشبان العبيد الذين خدموا فى الحرب ورغبوا فى العودة الى منازلهم . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك وأذن للكثيرين من أولئك بالاحتفاظ بأسلحتهم . وقد انتهز أغلب الجنود المسرحين الفرصـــة لا للعودة الى منازلهم بل للعبث والانضواء تحت راية بعض صغار الزعماء لأغراض غير مشروعة . وقد أمكننى حديثا أن أشاهد بنفسى فى داخلية البلاد أمثلة كثيرة من تبجح أولئك الوطنيين المسرحين وتماديهم فى غيهم .

وعلى أية حال قد تمكن جيسى مؤقتا من اكتساب صداقة الزنوج وحكامهم . وقد سلم جزءا من الأسلحة التى أخذت من سليمان الى الكثيرين من كبار زعماء قبائل الزاندة مثل زعيو وسازا واندورومة وآخرين ، وكان يرمى بذلك الى تقويتهم ضد منافسيهم ومساعدتهم على اخضاع القبائل العاصية والقيام بغارات مسلحة لانتهاب العاج وتقديمه للحكومة فى محطات بحر الغزال . وبالجملة كانت خطته ترمى الى الاقلال الى أقصى حد من الحملات التى كانت تنظم من قبل فى هذه المحطات وترسل بقيادة النوبيين لأعمال النهب فى الأراضى الجنوبية . وقد أوصى جيسى زعماء الزنوج الذين سلحهم لجلب العـــاج أن يتجنبوا اقتناص العبيـــد فى غزواتهم ! على أن الكثيرين من قواد الزرائب القدماء وهم عرب من أيام سليمان أو أبيه الزبير ، كانوا يتوقعون هزيمة سليمان فظلوا على الحياد وقد سمح لهم أن يبقوا كمديرين فى مراكزهم فى المناطق الغربية البعيدة : من أولئك رافاى Rafai وعبد الله وعلى كوبو وآخرون . وقد كان

ذلك دليلا على أنه ليس فى استطاعة جيسى ولا أى حاكم آخر أن يستغنى عن العرب والعناصر الاسلامية فى ادارة بلاد الزنوج .

« ولاشك أن تسريح الفرق السوداء ورفت التراجمة وخصوصا اعطاء الأسلحة لأقل زعماء الدنكا شأنا كان أمرا سابقا لأوانه ولا مسوغ له . واننى لن أذهب الى حد القول أن ثورة الدنكا الجامحة التى حدثت فيما بعد فى عهد ليبتون بك كانت وليدة هذه السياسة الخاطئة . ولكن مما لاريب فيه أن نجاح الدنكا قد سهله ذلك الامتياز [1] . واننى أعلن هنا اننى لا أسلم بمبدأ جيسى الأساسى القائل بأن العـــرب هم الذين أوجدوا تجارة الرقيق كلها وانهم أكبر مروجيها .

« ولما كان جيسى يريد الغاء هــذه التجارة فى مديريته كان من المخاطرة — وهذا أقل ما يقال — منح الحكام الوطنيين من أصحاب الحظوة والجاه حق تنظيم حملات بعيدة كانت فى الواقع — بسبب عدم وجود القيود المناسبة — غارات نهب وسلب . وقد رافقت بنفسى فيما بعد بعض هذه التجريدات ولذلك فى استطاعتى أن أشهد وأقرر أن جميع الزنوج ، فى استعمال السلطة الموكولة اليهم ، أشد استهتارا من العرب السودانيين الذين لا ينتمون الى « طبقة » عالية ... وهم أشد قسوة منهم ولايعرفون الا قانون القوة [2] » .

ظاهر مماتقدم أن العنصر الأسود أو المحلى قد انطبع بطابع العنصر العربى واندمج فيه فى السودان الشمالى وفى دارفور وكردفان وان عملية « الاندماج » كانت تسير سيرا حثيثا من النيل الأبيض نحو بحر الغزال

---

(١) قبائل الدنكا والشيلوك تعيش حول البحر الأبيض ومنها كانت تتألف معظم الفرق السودانية فى الجيش المصرى ، وكانت مساحة أراضى الدنكا — وهم زنوج وثنيون — تبلغ ٦٠,٠٠٠ ميل مربع . وقد ثارت الدنكا سنة ١٨٨٣ وتمكن ليبتون من اخمادها جزئيا ..

(٢) النقط نحن وضعناها اشارة الى النصوص المحذوفة . انظر الطبعة الانجليزية من رحلات جونكر . الجزء الثانى (٩٧ — ١٠٠) .

والبحيرات وكان خير العناصر العربية تنزل جنوبا نحو ممالك البحيرات مع الراية المصرية أو تأتى من الشرق ، من زنجبار والساحل ، باسم التجارة . وكانت محاربة تجارة الرقيق من ناحية وسياسة التبشير والاستعمار هما سلاح أوروبا الوحيد لمحاربة النفوذ العربى الاسلامى فى أفريقيا .

وكان كازاتى كغيره يخشى أن يتم مع الزمن اندماج عناصر الزنوج المنتشرة فى الممالك الاستوائية فى العنصر العربى ، لذلك كان يقترح ارسال بعثات مسيحية فى مديريات الجنوب . وقد نجحت انجترا باحتلالها أوغندة من القضاء على النفوذ العربى وتشريده حول البحيرات وباحتلالها السودان من التضييق على الحضارة العربية المستأصلة فى السودان الشمالى ، وقد بدأت منذ سنوات تعمل على تحقيق فكرة أمين وكازاتى وجيسى بفصل جنوب السودان عن شماله وتنظيم التبشير بين زنوجه .

ويجب أن يلاحظ أن أمين وكازاتى كانا ينتقدان سياسة محاربة الرقيق التى اتبعها غردون . ولكن كازاتى لم يجاهر برأيه الا فى سنة ١٨٨٣ ، أى بعد قيام الثورة — هذه الثورة التى كان غردون يقول انه باض البيضة التى خرجت منها — قال كازاتى : « ان غردون ترك السودان فى حالة اضطراب سياسى تتضارب فيه مصالح متباينة تهدد كيانه . وقد أهرقت الدماء عبثا ، وأدت الوسائل المتطرفة الى تسميم الجو وتهيئته لظهور المهدى ودعوته » .

وقد كان خطر المهدية الزاحفة يهدد مديرية خط الاستواء بعد ما تحولت القوة الروحية الى قوة مادية فى عدة وعديد . وكان أمين ضعيف الخلق مذبذب الرأى كثير التردد لا يفكر الا فى النجاة بنفسه مع الأوربيين من طريق البحيرات الجنوبى ولو ساقه ذلك الى التضحية برجاله .

وبلغ استهتار أمين بأرواح جنوده وأعوانه من السودانيين والمصريين ، وبالتالى بمصالح مصر ، أنه نطق فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٤ — فى ذلك اليوم المنحوس على حد تعبير كازاتى — بكلمة لم تنس قط وكان لها أثرها فى الحوادث الانقلابية التى ظهرت فى مديرية خط الاستواء ، قال : « ان البيض لا خوف عليهم . وانى ضمين لهم بذلك . أما الجنود السود فانى سأتركهم الى صديقى الحيم كاباريجا ، ملك الأونيورو ، وسيأذن لنا بالمرور من أرضه » .

من ذلك اليوم فقد أمين كل سلطان على جنوده الذين أصبحوا يجدون خلاصهم الوحيد فى قوة السلاح فوضعوا البلاد فى قبضة يدهم . وقد بدأوا باخلاء المراكز الشمالية : رومبك وأياك وبوفى . ومراكز مونبوتو والشرق بينما أخذوا فى تحصين أمادى ولادو وتركيز القيادة فى دوفيلة على بعد ١٠٠ ميل من بحيرة ألبيرت .

وقد شاع ، فى أواخر سنة ١٨٨٤ ، أن قوات كبيرة يقودها كرم الله شخصيا كانت تقصد أمادى التى تبعد خمسة أيام من لادو . وفعلا ، فى شهر مارس سنة ١٨٨٥ ، بعد حصار منظم ، اضطرت الحاميـة نظرا لانقطاع كل مورد عنها وصعوبة المقاومة ضد قوات العدو الهائلة ، الى شق طريقها فى صفوف العدو والانسحاب الى مكراكا . وقد أثخن المهديون فيهم القتل وكانت مجزرة شملت النساء والأطفال ، وكان حاكم المدينة مرجان الدناصورى بين القتلى .

كتب أمين بهذه المناسبة الى المبشر فيلكن : « ظل أولئك الجنود زمنا طويلا لايتقاضون مرتباتهم ولايجدون أهم الضرورات ومع ذلك فانهم قاتلوا قتال الشجعان حتى اذا نال منهم الجوع وأنهكت قواهم الآلام وضروب الحرمان طوال تسعة عشر يوما وأكلوا آخر قطعة من

الجلد وآخر حذاء فتحوا ثغرة فى خطوط العدو ونجوا بأنفسهم [1] » .

وقد طلب كرم الله الى حاكم لادو التسليم قبل أن يتحرك الى المدينة . فما كان من أمين الا أن أسرع نحو الجنوب فوصل فى يونية (٨٥) دوفيلة وفى يولية وادلاى ، وكان هذا الهرب سببا فى فقدان كل ثقة فى أمين وعدم التعويل عليه . وقد قر رأى الجنود وضباطهم على الدفاع عن لادو ولكن كرم الله وعصائبه عادوا أدراجهم من طريق كردفان وزال الخطر مؤقتا عن مراكز أعالى النيل .

وكان جيش المديرية فى ذلك الوقت يبلغ حوالى ١٥٠٠ رجل كلهم من الجنود السود ما خلا الجنود المصريين القائمين بالمدفعية .

وكانت القوات موزعة فى عشرة مراكز يتولى قيادتها عشرة ضباط من المصريين وخمسة عشر من السودانيين .

وكان فى النيل سفينتان بخاريتان « نياسا » و « الخديوى » تساعدان على الدفاع وتكفلان المواصلات بين المراكز المختلفة .

كتب كازاتى يقــول : « اذا كان الموقف لا يزال سليما واذا كان الشرف لم يمس ، واذا كانت مديرية خط الاستواء فى مأمن اليوم من فظائع أشد هولا فان الفضل فى ذلك يرجع الى عزة النفس الغريزية عند السودانيين التى تحملهم على الدفاع عن راية أجنبية للكثيرين منهم حلفوا يمين الولاء لها » .

وسنرى كيف يدافعون عن هذه الراية التى لم تكن أجنبية لأحد رغما من جميع المحن .

فى أواخر فبراير سنة ١٨٨٦ وصل كتاب من نوبار يدعو فيه الى اخلاء مديرية خط الاستواء والعودة الى مصر من طريق زنجبار . وقد

---

(١) استشهد به فوتيرز فى كتابه Wauters Stanley, Au Secours d'Emin Pacha

أعلن رئيس الوزارة المصرية أن الحكومة قدتخلت نهائيا عن ممتلكاتها فى السودان منذ آخر مايو سنة ١٨٨٥ . ووصلت فى الوقت نفسه رسالة من جون كيرك ، قنصل انجلترا فى زنجبار ، يبين فيها سبل ووسائل العودة . فقرر أمين ارسال كازاتى (مايو ٨٦) الى صديقه كاباريجا ليكفل حرية المرور من الأنيورو ، ولكن السودانيين أجمعوا أمرهم على البقاء .

وبينما كان كازاتى يعانى كل عنت عند كاباريجا الذى ألقاه فى السجن استولى الضباط السودانيون والمصريون فى سنتى ٨٦ و ٨٧ على سلطات الحاكم العام واستقر رأيهم على الاحتفاظ بالمديرية .

٢ — حملة استانلى والثورة فى مديرية خط الاستواء

عرفت انجلترا أن مساعيها لم تفلح فى التغلب على تردد أمين وحمل رجاله على العودة ففكرت فى وسائل أخرى لتحقيق أغراضها .

كان الرحالة الروسى الألمانى جونكر وصل فى هذه الآونة (٤ ديسمبر سنة ١٨٨٦) زنجبار قادما من داخل أفريقيا . فاتصل به جون كيرك وأوعز اليه أن يرسل ، بتاريخ ٢٠ ديسمبر ، برقية الى أوروبا ، ينادى فيها بضرورة التعجيل بارسال حملة فى الحال لانقاذ أمين باشا .

وكانت ألمانيا فى ذلك الوقت هيمنت على قسم من الساحل تمهيدا للتوغل فى أفريقيا وتنفيذ سياستها الاستعمارية ، وكانت تفكر بالطبع فى الاستيلاء على مديرية خط الاستواء التى كان يحكمها ألمانى . ولكن انجلترا بالطبع كانت أسبق الى « انقاذ » أمين .

ومن الغريب أن الدكتــور فيلكن نشر فى التيمس (٩ ديسمبر سنة ١٨٨٦) مقالا ذكر فيه صورة خطاب وصله من أمين مؤرخ فى ٧ يولية ، جاء فيــه : « يسعدنى أن يكون فى استطاعتى ابلاغك اننى فى أمن وطمأنينة وان المديريات كلها هادئة » .

ثم يقول أمين : « فى هذه اللحظة التى تتنافس الدول الأوربية فيها على ضمان ممتلكات لها فى أفريقيا . أحقا أنه لا يوجـد الآن فى انجلترا شخص يفهم بذكائه بأية سهولة يمكن اليوم ، بدون انفاق درهم واحد ، الاستيلاء على مديرية بحالها [1] ؟ » .

روى شايبه لونج الأمريكى أنه فى الساعة التى قرأ فيها استانلى هذه السطور كان يحاضر فى الولايات المتحدة فبادر بنقض العقد وأبحر فى الحال بناء على طلب ماكينون رئيس شركة أفريقيا الشرقية التى اكتتبت بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه للحملة . وأعجب من ذلك أرغمت مصر على الاكتتاب ، على دفعتين ، بمبلغ ٢٠,٠٠٠ جنيه وعلى اعطاء استانلى فرقة من الجنود السودانية . وكلف جون كيرك فى الوقت نفسه بتجنيد بضع مئات من الجنود والحمالين . وقر الرأى على طريق الكونغو الذى كان اكتشفه استانلى سنة ١٨٧٨ .

فى يناير ٨٧ غادرت الحملة لندرة ومرت بالقاهرة فى طريقها الى زنجبار حيث تكونت نهائيا من ٧٠٩ رهط مقسمة الى سبع فرق : ٩ أوربيين و ٦٣ سودانى و ١٤ سومالى و ٦٢٣ زنجبارى ، وكان يرافق الحملة العربى الشهير (تيبو — تيب) ومعه ٩٠ رهطا من الجنسين ، فيكون المجموع حوالى ٨٠٠ نفس [2] .

وفى ٢٤ فبراير تحركت السفينة من زنجبار ومرت بالكاب (رأس الرجاء) فى ٩ مارس ، وألقت مراسيها فى خليج بناناعند مصب الكونغو فى ١٨ منه .

وفى يناير سنة ٨٨ تقدم استانلى وبعض أعوانه تاركا الحملة الرئيسية وراءه وخف مسرعا الى جنوب بحيرة ألبيرت ونزل فى معسكر كافالى .

---

(١) استشهد به شايبه لونج فى كتابه L'Egypte Et Ses Provinces Perdues

(٢) تيبو ـ تيب واسـمه الحقيقى حامد بن محمد وهو زنجبارى من كبار تجار العرب فى أواسـط افريقيا وكان عظيم الدهاء قوى النفوذ استعان به البلجيكيون فى توطيد قدمهم فى الكونغو ثم حاولوا الغدر به .

وفى ٣٠ أبريل التقى مع أمين وكازاتى فى الجنوب الغربى من البحيرة وأثار مسألة العـودة : أيريد أمين اطاعة أوامر الخـديوى ووزيره نوبار باشا ؟ ولكن أمين لم يجد بدا من استشارة الموظفين والجنود فى مسألة بهذه الخطورة . فقرر استانلى أن يصطحب أحد ضباطه (جفسون) أمينا فى رحلته الاستشارية .

وقد استعمل استانلى كل وسائل الاقناع مع أمين لينحاز الى خطته التى وصفها كازاتى وصف شاهد عيان : « بينما كان يعرض تأجيل العودة الى حين الانتهاء من حشد جميع قواته المتفرقة كان استانلى يغذى آمال الحاكم وأمانيه : فبعد أن استنفد كل بيانه فى التدليل على استحالة مقاومة المهدية التى تزداد وطأتها مع الزمن عرض عليه يوما أن يثبته فى الزاوية الشمالية الشرقية من بحيرة فكتوريا نيانزا حتى تتمكن شركة أفريقيـا الشرقية الانجليزية من الانتفاع بتجاربه فى انشاء مراكز (محطات) على التوالى فى طريق مونباسة » .

وكان بديهيا أن يفكر استانلى فى الوقت نفسه فى احتياز جنـود أمين .

ومن الآن فصاعدا أخذت ألبيرت نيانزا تلعب دورا فى الحوادث المتعلقة بمديرية خط الاستواء ، وعلى ضفافها سيتم الحشد الذى يسبق الرحيل الى زنجبار .

غادر اســتانلى البحيرة فى مايو ســنة ٨٨ ولم يرجع الا فى يناير من السنة التالية (٨٩) . وقد كانت فى خلال هذه الأشهر الثمانية مديرية خط الاستواء ميدانا لحوادث خطيرة غير منتظرة .

ذكر كازاتى [١] وجفســون [٢] بالتفصــيل تاريخ هــذه الأيام

---

(١) Casati, Dix Années En Equatoria

(٢) Jephson, Emin Pasha And The Rebellion At The Equator

الحافلة . ويحسب جفسون ان أغلبية أولئك السودانيين (لعله يقصد الجنود) جندوا من قبائل الدنكا ومادى وبورى والشيفالى ونيام نيام وبونجو ومكراكا ومونبوتو . فهم وعشيرتهم وذووهم لا يحسون أنهم غرباء فى هـذا البلد الذى يستطيعون العيش فيـه لأنه يشبه بلادهم الى حد كبير ويذكرهم بعقر دارهم .

وكان هذا السواد — أو شعب خط الاستـواء كما يسمونه فى انجلترا — يتكلم باحترام عن أفندينا : « قيل لهم انه سلطانهم وان العلم الذى كان يطيب لهم أن يروه خفاقا فى كل مناسبة هو علمه » .

وكانت المحطات (النقط العسكرية) فى أحسن ترتيب . كانت مراكز نظام وحضـارة ، فان دوفيلة مثلا كان بها جامع ومدارس وحدائق عمومية . وكان من الميسور الاعجاب بمنظر النهر من طريق يظلل سماءه من جانبيه شجر دواح . وكان الجامع والمدارس مشيدة بالآجر الجميل . وكان يقوم بأمر الجامع والمدارس شيخ مرسل من القاهرة يعلم أبنـاء الموظفين القراءة والكتابة . وكان رجل القانون فى المدينة ومرشدها الروحانى .

ظاهر مما تقـدم أن النظام الذى أنشـأه المصريون — وأعانهم السودانيون فيه — فى قلب مديرية خط الاستواء الواسعة قد وشجت عروقه فى بطن الأرض وأن أربابه من زنوج وسودانيين ومصريين لم يكن من السهل عليهم أن يتخلوا عنه . وظاهر أنهم كانوا فى ريب من نيات أمين واستانلى والانجليز من ورائهما . روى كازاتى : « أنهم يرددون فى كل مكان ، فى تونجورو وغيرها ، ان الطريق وعر (طريق العودة) ، محفوف بالمكاره للأطفال ، لا زاد فيه ولا طعام . وانهم لا يبعد أن يباعوا بيع السوام للانجليز الذى هم صديق صدق لأمين .

وهذه الأقوال تنتشر من محطة الى أخرى ويعلق عليها ...

والآن نترك كازاتى يقص قصته (أغسطس — أكتوبر سنة ٨٨) مجتزئين بنشر أهم الوقائع :

« ما كاد أمين يرحل حتى جمع قومندان تونجورو المدعو سليمان أغا — وهو نوبى من عبيد البقارة — جنوده وجميع موظفيه المدنيين وأخذ يحثهم على المقاومة ..

« وقد أرسل الكتب تلو الكتب الى مواطنه فضل المولى قومندان فاتيكو ليساعده بقوة فى سبيل انقاذ المديرية من الخراب الذى يجره الباشا (أمين) وان يتزعم الحركة فى محطات الشمال على أن يتكفل هو بنونجورو وامصوا ووادلاى . وقد كان لتلك الاقتراحات صدى بين المتذمرين وبدأت الحركة والاتصالات بين الشمال والجنوب .

« وقد أصدر أمين أمره بشحن جميع الذخائر الموجودة فى المخازن الى دوفيلة فعارض الجنود وتوجسوا خيفة من المستقبل لأنهم تبينوا أنهم أصبحوا غير أحرار فى أنفسهم وان رفضهم الاذعان للأوامر معناه تركهم هم وأسرهم تحت رحمة السكان المحليين والعدو الخارجى .

« أما خطاب ستانلى والتحقيق الذى يقوم به جفسون فماهما فى نظرهم الا خدعة زائفة ... فلم يكن بد من التفكير فى الدفاع عن أنفسهم ودرء الخيانة .

« وانقطعت الأخبار عن رجاف وبيدن وكيرى ولم ترد الا رسائل قليلة من لابوريه غفل عنها الرقباء . وبعد الانتظار بدون جدوى خمسة عشر يوما بين القلق والشك قــرر المدير أن يعود أدراجــه . وفى ١٣ أغسطس (سنة ٨٨) جمعت الحامية فى ميدان قرية لابوريه وتلا عليها جفسون خطاب استانلى الذى ترجمه الى العربية الباشا المدير ، وطلب اليهم أن يعلنوا رأيهم فحدثت ضوضاء ولكن لم يجرؤ أحد على التكلم . ثم ما لبث أحد الجنود أن اخترق الصفوف شاكيا سلاحه وأعلن للحاكم

غير مكترث أنهم يفكرون فعلا فى الرحيل ولكن بعد الحصاد . فقال جفسون : نريد ردا حاسما ونمهلكم الى الغد . فانحمق الجندى وصاح قائلا : انكم تهينوننا وتكذبون علينا لأن الخديوى يأمر ولا يرجو . ولو كان الأمر صادرا منه لكفل « انقاذ » الجميع ولم يترك كل واحد منا يفعل ما يشاء .

وفى صبيحة اليوم التالى ذهب أمين الى خور أيو . فوصلته هناك رسالة من صاغ دوفيلة ينبئه فيها بتحرج الأمور فى المديرية ثم رسالة ثانية يدعوه الى العودة عاجلا منعا لارتباك جـديد . فلم يسع أمينا وجفسون وفيتا حسان الا المبادرة فى ١٩ أغسطس (سنة ٨٨) بدخول دوفيلة من الباب الشمالى . ولكن لم يتقدم أحد للقائهم وكانت الشوارع موحشة لا أنيس بها والمدينة يخيم عليها صمت رهيب كأنها جبانة . ولكنهم ما عتموا أن دخلوا بيوتهم حتى ظهر فجأة نفر من الجند حراسا على مداخلها . وأصبح أمين وحسان سجينين ، أما جفسون فهو ضيف لا يمس بسوء .

وقبل ذلك بأيام قلائل كان فضل المولى ، ومعه اليوزباشى أحمد دنكاوى ، غادر فابو على رأس سبعين رجلا واستولى على دوفيلة بغير قتال وسجن الصاغ وأعلن تحرير المديرية التى عرضها المدير للخطـر بدسائسه وسوء ادارته . وأنشئت فى الحال حكومة مؤقته .

« وقد تطأطأ أمين لما حدث صاغرا .

وفى ٩ سبتمبر ، حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ألقت « الخديوى » مراسيها أمام تونجورو . وبعد قليل دخل على فى بيتى جفسون وقص الوقائع المحزنة التى شاهدها .

« ومما ساعد على تسهيل مهمتى أمر صادر من حكومة دوفيلة المؤقتة الى قومندان تونجورو باظهار كل رعاية نحوى ونحو أسرتى ، وقـد

وجهت الى دعــوة للذهاب الى دوفيلة اذا كنت أريد اللحاق بالباشا وحضور مناقشات الجمعية العمومية التى ستجتمع فيها .

« استولى الوافدون الجــدد (فى تونجورو) على مخازن الذخيرة وقاموا بتفتيش دقيق فى مسكن فيتا حسان ، وكان يشوب سلوكهم بعض الغلظة والجفاء . وبلغ من تعسفهم أن عاملوا سليمان أغا معاملة المستريب فى أمره ، وهو الذى أشعل النار ... والمثل يقول من يزرع الريح يحصد العاصفة . وكانت اللجنة مؤلفة من ستة أعضاء ، ضباط وموظفين ، برياسة أحمد الدنكاوى . وجمعت هذه اللجنة الحامية كلها وشرحت لها تاريخ الحــركة الثورية وأهم أغراضها : تحرير المديرية وانتصار العدالة فى جميع الأراضى التابعة للخــديوى ... استحسان وتصفيق من الجميع .

« وفى يوم ١٣ تحركت اللجنة الى آمصوى ، وأمرت ، رغما من بعض اعتراضات قومندان المحطة ، بأن ينقل ثلاثون صــندوق « جبخانة » الى دوفيلة كان استانلى أودعها فى مخازن المحطة .

« وبعد أن أتمت اللجنة معاينة المخازن وتنظيم الادارة من جديدقصدت وادلاى التى أصبحت مقــر الحكومة وملاذ الكثيرين من الموظفين ، المصريين بنوع خاص والفارين من استبداد قومندانات المحطات النائية .

وقد نزلنا من المركب فى وادلاى ، فى يوم ١٨ ، وفى مساء اليوم ذاته اجتمع مجلس عام ، تتألف أغلبيته العظمى من الضباط والموظفين المصريين ، لبحث الطرق الكفيلة بنجاح الحركة الثورية واعداد برنامج للعرض على جمعية دوفيلة . وقــد انتهز المصريون الفرصــة ليمسكوا بأيديهم زمام الأمور ويمنعوا كل رأى معتدل من التسرب الى الحركة . وقد أعدوا ضد الحاكم (المدير) ورقة اتهام ظهرت فيها الأحن الشخصية .

وبعد ركوب البحر يومين قضيناهما فى صحبة فئة نشوانه خلعت العذار وصلنا دوفيلة . وذهب جفسون الى شقته وهى فى مسكن الباشا .

وقد دهش حين رآنى أذهب توا لمقابلة فضل المولى رئيس الحكومة المؤقتة الذى أذن لى بالمكث لدى أمين وحضور جلسات الجمعية التى ستتناقش فى مصائر المديرية .

ومما لاريب فيه أن الحزب العسكرى حين دبر هذه الحركة التى أحدثت تغييرات كبيرة فى سياسة ادارة مديرية خط الاستواء لم يكن يفكر فى قلب المدير مكتفيا بايجاد مجلس بجانبه ليشاركه فى المسؤولية . ولكن المصريين لم يقنعوا بهذا الحل وكانوا ذوى عدد فى وادلاى وقد استبانوا تفوقهم الذى كفتله معارفهم ، ونجحوا فى عمل تحقيق ادارى واتهام المدير والطبيب (الصيدلى فيتا حسان) والصاغ قائد الكتيبة الثانية .

وفى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٨ افتتحت فى دوفيلة الجمعية العمومية للنظر فى هذه المسائل المدرجة فى جلستها .

وفى صبيحة الغد اجتمع الأعضاء ومعهم ثلاثة من أساطين الولاجين الخراجين — الموظفان صبرى والطيب والضابط مصطفى أحمد — الذين يعضدهم على جابور . ونجحوا فى حمل الجمعية على توجيه الاتهام والموافقة على مشروع مرسوم بعزل أمين وفيتا حسان ووقف الصاغ .

وفى نفس اليوم أبلغ نص المرسوم الى أمين وكان موقعا من الحاكم الجديد ، والصاغ حامد الذى قررت الجمعية بالاجماع ترقيته الى رتبة قائمقام . وتقرر فى الوقت نفسه استمرار سجن الباشا والدكتور والصاغ . وقد نصحت أمين بأن يذعن ويسلم . وأخيرا تذكر الثوار أن استانلى قد يعود واتفقوا على اقصاء المساجين الثلاثة فى المحطات الشمالية حتى يجعلوا من المستحيل عليهم أى هرب .

وفى ٢٨ سبتمبر ، فى تباشير الصبح ، أبلغنى سرا الصاغ سليم مطر أن مجلسا من بعض الزعماء منعقد عند اليوزباشى فضل المولى .

وكان يرأس اللجنة المكلفة باجراء التحقيق فى ادارة أمين رئيس الحسابات الذى سبق عزله من وظيفته . فلا غرابة اذن أن يصدر قرارها باجراء تفتيش فى منزل الباشا والدكتور للبحث عن الوثائق والبضائع والذخيرة الضائعة .

« وبعد نصف ساعة من نزولنا من المركب فى وادلاى ، فى الخامس من أكتوبر ، أحاط الجند بمنزل أمين — الذى عينت وكيله — وبعد الفحص والتفتيش فى كل مكان . ترك لى أعضاء الوفد صورة محضر عليه امضاءاتهم .

« ومن ترنجورو ذهب الأعضاء الى آمصوى ولكن سرعان ما وصلتهم دعوة بالعودة عاجلا الى دوفيلة حيث وصلنا فى يوم ٣٠ .

« وكانت الأخبار التى سبقتنا اليها سيئة لأن ثلاث سفن بخارية آتية من الشمال ألقت مراسيها أمام (رجاف) وأنزلت جنودا هجموا على المحطة واستولوا على الحصن بعد مقاومة قصيرة من الحامية . وقد مات ثلاثة ضباط وثلاثة موظفين موتة أبطال فى الدفاع عن مدخل الحصن . وكانت مجزرة مملوءة بالفظائع أعمل المنتصرون فيها القتل فى الرجال والنساء والأطفال على السواء . وبعد أن أتموا ذلك العمل الحربى الرائع . أرسل العرب كتاب تهديد الى أمين حاكم مديرية خط الاستواء . وقد قص فيه عمر صالح ، قائد المهدى ، أعمال سيده الجليلة فى القتال وطلب التسليم .

« حمل ذلك الكتاب ثلاثة من الدراويش فانتشر الذعر بين الثوار وفى غروب شمس يوم ١٥ نوفمبر وصل نبأ نكبة جديدة : لقد هزم المهديون ، بالقرب من رجاف ، الجنود التى يقودها القائم مقام . واقترب الخطر منا بصورة رهيبة فقد الكل معها صوابهم . ولذلك لم يفكر أحد فى الاحتجاج حين تسلم فى الغد سليم مطر القيادة العليا . وكان أول ما عنى به البر بوعده : وفعلا عقد الضباط اجتماعا قرروا فيه نقل المساجين .

وفى صبيحة يوم ١٧ ، أديت تحية الشرف لأمين الذى صعد بين طلقات المدفع ، الى ظهر السفينة التى أقلتنا الى وادلاى » .

كان المهديون جاءوا من الخرطوم على ثلاث سفن بخارية وتسعة زوارق وبعد أخذ رجاف ، التى حاول المصريون عبثا استردادها ، وجعل مركز قيادتهم فيها ، احتلوا تباعا بيدن وكيرى وموجى ولابوريه وخور أيو .

وفى الخامس عشر من شهر نوفمبر (٨٨) تقدم المهديون الى مدينة دوفيلة وضربوا عليها الحصار أربعة أيام وكان يحميها ٥٠٠ رجل بقيادة سليم بك مطر . وقد سببت بطولة المدافعين خسائر فادحة فى صفوف المهديين فتصدعوا وولوا الأدبار . فساعدت هزيمتهم الماحقة على تدعيم مركز الحكومة الثورية .

كان سليم مطر يمثل العنصر المعتدل فى هذه الحكومة وكان فضل المولى الرئيس الفعلى للمعارضة المتطرفة . ولذلك كان حزب استانلى (كازاتى ، جفسون ومن اليهما) يعتمد على سليم فى وصل الحبال المقطوعة مع الحكومة الجديدة وتهيئة السبيل الى الاخلاء .

وصل فى أثناء ذلك استانلى الى البحيرة (١٦ يناير سنة ١٨٨٩) وأنشأ معسكره على هضبة تهيمن على السهل ، بالقرب من قرية الزعيم كافالى . وهناك علم من البريد المرسل من جفسون حالة المديرية ففكر فى « اختطاف » أمين أولا . يتضح ذلك من كتابه الى جفسون بتاريخ ١٨ يناير : « استعمل كل حيلتك ودهائك فى اقناع أمين وأحضره معك انى أريد انقاذه فاذا تردد من جديد وقعت فى حيرة وارتباك » .

وفى ٦ فبراير وصل جفسون الى كافالى . وفى الغد كتب استانلى الى أمين . وفى ١٦ أبلغ أمين استانلى أنه منذ اليوم السابق فى انصابه Nsabè ومعه السفينتان البخاريتان وطائفة أولى من الجند تريد مغادرة البلاد .

وفى الثامن عشر ترك أمين سفينته وتبعه كازاتى وفيتا حسان الصيدلى وسبعة ضباط بينهم سليم مطر وحواش منتصر مؤلفين وفدا مرسلا الى استانلى .

وفى ١٩ منه (فبراير ٨٩) وصلت من الداخل بقيادة استيرز ونلسون مؤخرة الجنود التى كان استانلى تركها قبل شهرين عند مازامبونى وكان أرسل اليها حديثا بريدا يأمرها فيه بالوصول الى كافالى عاجلا حتى يركز كل قواته ويستعد لمواجهة أى هجوم طارىء ..

وقد تقرر فى اجتماع تمهيدى عقد اجتماع عام فى اليوم التالى . وفى ذلك اليوم استقر الرأى على أن يخطر الجنود المتفرقون فى المحطات المختلفة هم وأسرهم بالاخلاء على أن يمنحوا مهلة كافية للتوجه الى معسكر الصابه على شاطىء البحيرة حيث يكون التجمع .

وفى يوم ٢٥ ، عادت السفينتان ثانية من انصابه وعليهما طائفة جديدة من اللاجئين . ووصلت أمين رسالة من وادلاى تنبئه أن الثوار عادوا الى التمرد ، فى غيبة سليم بك ، وانهم خلعوه وولوا بدله زعيما منهم .

رأى أمين أن آماله فى استعادة سلطته قد ضاعت كلها فترك معسكره وانتقل الى معسكر استانلى على الهضبة . وتقرر اعتبار شهر مهلة كافية للحاق الموالين برئيسهم وأن يكون الرحيل بعد ستة أسابيع أى فى ١٠ أبريل . وعندئذ غادر سليم والضباط كافالى لتهيئة أسباب الاخلاء .

وبعد ثلاثين يوما من سفر سليم ظهرت فى الألبيرت نيانزا سفينة بخارية تحمل خطابا لأمين من البيك وخطابا آخر من أحد الضبلط الثوار الى « مبعوث الحكومة المصرية الجليلة » يطلب الى استانلى السماح له بالتمكن من العودة الى مصر فى حراسته . وقد أحيط أمين علما أن سليم أرسل الى تونجورو دفعة أولى من اللاجئين وانه كان فى ذلك الوقت يشرف على عملية التخلى عن دوفيلة الى ولدلاى كنقطة تجمع .

بادر أمين بتبليغ استانلى هذه الأخبار « المشجعة » وأبان له ضرورة مهلة ثلاثة أشهر أخرى لتركيز جميع القوات حول كافالى . ثم طلب اتخاذ قرار فى هذا الشأن .

عندئذ تقرر استلاب أمين وأخذه بالقوة . وقد روى كازاتى هذا الحادث . قال :

« كان أمين لايدرى ما يصنع . كان شديد الرغبة من ناحية فى اطالة المسافة بينه وبين زعماء الثورة وكان من ناحية أخرى يأنف أشد الأنف من أن يسلم نفسه للانجليز مثقلا بالقيود والأغلال وأن يكون أشبه بغنيمة يزدان بها مهرجان انتصارهم .

«كان استانلى لا يستطيع صبرا . وفى صباح ٥ أبريل أعطى التعليمات المعتادة ثم قصد أمين : وبعد أن أخذ عليه عهدا بأن لا يبوح لأحد بما سيدور بينهما من حديث أبلغه بصوت قاطع أنه حدثت فى الليلة الماضية محاولة سرقة الأسلحة فى مساكن الزنجباريين .

— ثم أضاف قائلا : انها مؤامرات تحاك ضدى وضد الحملة . انى أعرف تماما أن الرد على قرار السفر الذى اتخذناه هو المقاومة .

— انى لا أفهم ما تعنى بما تقول . وانى أعتقد شخصيا أنه لا أحد يجرؤ على محاولة القيام بما خيل اليك .

— دعنا من اللف والدوران يا حضرة الباشا فليس ذلك من شيمتى . انى أعرض عليك حلين فاختر أيهما شئت الآن : لقد عقدت النية على تطويق المعسكر غدا صباحا بالزنجباريين واصدار الأمر بالرحيل فى الحال . وانى أحس فى نفسى القوة على استعمال أسلحتى اذا لقيت مقاومة . ثم سأسافر معك ومع من يريد من أتباعك . واذا كنت تستنكف من العنف فانى مستعد لترحيلك خفية فى حراسة أجناد يوثق بهم ثم ألحق بك بعد ساعات . ولك الخيار .

— من المستحيل أن أسلم باقتراحيك . ولن أناقش أولهما . أما الثانى فأنت تعلم أنه يتعذر على ترك كازاتى وفيتا وماركو .

— لا تفكر فى هؤلاء . فانى متى تمكنت من انشاء معسكر فى أحوال ملائمة عدت اليهم بنفسى وانتزعتهم بالقوة ، اذا دعت الحاجة ، من أيدى المصريين .

— ولكنى لاأرى الفائدة من استعمال وسائل كهذه عا أننا سنتحرك فى يوم ١٠ .

وهنا هاج استانلى وماج وتملكه الغضب وضرب الأرض برجله وصاح بصوت مختنق :

تعسا لكم Goddam وستقع تبعة الدم المهراق على رؤوسكم ! ثم انطلق الى الخارج وصفر بصفارته وذهب الى خيمته ورجع حاملا البندقية فى يده وظروف الذخيرة فى حزامه . واصطف الزنجباريون فى الميدان . وكان عدد منهم يحرس مداخل المعسكر . وقد قوضت الخيام وكومت أكواما صناديق الذخيرة والعفش .

« شاهدت هذا المنظر الخارق من عتبة مسكنى ورأيت هذا العرض العسكرى الغريب ، فاعتقدت لأول وهلة أنه استعدادا للسمر تقرر اجراء «مناورات» . . وعبثا أسأل المارة فلا مجيب وأخيرا أرسلت الجندى المكلف بخدمتى الى أمين فعاد ينهب الأرض قائلا ان الباشا يتأهب للرحيل فى الحال . فذهبت بدورى فوجدته أصفر اللون من الحنق والزمج ثم قال بصوت مرتجف :

— سنرحل . ولأول مرة فى حياتى صبت على الاهانة والسباب . لقد خرق استانلى كل مبادىء اللياقة .وقد وعدت بأن لا أتكلم ولذلك ألتزم الصمت .

وكان الباشا تحت سطوة الخوف . وكان يخشى أن ينفذ من آن لآخر الاقتراح الأول .

وقد جمع فى أثناء ذلك فى الميدان كل من كان حاضرا من رجال حكومة خط الاستواء — ضباطا وجنودا وموظفين وخدما — وكان القوم جميعا فى حالة زعج وقلق . لايرون فى كل هذا الهرج نذير خير . وكنت مع أمين آخر من وصلوا .

وصاح استانلى : — اذا كانت عندكم شجاعة فصوبوا الى صدرى بنادقكم فهأنذا وحيدا أمامكم بغير سلاح .

وقد بلغ هيجانه درجة نسى معها أنه يحمل سلاحا قويا فى يده وان مائة من الزنجباريين المسلحين واقفون وراءه وقفة متأهب للقتال .

— أنا وحدى الآمر الناهى هنا فمن شاء منكم أن يقاومنى قتلته بسلاحى هــذا ووطئته برجلى . فلينتح هــذه الناحية كل من يريد اتباعى منكم .

حــدثت فى أثر ذلك حركة كاملة متسقة أشــبه بحركة قطيــع من الشاه .

ومنذ ذلك اليوم كان المعسكر يبدو وكأنه فى حالة حصــار اذ ضوعفت نقط المراقبة والدوريات التى تمر طول الليل . وقــد حرم الخروج وكل من يخرج يؤخذ بمخنقه .

وقد دل الاحصاء على أن عدد الأشخاص التابعين للحملة ٣٥٠ ، منهم ٢٩٤ مزودين بالسلاح وان عدد القادمين من مديرية خط الاســتواء ٥٧٠ رهطا ليس معهم الا ٤٠ بندقية .

٣ — تكوين أوغندة الجديدة (١٨٩٠ — ١٨٩٨) .

كان انتزاع أمين أول تمهيد للسيطرة الانجليزية على أعالى النيل . وعلى أثر اتفاق أول يوليه سنة ١٨٩٠ الذى عقــد بين انجلترا وألمانيا

بخصوص مناطق النفوذ فى أفريقيا الشرقية تقرر ارسال لاجارد الى أوغندة لعمل معاهدة تكفل لانجلترا التسلط فى هذه البلاد .

وكان يصحب لاجارد ٥٠ جنديا سودانيا ، بقيادة شكرى أغا ، كلهم من بقايا الجيش الصغير الذى (أنقذه) استانلى . وقد نجح لاجارد فى سياسته التى تداول بين الوعد والوعيد من حمل موانجا على امضاء المعاهدة فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٩٠ .

وفى ٣١ يناير سنة ١٨٩١ وصل أغنده اليوزباشى ويليامز ليعمل تحت امرة لاجارد وكان معه ١٠٠ سواحلى (عرب الساحل) و ٧٥ سودانى جندوا فى مصر لحساب الشركة .

وقد برع لاجارد فى سياسة « فرق تسد » وتغلب على جميع الصعاب وانتصر على الحزبين الاسلامى والفرنسى اللذين كانا يزاعمان الحزب الانجليزى فى أوغندة . بل سلط مسلمين على الواغندة المسلمين وقهرهم .

وكان يمثل الحزب الانجليزى منذ سنة ١٨٧٧ مبشرون من الكنيسة الانجليزية . ثم انضم اليهم موظفو الشركة والحكومة الانجليزية فى حين أن الحزب الفرنسى كان لايمثله الا المبشرون الكاثوليك ، الآباء البيض ، الذين وصلوا أوغندة فى سنة ١٨٧٩ .

وقد كفل لاجارد بتحريم استيراد الأسلحة فى أوغنـدة استعلاء الحزب الانجليزى الحزبين الآخرين وأهالى أوغندة معا .

ولكن ضربة المعلم الحقيقية التى مهدت السبيل لسيطرة الانجليز على أوغندة والأنيورو ومناطق البحيرات كانت تجنيد القوات السودانية التابعة لمديرية خط الاستواء .

كتب جونستون يقول : « ان لاجارد هو الذى جلب القـوات السودانية الى أوغندة . وكان يتعذر فى ذلك العصر أن يلجأ لاجارد الى

وسيلة أخرى اذا أراد أن يوطد السلام بين الأحزاب المتنازعة ويثبت الرقابة البريطانية . ولم يكن يخطر على البال فى ذلك الوقت ارسال جنود من الهنود الى أوغندة وكان يستحيل أيضا العثور على جنود آخرين مدربين قادرين على احتمال الجو غرباء عن كل نفوذ فى أوغندة [1] » .

فى شهر ديسمبر (سنة ٩١) ذهب لاجارد ومعه طائفة من السودانيين الذين أتوا معه فى أوغندة وعسكر فى أعالى هضبة تشرف على بحيرة ألبيرت . وهناك اتصل فى الحال بسوداني خط الاستواء .

وكانت قد حدثت حول هذه البحرة حوادث منذ أن غادرها أمين (مايو ٨٩) الى أن وصل لاجارد (سبتمبر ٩١) :

فى ٨ مايو سنة ٨٩ غادر استانلى وحزبه مزامبونى . وفى المساء وصل البريد الى أمين منبئا بأن قلاقل جديدة فى وادلاى قد شلت كل مجهود لتنفيذ أوامر استانلى وأن فضل المولى بك قومندان وادلاى قد انحازت اليه معظم القوات فتوجه بها صوب التلال بعد أن استولى فى ظلمة الليل على المخازن والذخائر .

وكان سليم بك فى أثنــاء ذلك ذهب الى امصوا ، فى ٢٢ أبريل ، وهناك طلب ثانية الى استانلى أن يقف فى الطريق لينتظره فأبى . وبعد زمن هرب بعض الجنود من كتيبة استانلى ووصلوا الى كافالى حيث كشفوا لفصيلة سليم الصغيرة عن المكان الذى خبأ فيه استانلى الذخيرة ، (٣٥ صندوقا) .

بلغ نبأ هذا الاكتشاف فضل المولى بك بينما كان معسكرا فوق تلال فانزارى وآسى بين امصوا ووادلاى وكانت قواته فى هذه الآونة قد تضاعفت على أثر انضمام قوات ورفقاء سليم اليها . فأسرع بارسال ٣٨٠

(١) Harry Johnston. The Uganda Protectorate. 2 Vols (vol I. p. 237)

جنديا استولوا على ذخائر كافالى ومروا ، فى طريق عودتهم ، بامصوا حيث عاملوا سليم بك معاملة خشنة وسجنوه ولكن أطلق سراحه بعد ذلك بقليل فانسحب مع خلصائه الى كافالى ورفع الراية المصرية عليها . وكانت حاميته تتألف من ٩٠ رجلا — عدا ٣٠٠ امرأة وطفل — ولكن معارك طاحنة نشبت مع الوطنيين أفقدته ٥٠ منهم .

ثم تبين لفضل المولى بك استحالة الاحتفاظ بقوات كبيرة على التلال فعاد الى وادلاى . وهناك اتصل سرا بالدراويش الذين كانوا راسخين فى رجاف . وقد نصبوه أميرا وكان ينتظر قدومهم فى وادلاى ولكن حاميات هذه المدينة قررت حينئذ التخلى عن زعيمها والنزول للانضمام الى سليم بك فى كافالى . وقد غادرت وادلاى حوالى مارس سنة ١٨٩١ وقطعت المسافة بينها وبين كافالى فى أربعين يوما ، وكانت القوة مؤلفة من ٨٠٠ جندى وثيق السلاح وافر الذخيرة يتبعهم ١٠,٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والأطفال .

فى هذه الفترة بالذات (أبريل ٩١) ، قبل وصول جموع قوات وادلاى ، كان أمين باشا عاد من الساحل الى كافالى وبرفقته الدكتور الألمانى اشتولمان وقوة من الزنجباريين . وقد أبلغ أمين سليم بك أنه أصبح يشتغل فى خدمة الحكومة الألمانية وانه من الأفضل أن يضم قواته الى قوات أمين فى ظل الراية الألمانية .

أجاب سليم من فوره أنه رعية مصرية وأن رجاله جنود فى خدمة الحكومة المصرية فمن المستحيل والحالة هذه تحقيق طلب أمين . ولم يجرؤ أمين على الذهاب الى وادلاى واكتفى بالتصريح عن نيته اكتشاف البلاد الكائنة فى الغرب وفى الشمال الغربى . ثم طلب متطوعين . وبعد المكث بضعة أيام فى كافالى استطاع أن ينتزع من رهط سليم أربعين

رجلا بادر أكثرهم ، فى أثناء الطريق الى الهرب والعودة الى كافالى [1] .

وكانت طليعة قوات وادلاى وصلت الى كافالى فذهب سليم بك الى ماهاجى ليرافق بقية القوات القادمة . وفى أثناء غيبته وصل لاجارد بالقرب من كافالى . وبعد أيام قلائل كانت قوات مديرية خط الاستواء كلها مجتمعة فى القرية . ويؤكد لاجارد أنها كانت تنوى التحـرك

(١) كان أمين عاد مع حملة استانلى ولكنه عند وصوله الى الساحل دخل خدمة الحكومة الألمانيـة وعاد الى بحيرة البيرت ليحاول بنفوذه الاستيلاء على مديرية خط الاستواء ليوطد النفوذ الألمانى عند منابع النيل ولكنه لم ينجح فى مهمته . وقد بقى فى هذه الأرجاء حتى قتله العرب فى سنة ١٨٩٢ . وقد كتب أحدالعارفين ببواطن شؤون العرب هناك أوسكار بومان مقالا فى (الجريدة الحرة) Neue Freie Presse التى تصدر فى فينا فصلا عن أسباب موته جاء فيه :

«لا شك أن أمين ما كان يتعرض له أحد فى طريقه لولا حوادث أعالى الكونغو التى بدلت الموقف تبديلا تاما . ذلك أن مسلك حكومة الكونغو الى ذلك الوقت نحو تجار الرقيق العرب كان مسلك المتأنى المتودد فى الظاهر. ثم قر الراى فجأة على اتخاذ اجراءات حازمة لقمعهم فأرسلت حملات كثيرة ضدهم ، وكانت احداها برئاسة كيركهوفن توغلت شمال أرويمى الملاصقة للمنطقة التى كان فيها أمين مع رجال سيد بن عبيد. وقد حدثت مواقع دامية وعصف (كيركهوفن) بعدة معسكرات عربية واستولى عـلى كميات كبيرة من مخزون العاج ، فأوغر ذلك صدور العرب الى اقصى حد، وكانت النتيجـة المباشرة قتل الكثيرين من وكلاء الشركات البلجيكيـة التجارية الذين يعيشون فى أعالى الكونغو وكانوا على أتم وفاق وصـفاء مع العرب .

«وكان العرب من قبل يخشون مغبة قتل الأوربيين ولكنهم أصبحوا لا يبالون بشىء بعد أن أثيرت عليهم حرب افناء لا رحمة فيها .

«على أنه رغما من كل ذلك فانه ما كان أحد من العرب يتعرض لحياة أمين لأن العرب الافريقيين كانوا ينظرون اليه كشخصية شرقية كبيرة ، وكانوا بسبب علمه الواسع بالاسلام يعتبرونه الى حد ما وسيطا بينهم وبين الألمان . ولكن أمين قد اضطر الى أتباع خطة العداء الصريح نحو العرب حين عصف بمعسكر أعداء « الحماية » الألمانية ، تجار السلاح العرب فى ماجو MaoJo على ساحل فكتوريا نيانزا ، وأعدم زعماءهم واستولى على مقادير عظيمة من البضائع والأسلحة » . .

(انظر ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ من الجزء الثانى من كتاب حياة أمين باشا
Emin Pasha. His Life And Work By Georg Schweitzer 2 Vols.

صوب الجنوب (صوب أوغنده فى الغاب) بمجرد وصول آخر قسم منها الى كافالى .

وفى ٧ سبتمبر عسكر لاجارد بازاء القرية السودانية ومقر سليم الذى كان فى الناحية الأخرى من نهر صغير يفصل بينهما .

وفى ١١ سبتمبر اجتمع الزعيمان . وكان سليم سودانيا ضخم الجثمان ، رفيع البنيان ، عظيما جدا فى خلقه . وكان من ضباط الألاى السودانى الشهير الذى اشترك ، تحت قيادة بازين ، فى حرب المكسيك . وكان حاكما لامرولى فى أيام غردون . قال لاجارد يصف لقاءه سليم بك : « لقد ذكرلى طويلا كيف شاب رأسه فى خدمة الخديوى وأنه لن يتحول عن ولائه لراية قد خاطر بحياته مائة مرة فى سبيلها ، وانه لن يتردد فى الانضمام الى طواعية اذا كان عندى « تصريح » من الخديوى ، وأنه بدون ذلك لن يخدم تحت راية أخرى [١] » .

وبعد مفاوضات طويلة وعد لاجارد بطلب اذن من الخديوى ، فقبل سليم بوضع قواته تحت امرة الضابط الانجليزى حتى يصل رد الخديوى . وفى الغد أراد سليم أن يشترط أن تكون له السلطة التامة على جنوده وأن يظل الجنود مترابطين فى مراكز متدانية لغاية القرار النهائى ، فأبى لاجارد ثم حاول توطيد السلم فى مديرية خط الاستواء أو بعبارة أدق الاستيلاء عليها من جديد بواسطة قوات سليم ، ولكن سليم عارض بقوة .

وكان هـذا التأجيل القهرى لخطة لاجارد الخاصـة بمديرية خط الاستواء ، بعد أن جلا عنها المصريون جميعا منذ استقرارهم فى كافالى فى أقصى الجنوب الغربى من بحيرة ألبيرت ، مدعاة الى التفكير المر فى

(١) F. D. Lugard, The Rise of our Eastern African Empire, 2 vols. 1893 (Vol. II p. 210).

نتائج حملة استانلى . قال لاجارد : « ان نتيجة حملة الانقاذ كان يرثى لها على الأقل من ناحية أن حماة السودان الجنوبى الطبيعيين وذادته قد سحبوا منه ليتركوا البلاد نهبا للفوضى والحرب المدنية والدراويش » .
ثم ختم لاجارد قائلا : « لا أقصد بذلك توجيه أى نقد صريح الى حملة الانقاذ ، لأن نتائج كهذه لم تكن متوقعة [١] » .

كتب هذا سنة ١٨٩١ والواقع أن سياسة الاخلاء التى أرغمت عليها مصر منذ سنة ١٨٨٣ فى السودان وملحقاته كانت نتائجها واحدة ...

وقد قضى سليم وأعوانه القليلون فى كافالى أكثر من سنتين عاشوا فى خلالها عيشة قوم متحضرين : « لقد جلبوا معهم بذرة القطن وزرعوه وجمعوه فى الحقل ، وعلى مناولهم البدائية نسجوا « قماش » المعاطف و « البنطلونات » التى كانوا يلبسونها . وكانوا لا يزالون يتداولون قطعـا من العملة المضروبة ، وكان الكتبة المصريون قائمين بكتابة الكتب الرسمية المرسلة من سليم الى محطاته المتقدمة والى مرؤوسيه من الضباط . وبالجملة كان يوجد وسط المظهر الوحشى للجنود اللابسين جلود الحيوان ، والنساء العاريات ، والأكواخ المصنوعة من القش . مجهود ظاهر ، تحز رؤيته فى النفس ، للمحافظة على النظام الذى يدعونه باعتبارهم جنود حكومة متحضرة [٢] » .

وفى أثناء عرض عسكرى حدث فى ١٧ سبتمبر ، قبيل الرحيل ، لم يستطع لاجارد أن يملك عواطفه أمام ذلك المنظر المؤثر الحافل بعلائم البطولة والولاء : « كانت كل كتيبة تمر وموسيقاها فى المقدمة . وقد أخبرنى سليم أن أولئك الجنود — حوالى الـ ٦٠٠ — كانوا كل مابقى من ٣٠٠٠ مقاتل . وفعلا كان الكثيرون منهم مشوهى الوجه بالجروح

(١) Lugard, Vol. II. p. 213

(٢) Lugard, Vol. II. p. 218

ومات الآخرون فى أثناء القتال من أجل رايتهم . وكان من المستحيل أن لا تعرو الانسان هزة اعجاب لرؤية أولئك الجنـود المتروكين وهم يحملون فى سيرهم راية بعد أخرى ممزقة ومخرقة من أثر الملاحم الشديدة التى اشتبكوا فيها مع المهديين . وكان يبدو عليهم التعصب فى ولائهم لشارة الخديوى . وكان بينهم رجل كبير السن مرزأ فى عقله منذ حصار دوفيلة يسمى بلال بك ، وكان جسمه مغطى بالجروح وذراعاه لا تسعفانه بعد أن مزقهما الرصاص كل ممزق ، كانت حماسة ذلك الرجل لا تعرف حدا ، وكان لاينفك يقاطع بابتهالاته ودعواته كل حركة » .

وقد تم بعد ظهر ذلك اليـوم الاتفاق بين لاجارد والحاميـة على الرحيل . ولكن لم ينس لاجارد قبل تحركه أن يعقد معاهدات مع كبار الزعماء المحليين الثلاثة : كافالى وكاتونزى وموجينى وأن يعطيهم راية الشركة لتحل محل راية الخديوى !

وقد عمل بعد ذلك لاجارد ، فى أثناء رحلة العودة الى أوغندة ، على تقسيم قواته الجديدة وترك معظمها عن قصد موزعا بين حصون ومحطات كثيرة واقعة على حدود الأونيورو وفى جنوب طورو Toru وهذه الأخيرة مملكة حديثة خلقتها الشركة وكان يحكمها أمير اسـمه كازاجاما من أسرة الأونيورو الملكية .

وقد وكل لاجارد الى ضابط انجليزى ، دى وتتون ، السطة الفعلية فى المديرية ليكبت الملك والسودانيين ثم انحدر الى أوغندة فى منتصف ديسمبر سنة ١٨٩١ بعد غيبة ستة أشهر .

وفى أواخر الشهر (ديسمبر) دخل لاجارد أرض أوغندة وقرر انشاء محطة فى ميناء واقع بين جزيرة لوامبو واليابسة ، وترك فيه قوة صغيرة بقيادة ضابط سودانى ذى عزيمة واخلاص اسمه فرج أفندى ، وخمسة وعشرين من الصناع السودانيين جاءوا من كافالى مع أهلهم وذويهم .

كان المجموع ١٥٠ رهطا . وكان لاجارد يقدر المزايا الكبرى للانتفاع بأولئك الصناع فى بناء السفن وترقية التجارة فى ذلك القسم من أوغندة بل وفى التأهب للمعارك المقبلة .

وقد لخص لاجارد أعماله فى اثنــاء الستة الأشهر الأخــيرة من سنة ١٨٩١ ، قال : «لقد عقدنا معاهدات ووضعنا تحت حماية الشركة كل البلاد الواقعة فى غرب أوغندة لغاية حدود الكونغو وعلى طول مجرى الرويتزورى لغاية بحيرة ألبيرت فى الشمال . وقد أغلقت تقريبا جميع طرق استيراد الأسلحة والذخيرة ، وشيدت سبعة حصون ، وضمت بحيرة ساليه ، وتم « انقاذ » السودانيين واقرارهم مع ضباطهم فى المديرية الجديدة وعين دى وتتون والملك الشاب كازاجاما لتنظيم شؤون البلاد وادارتها ومراقبة أى خروج عن الجادة من ناحية السودانيين (كذا) . وقد عبد طريق للنقل من بحــيرة فكتوريا الى بحيرة ألبيرت . وأخيرا أحضرت معى مائة من خيرة المقاتلين ليحلوا محل الحالين فى أوغندة ، وكانت هذه القوة كافية وقتذاك بينما كانت لنا فى الحصون المختلفة قوات احتياطية واسعة نستمد منها فى أية لحظة [١] » .

وفى أثناء الطريق ، بالقرب من كامبالا وصلت الى لاجارد الأوامر باخلاء أوغندة فى الحال لأن الشركة قــررت الانسحاب الى الساحل وتوقيع معاهدة جديدة مع موانجا . وكانت هذه الأوامر مرسلة من مديرى الشركة فى لندرة ومؤرخة فى ٤ ديسمبر سنة ١٨٩٠ — أى منذ سنة — وقد أملتها صعوبات الشركة المالية وحالة المديرية المضطربة فى ذلك الوقت .

وفعلا حين عاد لاجارد الى منجو فى أوائل سنة ١٨٩٢ كان الكاثوليك والبروتستانت مشتبكين فى حروب مدنية فظيعة . وقد هاجم الحزب

(١) Lugard, Vol. II, p. 282

الفرنسى حصن لاجارد على تل كامبالا ولكنه رد على أعقابه . ولجأ الملك موانجا الى الفرار ورفعت راية الشركة على قصره الخشبى . وكان وضـع نفسه تحت حمـاية المبشرين الفرنسيين اللاجئين الى جـزيرة بولنجوجوا Bulingugwe فلما هاجم لاجارد هذه الجزيرة [١] لاذ الملك هربا بالحدود الالمانيـة . وقد فاوض لاجارد موانجا بواسطة نسائه وهدده ان لم يعد بتنصيب امبوجو ، زعيم الحزب الاسلامى ، على العرش ، وبمهاجمة الفرنسيين ، من الجوانب . ان لم يذعنوا ، بواسطة السودانيين النازلين فى الطورو والواغندة المسلمين . مما اضـطر موانجا وحلفاءه الكاثوليك الى العودة الى عاصمة البلاد كامبلا فى أوائل أبريل وتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين .

وفى أثناء ذلك كان كاباريجا هاجم حصون السودانيين ولكنهم قهروه وأرغموه على طلب الصلح . وكان كاباريجا أكبر حليف للمسلين فى أوغندة .

حاول لاجارد بعد ذلك تسوية المشكلة الاسـلامية فاقترح اسكان الواغندة المسلمين فى بقعة من الأرض محصورة بين المنطقة الكاثوليكية والمنطقة البروتستانتية ليكون من السهل مراقبتها ولتكون من ناحية

---

(١) كتب دارسى Darcy فى كتابه Cent Années de Rivalitès Coloniales يقول : « سار لاجارد على راس قوات عسكرية عظيمة وتوغل لغاية منجو Mengo مقر الملك موانجا وفرض عليه معاهدة حماية ، ثم انقلب يهاجم الكاثوليـك بذريعة واهيـة وطردهم فاطردوا فى جزيرة كبرى ببحيرة فكتوريا كان يوجد فيها حول الملك والمبشرين الفرنسيين عدد ضخم من اللاجئين من الرجال والنساء والأطفال . وقد صوب لاجارد مدافعه ضد أولئك الضعفاء العزل فأفنى قسما كبيرا منهم ، ثم امعن فى سياسة التدمير والتقتيل وأرخى العنان لقواته وانصاره فحرقوا كل قرى الآباء البيض ومحطاتهم وكنائسهمومزارعهم ، وكان لاجارد لايجهل أن محو الكاثوليك معناه محو النفوذ الفرنسى فى أوغندة ، ولذلك لم يبق اثر من العمل الذى تعب فى تشييده مواطنونا (١٨٩١) » .

أخرى نقطة توازن بين الحزبين . ولكن لاجارد كان يريد اضعاف الحزب الاسلامى الى أقصى حد فاشترط على الواغندة تسليم ملكهم امبوجو . وكان سليم بك هو الرجل الوحيد الذى باستطاعته حمل المسلمين على قبول شرط كهذا . قال لاجارد : « فى اليوم التالى لامضاء المعاهدة مع موانجا (أى فى ١١ أبريل) ذهب الرسل المسلمون ليحيطوا حزبهم بشروطنا فأرسلت معهم سليم بك الذى كنت أثق فى اخلاصه كل الثقة والذى كانوا يسمونه ملك « الترك » وتعنو النفوس لمكانته العالية . وقد كلف باستعمال كل نفوذه لدفع المسلمين الى قبول شروطى والتخلى عن مليكهم . وفى حالة نجاح مهمته كان عليه أن يذهب فى الحال صوب الطورو وتولى قيادة السودانيين ، مكان دى وتتون الذى توفى ، وتقريب الحصون من أوغندة . وكنت آمل بهذه الطريقة ايجاد تهديد محسوس خلف الحزبين الاسلامى والفرنسى ومنع خطر أى تهور من ناحية السودانيين فى الحصون البعيدة نظرا لسهولة المواصلات مع كامبالا .

وقد اضطر سليم الى أن يحلف على القرآن لامبوجو « أنه سيكون شخصيا مسؤولا عن أى أذى يلحق به من ناحية لاجارد » .

وتمكن لاجارد فى النهاية بفضل السودانيين وزعماء منهم أمثال سليم بك وفرج أفندى — وهذا الأخير من جنود كسلا وأبطالها القدماء — من اقامة السيطرة الانجليزية فى أوغندة والأنيورو على قواعد وثيقة . وانتهت مهمته فى يونيه سنة ١٨٩٢ .

وقد كانت عودة لاجارد الى لندرة فى سبتمبر سببا فى اثارة مسألة أوغندة بحذافيرها والتفكير فى حلول الحكومة الانجليز محل الشركة فى ادارة مملكة تمتد من مونباسة الى النيل الأبيض وتبلغ مساحتها وقتئذ ٣٠٠,٠٠٠ ميل مربع .

ولذلك بادرت حكومة غلادستون بارسال جيرالد بورتال

Gerald Portal ليكتب تقريرا عن الحالة فى أوغندة واعلان الحماية الانجليزية عليها .

* * *

ترك بورتال زنجبار قاصدا أوغندة فى أول يناير سنة ١٨٩٣ وكان برفقته الصاغ أوين Owen وبركلاى Berkeley قنصل صاحب الجلالة ومدير ممتلكات الشركة فى مونباسة و ٢٠٠ رجل مسلح من زنجبار . وكان بورتال يعول كثيرا على هذه القوة « كعامل جديد ذى شأن فى التسوية المحتملة لمسألة أفريقيا الشرقية كلها » . ولكن خاب ظنه فى الطريق واتضح له كما اتضح لجميع الضباط « أنهم أشد الناس كسلا وأقذرهم ، وأنهم أحط مجموعة من الرجال قدر له ، لسوء الطالع ، أن يتعامل معهم [1] » .

وقد وصل المندوب (قوميسير) الجديد الى كامبالا فى مارس سنة ١٨٩٣ . وهناك وجد الصاغ ويليامز الذى نيطت به ادارة البلاد بعد سفر لاجارد واليوزباشى ماكدونالد وجيدج Gedge مراسل التيمس .

وبمجرد وصوله قرر وضع يده على جميع الحاميات السودانية وارسال أوين الى مملكة الطورو لتنفيذ هذه الخطة . وفى أول أبريل نصب علم الحكومة الانجليزية مكان علم الشركة . وبعد أن تجمعت لدى أوين قوة مؤلفة من ٥٠٠ سودانى « وكل اليها عمليا مهمة الدفاع عن البلاد [2] » .

وقبل أن يغادر البلاد أرسل تقريره الى روزبيرى وطلب تعيين ماكدونالد مندوبا لأوغندة وملحقاتها . وقد ألح فى تقريره فى ضرورة عدم التخلى عن أوغندة « التى تهيمن بمركزها الحربى على أعالى النيل

(١) Gerald Portal, The Mission To Uganda. London, 1894 p. 9

(٢) Lugard, Vol. II, p. 559

والبحيرات » . وألح أيضا فى المطالبة بانشاء خط حديد بين مونباسة وبحيرة فكتوريا [1] باعتبار أن مسألة تمدين السكان ، والاشراف التجارى والسياسى على مياه النيل الأعلى ، والقضاء على الحروب الداخلية هى قبل كل شيء مسألة نقل ومواصلات .

وبينما كان بورتال فى طريقه الى الساحل حاول ماكدونالد التخلص من الحزب الاسلامى ورئيسيه امبوجا وسليم بك . وما كاد يصل بورتال الى جواسوماسا ، على بعد ٢٠٠ ميل من كامبالا ، حتى بلغته رسائل من ماكدونالد تطلب عودته « بسبب الاختلافات الخطيرة مع الحزب الاسلامى وتذمر القوات السودانية » . وقد اضطر بورتال الى الوقوف زمنا فى كافيروندو Kavirondo وهناك وصله بريد جديد من أوغنـــدة ينبئه بأن لا ضرورة لعودته (يوليه سنة ٩٣) : ادعى ماكدونالد أن رئيس الجنود السودانيين حاول سوقهم الى التمرد ليتآزروا مع المسلمين ضد المسيحيين ، ولكن الفتنة قد قضى عليها كما أن سليم بك وبعض زعماء الواغندة قد أرسلوا مع جيدج كأسرى أو كنفيين . وقد وصل جيدج فى ٢٦ يوليه الى موميا وســلم الى بورتال « العاصى » سليم ، وخليطا كبيرا من النســاء والأطفال السودانيــة التى كان يراد ترحيلها الى الساحل ، وأخا الملك موانجا ، آمبوجا زعيم الواغندة المسلمين الذى كان يستحب ابعاده [2] .

وفى يوم ٢٧ (يوليه) سار بورتال مع عالمه ليجتاز طوال ثلاثة أسابيع بلادا وعرة موبوءة تعرقل الحركة فيها سيول الأمطار المنهمرة بلا انقطاع وفيضان الأنهر والمستنقعات الغزيرة .

وفى ١٦ أغسطس سنة ٩٣ فى منتصف الليل ، مات سليم ، بداء فى

---

(١) بدأ انشاء السكة الحديد فى سنة ١٨٩٦ وتم فى سنة ١٩٠٣ .

(٢) Gerald Portal, The Mission To Uganda p. 262.

القلب . ولم يجد بورتال فى مذكراته ما يقوله عن موت ذلك السودانى العظيم : ولاشك أن القضاء على الحزب الاسلامى وزعمائه الذين أصبحوا ثقلا على الانجليز كان أمرا مبيتا ومتفقا عليه بين بورتال وماكدونالد فى كامبالا نفسها .

وقد كتب لاجارد ، بهذه المناسبة ، يقول : « أنبأتنا البرقيات حديثا أن ماكدونالد قد أثبت تهمة الخيانة على سليم والتواطؤ مع الواغندة المسلمين لقلب الانجليز الخ.. واذا كان لى أن أحكم بمقتضى التقارير التى وصلت فى انجلترا فان الحذر الذى أبداه سليم بك حين بان له أن المسلمين لم يعاملوا بالانصاف لا يمكن تسميته « خيانة » . وقد كان فى ذلك الوقت يموت بداء عضال ، ومع ذلك أرغموه أن يسير نحو الساحل فمات بالطبع . وان تاريخ الحوادث الذى رويته فى كتابى ليثبت أن سليم ، قد دفعه اخلاصه لى الى المخاطرة بحياته ، وان اليه يرجع الفضل بصفة خاصة فى التسوية التى تمت مع المسلمين ، وذلك فى وقت لو أنه أراد أن يخون لوجد الطريق ميسرا أمامه اذ كان السودانيون فى الطورو على مقربة منه ، وكانوا يطيعونه طاعة عمياء ، وكان حزب الواغندة المسلمين لا يتردد فى قبول الدعوة . ولكن سليم ظل أمينا ، وانى أعرف الرجل الذى كنت أصاحبه . فلابد أن يكون قد حدث تجرد غريب من اللباقة ليتحول هذا الولاء الخالص الى عداوة ، مع أن سليم كان رجلا يشارف الموت ! زعموا أن سليم صار كثير الاعتداد بنفسه بسبب الطريقة التى عاملته وعامله بها وليامز . وان مثل هذا الاعتداد غير مقبول عند مرؤوس أجير . ولكن سليم لم يكن ضابطا «مجندا» أجيرا حين كنا فى أوغندة . كان حائزا لرتبة البكوية فى الجيش المصرى وهى ثانى رتبة فيه . وقد تولى القيادة السنوات الطوال فى مناطق كثيرة ، فلم يكن من اللائق مطلقا أن يعامل بغتة معاملة ضابط صغير . وكان من المتفق عليه بيننا أن يعود الى مصر وكان يجب أن يسافر بمجرد تجنيد السودانيين .

وانى ليحزننى شخصيا أن أفكر أن ذلك الجندى القديم الذى اختاره غردون لتولى القيادة فى امرولى وأنقذ بشجاعته وحنكته دوفيلة وخاطر بحياته فى سبيل اخلاصه لى قد أبعد على عجل وهو فى حالة موت ، ذليلا مهانا ، ليهلك فى الطريق طريدا شريدا [١] » .

أما سواد الحزب الاسلامى الأعظم ، بعد سفر بورتال ، فقد شتته المسيحيون ومحقوه طبقا لخطة مدبرة بلا شك بين بورتال وماكدونالد والمبشرين الانجليز .

وفى مايو سنة ١٨٩٤ خلف الأميرالاى كولفيل ماكدونالد بصفة مندوب لحماية أوغندة الجديدة ، وقد أقام فيها أكثر من عام . وأهم أعماله استعانته بالسودانيين فى اذلال كاباريجا ملك الأنيورو وابادة قوته ، ورفع الراية الانجليزية فى وادلاى فى مديرية خط الاستواء القديمة ، وضم أجزاء واسعة من الأنيورو الجنوبية الى مملكة أوغنده ، واعادة تنظيم ادارة الحماية ، وجعل العاصمة فى اينتيب Entebbe

ولكن لأجل توطيد سلطان الحماية الانجليزية كان لا بد من القضاء على كل الثورات والقلاقل المحلية والعمل فى الوقت نفسه على افناء القوات السودانية بسوقهم فى كل مكان لاخماد الفتن التى لا انقطاع لها وانهاكها بأعمال خشنة ومهمات بعيدة فى غابات أوغندة والأنيورو وصحاريهما وأحيانا فيما وراء حدودهما .

لم يذق أولئك السودانين طعم الراحة يوما واحدا منذ جندهم لاجارد فى سبتمبر سنة ٩١ . وبعد سفر لاجارد « أدوا خدمة جليلة بمقاتلتهم البانيورو والباجندة العصاة » ، وفى الأشهر الأخيرة من مأمورية لاجارد وبعدها قاموا بمساعدات قيمة لمكدونالد نفسه ، الذى كان عين فى أواخر سنة ٩١ رئيس المهندسين المكلفين بالدراسات التمهيدية لمشروع

(١) Lugard, Vol. II. p. 478-479

السكة الحديد فى أوغندة ، ولأعوانه اليوزباشى برنجل Pringle والصاغ كاننجهام Cunningham الذى عهد اليه بتنظيم قوة مسلحة وغيرهما .

كان ماكدونالد رجلا فيه شراسة وشكاسة . وقد شاءت الأقدار أن يعود ثانية فى سنة ١٨٩٧ على رأس حملة وبرفقته الصاغ أوستن Austin الذى اشتغل تحت رياسة ماكدونالد فى أوغندة فى سنتى ١٨٩٠ — ١٨٩١ واليوزباشى برنجل الذى اشتغل فى سنتى ١٨٩١ — ١٨٩٢ وضباط آخرين من الهند .

غادرت هذه الحملة بومباى فى ١٨ يونية سنة ١٨٩٧ ووصلت مونباسة فى ٩ يولية فى طريقها الى أوغندة . وقد استغرق قطع المسافة فى الداخل ثلاثة أشهر . أما غرض الحملة فيجب أن نذكر أنه كان تقرر فى سنة ١٨٩٧ الزحف نحو الخرطوم لسبق مارشان (حملة فاشودة الشهيرة) واتقاء الخطر الذى يتهدد النيل الأبيض .

وكانت خطة الانجليز المزدوجة اعادة فتح السودان بمهاجمته من الشمال والتوغل فى نفس الوقت فى جنوبه من ناحية أوغندة . وقد صرحت وزارة الخارجية الانجليزية لماكدونالد أن يأخذ معه القوات السودانية وكانت عائدة فى ذلك الوقت من مطاردة قوات موانجا فى اقليم بودو Buddu فان موانجا بعد أن يئس من خلع نير الانجليز اضطر الى الفرار واللياذ بالمنطقة الألمانية .

وقد شرح هارى جونستون ، الذى عين فيما بعد حاكما عاما لأوغندة ، تاريخ ثورة السودانيين فى سنة ١٨٩٧ وأسبابها ورغما من تحيزه الظاهر فى بعض المواطن فان كتابته محاولة جديدة لابراز الحقيقة وحسبه أنه بين لنا بعض ما كان يشغل بال الانجليز فى ذلك الوقت .

بعد أن ذكر الخدمات التى أداها السودانيون فى عهد ماكدونالد الأول (٩١ — ٩٢) قال جونستون : « ان السهولة التى تمكن بها أولئك

السودانيون الشجعان الأوفياء من دحر قوات قبائل البانيورو العظيمة والباجندة والباهيما قد ولدت فى نفوسهم أشد الاحتقار للسكان الوطنيين فى الحماية من وثنيين ومسيحيين . أنهم مسلمون متعصبون كانوا يحتقرون فى داخل سريرتهم الرجل الأبيض باعتباره مشركا وكانوا يحلمون دائما بتأسيس ممالك من صنعهم فى هذه الأقطار الخصبة التى يسهل فتحها . ويمكن القول ان ضباطهم (الانجليز) لم يكن اختيارهم فى كل الأحوال موفقا ، وقد سلك بعضهم نحوهم مسلكا فظا غليظا .

« وكانت الادارة بسبب مشـــاق النقل الكبرى التى أصبحت من مستلزمات شحن البضائع وغيرها من ساحل أفريقيا الشرقى عاجزة عن أن تدفع لأولئك السودانيين أجورا مناسبة ، فى البداية ، أو تدفع الأجور بانتظام . فترتب على هذه الحالة وجود متأخر مرتبات متراكمة . وعدا ذلك ، شاعت الحوادث كهرب موانجا وثورة الناندى[1] Nandi التى أعقبته بقليل فى الجزء الشرقى من الحماية أن يرسل السودانيون عاجلا فى مكان سحيق مئات من الأميال سيرا على الأقدام فى أرجاء الحماية من قسم الى الآخر . ولم يكونوا مطمئنين على نسائهم لأن زنوج أواسط السودان مولعون بتعدد الزوجات وهم يحبون أن تلازمهم نساؤهم أنى يذهبون ليقضوا حاجاتهم فى حياة المعسكر ، ولكن سرعة الحركات العسكرية فرقت بينهم وبين زوجاتهم وأبنائهم وحشمهم . وكانت هذه الفرقة تدوم أحيانا أربعة أو خمسة أشهر متوالية . ولذلك كانت صدورهم موغرة وروح التمرد الكامن تغتلى فيهم حتى حدث حادث اندفعت به الثورة » .

---

(١) تكلم جونســتون فى كتابه : أفريقيــا (ص ٣٨٦) عن القــوات السودانية «التى كانت على الدوام مشتبكة فى حروب ضد القبائل الوحشية الجبلية فى هضبة الناندى ، وضد ملك الواغندة الذى انقلب على الانجليز واصــبح مسلما ، وضد قوات الاونيورو التى كانت تحاول اســترداد الاراضى المفقودة» .

وصف جونستون بعد ذلك حملة ماكدونالد وحالة الجنود الذين سيرافقونه : « كانوا مرهقين بالتعب وبمفارقة زوجاتهم باستمرار ، مع شديد تعلقهم بهن ، وكانوا لايحسنون الظن بنزاهة الادارة بسبب عدم دفع المتأخر لهم . وكانوا يخشون الهلاك فى بلاد مجهولة بعيدة كل البعد عن البلاد التى ألفوها . لذلك قرروا أن لا يرافقوا الحملة وأن يعرضوا شكواهم فى الوقت نفسه على أحد الضباط الأنجليز فى كامبالا . ولكن هذا الأخير رفض أن يستمع اليهم فأجمعوا أمرهم على تنفيذ الأوامر على أن يذهبوا فقط الى محطة رافين Ravine فى المديرية الشرقيــة ، للقاء ماكدونالد فيها . وهناك كان أملهم عظيما فى الاتصال بجاكسون أحد كبار الموظفين المدنيين لأنهم كانوا يعرفونه جيدا ويحبون فيه ميله الى العدالة وكانوا يريدون منه أن يتوسط لهم فى الغاء الأمر الصادر اليهم بالخروج من البلاد مع ماكدونالد .

ولكنهم حين وصلوا رافين أبلغوا أن الأمر يجب تنفيذه أما فيما يتعلق بتظلمهم الخاص بمتأخر مرتباتهم وبالعمل المطرد فى الحملات المختلفة فسينظر فيها بعد عودتهم من حملة ماكدونالد . وعلى أثر سوء تفاهم وقع بين السودانيين وأحد ضباط الحملة فى رافين صدر الأمر للسودانيين بتسليم أسلحتهم فرفضوا ، ثم أطلقت النار من فوق رؤوسهم فثاروا جهرة وحاولوا الوصول الى قلب أوغندة مخربين فى طريقهم المحطات والمخازن وما اليها . وقد تمكنوا أخيرا من الاستيلاء على حصن لوبا Luba وأسر الصاغ ثرستون Thruston وبعض الانجليز وتنفيذ حكم الاعدام فيهم » .

وهنا يقول جونستون : « ان الحوادث التالية حديثة جدا وليست بحاجة الى التعريف [١] » .

---

(١) H. Johnston, The Uganda Protectorate (vol. I. pp. 239-243)

وتتلخص هذه الحوادث فى أن ماكدونالد ، بمساعدة جاكسون ونفر من الضباط والموظفين ، وأعضاء الجمعية التبشيرية البروتستانية ، تمكن بعد عراك جبار فى ظروف صعبة ، من التغلب على الثوار وطردهم من أراضى حماية أوغندة .

وقد سرد أوستن ، الذى اشترك فى حروب ماكدونالد ، حوادث سنة ١٨٩٧ [١] . بحسب هذا المؤلف ، فى بداية الثورة وخصوصا فى وقت حصار لوبا العصيب كانت حاميات أوغندة كلها مؤلفة من السودانيين الذين يبلغ عددهم حوالى الألف جندى . وكان فى الأنيورو من ٤٠٠ الى ٥٠٠ سودانى موزعين بين ستة مراكز على مسافات شاسعة جدا تحت اشراف القائم مقام داجمور Dugmor الذى كان مقره الرئيسى فىمازندى . وفىاقليم الطورو الغربىToru كان يوجد اليوزباشى سيتويل Sitwell ومعه فصيلة من السودانيين ظلت على ولائها ابان الثورة كلها وقامت فيما بعد بعمل رائع ضد قوات موانجا حين تمكن الملك السابق من الهرب من الأراضى الألمانية وحاول بسلاحه أن يخفف الضغط على الثوار . وكان فى اقليم بودو Bu ddu الجنوبى الغربى ٢٥٠ سودانيا . وكان أكبر الخطر أن تحدث معا ثورة عامة مشتركة فى أوغندة والأنيورو .

وقد نجحت الادارة فى أوغندة فى اجتذاب الواغندة الى صفها والحيلولة دوناتصالالقوات المبعثرة بعضهاببعض — وكانت طبيعة الأشياء تساعد على ذلك — والحجز بين هذه القوات وبين قوات موانجا وبعض الواغندة المسلمين من ناحية وبين قوات كاباريجا من ناحية أخرى .

وقد هزم موانجا فى يناير سنة ١٨٩٨ ثم تبعه بزمن قليل كاباريجا الذى قهرته قوة انجليزية مؤلفة من جنود هندية متحالفة مع الباجندة أو الواغندة . وقد وقع الملكان فى الأسر وثل عرشهما .

---

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda. 1903.

استمرت عمليات ماكدونالد من سبتمبر سنة ١٨٩٧ الى مايو سنة ١٨٩٨ وكانت مملوءة بتفاصيل ودقائق مؤثرة . نذكر على سبيل المثال ما يتعلق منها بأصول الثورة :

بحسب احدى الروايات التى ظهرت فى الصحف الانجليزية لم ينس السودانيون ولم يغفروا المعاملة التى عومل بها سليم بك فى سنة ١٨٩٣ ، وتختلف الآراء فى أهمية هذا العامل فى الثورة . وعلى أية حال فمما لا شك فيه أن بلال افندى قبل أن يترك أوغندة أقسم برأس ابنه أن لا يعود الى الخدمة تحت رياسة ماكدونالد . وقد علق أوستين على هذه الرواية قائلا : « كان ماكدونالد نفسه منح بلال أمين ترقية جزاء له على مسلكه النبيل فى أثناء قلاقل سليم ، ولكنه قبل أن يصل الى محطة رافين R vine كانت الثورة قد اشتعلت وقد لحق به الثوار فى ناندى . وبعد موت مبروك وسليمان صار رئيس الثوار فأظهر كفاءة نادرة على الرغم من العار الذى لصق به من جراء مقتل ثرستون وآخرين .

« وكان خوطب فى البداية فى مرافقة الحملة فلم يثر صعوبة ما وطلب فقط اجازة بضعة أسابيع فأجيب الى طلبه . ولكن حدث أنه عندما وصل الى كامبالا ليرى أسرته وصله أمر بالذهاب توا فى حملة محلية صغيرة ، وتلقى الوعد بأن يمنح باقى الاجازة عند العودة . ولكنه حين عاد أبلغ أن هذا الوعد لن يوفى به نظرا لحاجة الحملة (ماكدونالد) الملحة الى خدماته فى الحال ولما ألح فى استيفاء أجازته ألقى القبض عليه لعصيان الأوامر وجرد جميع ضباط فصيلته من رتبهم . وقد أطلق سراحه فيما بعد وأرسل للحاق بماكدونالد . ولكنه كان يتحرق حنقا على الطريقة التى عومل بها ويؤكدون أنه حلف فى ذلك الوقت على رأس ابنه بأن لايذهب مع أية حملة فقد أنهكه التعب وكان دائما غائبا عن أسرته ولم يجد أى تقدير لعمله المضنى وخدماته واخلاصه [١] » .

---

(١) Major Austin, With Macdonald In Uganda, p. 301-302

ظاهر من كل ما تقدم أن فاتحى أوغندة والأنيورو ومديرية خط الاستواء القديمة وكل أعالى النيل هم أولئك السودانيون الكبار الذين ظلوا على المحن وصروف الأيام ثابتين على ولائهم لخديوى مصر وتقاليدهم ورايتهم ، وظاهر أن سياسة جبارة واحدة فى جوهرها ، وان تباينت صورها وأشكالها ، قد اتبعت ازاءهم طوال عشرة أعوام .

ولئن أخلت مصر السودان بأمر بريطانيا فانها لم تتنازل قط عن حقوقها المختلفة فى السودان وملحقاته .

وقد أعلن تيجران باشا وزير الخارجية المصرية ، فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ ، « ان مصر تحتفظ بكافة حقوقها على الأراضى التى كانت تتألف منها مديرية خط الاستواء المصرية » أى مناطق البحيرات وأعالى النيل التى كانت منذ سنة ١٨٧٥ منطقة النفوذ المصرى فى أواسط أفريقيا .

والواقع أن انجلترا باستيلائها على أوغندة وانشاء « حماية » جديدة فى حدود واسعة كان غرضها استغلاليا بحتا . ولن يتغير الموقف القانونى من جراء اخلاء مصر لمناطق بحيرة فكتوريا (أوغندة-وعاصمتها) وبحيرة ألبيرت نيانزا (الأنيورو ، ومديرية خط الاستواء فى الشمال ، والساحل الجنوبى لبحيرة كيوجا أو ابراهيم ومنطقة كافالى) . لأن ذلك الاخلاء كما قلنا كان قهريا . على أن الحقوق الأدبية لمصر لاسبيل الى طمسها وحسبنا أن نذكر أنه فى أثناء الثورات المختلفة التى تعاقبت على الممالك الاستوائية منذ سنة ١٨٨٨ كان فى البلاد حكومة صحيحة ونظام سياسى واجتماعى ظلا قائمين ، رغما من جميع الفتن والحروب والاعتداءات السياسية والانقلابات ، دون أن يختل ميزانهما ، حول راية الخديوى التى كانت راية حضارة وعمران .

* * *

ويحسن بنا الآن أن نتساءل عن نتائج السيطرة الانجليزية فى المديريات المتروكة .

وضع الأب روسكو الانجليزى كتابا عن شعوب أواسط أفريقيا ، جاء فيه عند ذكر البنيورو (أونيورو) واكتشافات سبيك وبيكر والغارات التى شنها بيكر ، وخصوصا الانجليز من بعد ، ضد كاباريجا : « فى تلك الأزمنة كانت البلاد غنية بسكانها وماشيتها ولكنها الآن أصبحت فقيرة بسبب الحروب الطويلة فى عصر كاباريجا . وقد تبدد السكان ، وأخذ عددهم يتناقص منذ الاحتلال الانجليزى واضطرار الكثيرين الى المهاجرة فرارا من التسخير وضريبة السكن (hut tax) اللتين حتمتهما السلطات عليهم .

واذا كان الوطنيون أحرارا فى زراعة القطن فان بيعه مقيد بنظام حكومى خاص وبشروط لا تتفق مع الرفاهية اطلاقا .

« وكانت الحالة فى أوغندة هى نفسها فى الأنيورو التى ضمت اليها . اذ توجد مدن وتوجد طرق جديدة تخترق البلاد وجبالها من أقصاها الى أقصاها ولكن ذلك كله « ليس الا نتيجة السُّخْرِىِّ المفرط لصالح الأوربيين وحدهم » .

وقد كان انشاء الطرق والمبانى الحكومية « يثير عاصفة من مساوىء استعمال السلطة والمعارضة » لأن الحكومة كانت دائما تلجأ الى تسخير السكان فى هذه الأعمال ولا تدفع الا أجورا اسمية تقدرها السلطات ثم تسقط منها الضرائب . وكان الأوربيون المتوطنون من ناحيتهم ، يقتدون بالحكومة فى محاولة استغلال الوطنيين وارغامهم بمقتضى قانون الاستيلاء الخاص بتشغيل الوطنيين ، على العمل بأجور لا قيمة لها . وقد ترتب على هذه الحالة أن ترك الوطنيون حقولهم « وهاجرت أفضل

(١) Johan Roscoe, The Soul of Central Africa, 1922

طبقات العمال صوب البلاد التي يشتغلون فيها أحرارا دون أن يقسروا على القيام بأعمال لا ربح فيها » .

وقد ختم الأب روسكو بقوله : « لا ريب ان مئات من الأميال الجديدة قد ساعدت على تكثير محصولات الامبراطورية ولكن هذه البلاد على الرغم من ذلك لن تصبح مقرا ثابتا للرجل الأبيض » .

الكتاب الخامس

الفصل الرابع عشر

السودان (١٨٨٥ — ١٨٩٨)

فى أيام المهدى وخصوصا منذ موته الذى حدث فى يونية سنة ١٨٨٥ كان أكثر أهالى السودان وقبائله تضيق ذرعا بنظام الارهاب وتظهر ولاءها لمصر . ولكن السودان — كما قال أحد الانجليز — كان يجب أن يظل على حالته « يأكل بعضه بعضا » .

وقد أفادت برقية أرسلها من سواكن كامرون Cameron فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٥ أن عوض الكريم باشا أبو سن فى أم درمان كان يعمل على تهدئة الشيع والجماعات حتى تبين نيات الحكومة . وكان أبو سن زعيم قبيلة الشكرية الكبيرة .

وفى برقية أخرى فى نفس اليوم أبلغ كامرون القنصل ايجرتون ان رسولا حضر الى سواكن وأنبأه أن سنار كانت نقطة تجمع عظيمة لجميع الهاربين من العصاة ، وان حامية سنار التى كان يبلغ عددها ١٠٠٠٠ رجل كانت مسيطرة على المملكة كلها وأن مندوبين من قبل قبائل طوكر كانا وصلا فى اليوم السابق لطلب الصلح .

ومن جهته أعلن القائد الانجليزى جرينفل Grenfell من أصوان ، بتاريخ ٢٧ سبتمبر ، ان سنار كانت لا تزال صامدة وانه اذا احتفظت الحكومة بدنقلة تمكنت سنار من اصلاح الموقف فى الخرطوم .

وفى ١٢ أكتوبر كتب ايجرتون من القاهرة : « ان ضياع مركزى دبه ودنقلة المهيمنين فى الوقت الحالى هو بلا أدنى شك العقبة الكبرى فى سبيل تهدئة السودان الغربى . ولو بقيت سنار على ولائها قوية مزودة بالبواخر الكثيرة وبقى النيل لغاية دبة تحت سيطرة الحكومة لأعلنت المملكة الوسطى خضوعها بعد موت المهدى بقليل ولكان من المحتمل جدا أن يعمد البقارة وهم أهم عوامل الثورة فى الغرب (كما كان الهدندوة فى الشرق) الى الانسحاب الى منازلهم فى الجنوب [١] » .

والحوادث التالية ليست بحاجة الى التفصيل . فقد سقطت سنار ، وأبيدت الحامية ورجالها الصناديد ، وشرع النجومى يتأهب ، على رأس ٣٠٠٠٠ مقاتل للزحف على أبو حمد وكروسكو وغزو مصر .

وكانت مصر يجب أن تظل بقواتها على حدودها فى حالة حذر مستمر . وقد أراد الانجليز منع كل اتصال مع السودان فصدر أمر وزارى بتاريخ ١٠ أكتوبر سنة ١٨٨٥ تقرر بمقتضاه وقف كل تجارة مع السودان . وبذلك ضربت مصر على نفسها حصارا تجاريا ، وكانت العناصر الموالية من الشعب السودانى الذى « تخيفه وتستبد به أقلية متعصبة متهيجة » مضطرة على الدوام الى التحالف مع هذه « العصابة المخربة » .

وكانت جميع السلطات فى القاهرة تطالب برفع الحصار ولكن عبثا لأن الحكومة الانجليزية لم تتزحزح عن خطتها .

وانا نجتزىء هنا بذكر دراموند وولف Drummond Wolf : بعد أن ذكر أن الحصار قد مضى عليه ثمانية أشهر، قال فى كتابه المرسل الى روزبيرى بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٨٨٦ : « اذا منع بتاتا أصدقاء السلام من السودانيين من مزاولة أعمالهم المعتادة ، لم يكن بد من انضمامهم الى الدراويش ، على حين لو أن التجارة يسرت سبلها وعاد كل الى مهنته السلمية كان فى ذلك أكبر اغراء لهم على المطالبة بوقف القتال ..

---

(١) سجلات وزارة الخارجية الانجليزية . رقم ٧٨ . مجلد ٣٨١٠ .

« وليس من الممكن طبعا أن نجزم مقدما بأن تيسير التجارة سيؤدى توا الى هزم التعصب الذى كان له أبرز الأثر فى الحروب الحديثة ، لأن نتائج مثـل هذا الاجراء السلمى لن تتحقق الا تدريجا ، وحسبه أنه سيدخل فى السودان الوسائل التى تساعد على تكوين حزب سلام » .

وقد أرسل الخديوى يوسف باشا شهدى الى حلفا ليدرس من كثب الحالة فى السودان . وقد دامت مهمته حوالى عشرة أشهر (يونية ٨٦ — مارس ٨٧) .

كان شهدى باشا يلح باستمرار فى ضرورة اعادة التجارة خصوصا وانه قد استوثق من تعلق السودان بالخديوى . وقد كتب جودت بك رئيس الديوان الخديوى الذى كان ملحقا ببعثة شهدى ، تقريرا بتاريخ ١٢ مارس سنة ١٨٨٧ جاء فيه : « ان القبائل والعشائر التى كانت ملتفة حول المهدية أخذت تتذمر من تهور العصاة وبدأت فعلا حركة مقاومة صريحة بالسلاح . وعبد الله التعايشى فى الوقت الحالى فى أشد الاضطراب بسبب العصيان الضخم الذى انتظم عرب الشرق الشكرية والحمـادة وأبو روف » .

وقد وفد على القاهرة دفع الله أحد زعماء السودان وأحضر معه الى الخديوى كتابا مرفوعا اليه من مئات كبار المشايخ فى كردفان ، بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٠٣ هـ (سبتمبر ٨٦) ، جاء فيه : « اننا نضع كل أمل فى انقاذنا فى ارادة الخديوى لتصبح الأمة كلها محكومة بواحد كما كان الأمر من قبل » .

وقد حدثت فى سنة ١٨٨٨ مناقشات فى المجالس النيابية وفى الصحف بانجلترا بخصوص سواكن والسودان ، فاقترحت مجلة ساترداى ريفيو « فتح السودان من جديد وتوطيد السيطرة الانجليزية على أعالى النيل » ذعر الرأى العام فى مصر من هذه السياسة واضطر رياض باشا

رئيس الوزارة الى ارسال مذكرة الى بيرنج ، بتاريخ ٩ ديسمبر (٨٨) قال فيها : « لاينازع أحد فى أن النيل حياة مصر فهذة مسألة ظاهرة مفروغ منها . والنيل هو السودان فلا جدال فى أن العلاقات والصلات التى تربط مصر والسودان لا يمكن فصمها كالعلاقات بين الجسد والروح .

« وان حكومتى لعظيمة الأمل فى أن تتمكن بالوسائل السلمية (كالتجارة) من استعادة نفوذها تدريجا فى هذه الأقطار .

« وان ترك سواكن لدولة أوربية لايمكن التسليم به لأن معناه انتحار لمصر » .

والحقيقة كما قال دارسى [١] ان المسألة المصرية كانت مرتبطة بطريقة لا انفصام لها بمسائل السودان والبحيرات والحبشة أيضا « فمن هذه العناصر الثلاثة تتألف فى الواقع مشكلة واحدة أعدت لها انجلترا بمهارة نادرة حلا يتفق مع مصالحها » .

وبينما كانت انجلترا تعمل على الوصول الى النيل من الشمال كانت فرنسا تحاول السبق اليه من طريق الكونغو . ولما وجه سؤال فى سنة ١٨٩٥ الى الحكومة الانجليزية بخصوص سياستها السودانية والخطة التى قررت اتخاذها فى حالة تدخل من جانب فرنسا ، أجاب السير ادوارد غراى ، العضو فى وزارة روزبيرى ، بتصريح ٢٨ مارس الشهيرالذى صار من ذلك الوقت القاعدة التى ترجع اليها الحكومة الانجليزية فى كل مناسبة : « ان انجلترا لها صفة الوصية المكلفة بالدفاع عن مصالح مصر ... وبما أن مصر لها مطالب فى وادى النيل فان منطقة النفوذ البريطانى تشمل جميع وادى النيل » .

---

(١) Darcy, Cent Années de Rivalités Coloniales, 1904

وقد رأينا كيف تصرفت هذه الحارسة الأمينة أو الوصية فى الأراضى المصرية وكيف وزعت بعضها على ايطاليا والحبشة وولاية الكونغو ...

وفى أثناء اجتماع ١٠ أبريل سنة ١٨٩٥ قررت الغرفة التجارية بلندرة دعوة الحكومة « الى اتخاذ الاجراءات الناجعة فى سبيل تحقيق الهيمنة الانجليزية على وادى النيل جميعه من أوغندة الى فاشودة » .

ولأجل أن تثير المسألة المصرية كلها وتنازع انجلترا فى « حقوقها » على السودان ووادى النيل قررت فرنسا ، فى سنة ١٨٩٧ ، الوصول الى النيل من الجنوب بواسطة مارشان Marchand [1]

---

(١) الواقع أن فرنسا كانت تطمع فى الاستيلاء على بحر الغزال ووصل شمال أفريقيا بوادى النيل وكانت انجلترا تطمع فى جعل وادى النيل ، على الأقل من منابعه الى الخرطوم ، منطقة انجليزية بحتة . جاء فى خطاب لسالسبرى الى الملكة فكتوريا بتاريخ ١٠ يونية سنة ١٨٩٠ بخصوص الاتفاق على مناطق النفوذ مع ألمانيا والتنازل لها عن جزيرة هليجولند : «وأن الوزارة بالاجماع توصى بقبول هذا الاتفاق. أن العوض عن هليجولند هو الحماية على جزيرتى زنجبار وبمبا و١٥٠ ميلا من الساحل بالقرب من سلطنة فيتو Witu وعدم المطالبة من جانب ألمانيا بأى حق على البلاد الخلفية الداخلة . وبناء على هذا الاتفاق تقع جميع المنطقة الخارجة عن حدود الحبشة وبلاد الجالا تحت النفوذ الانجليزى لغاية الخرطوم» .

وقد كتب لاجارد Lugard فى يولية سنة ١٨٩٥ مقالا عنوانه (انجلترا وفرنسا فى وادى النيل) فى مجلة (ناشيونال ريفيو) جاء فيه :

«فى رده على ادوارد غراى أعلن هانوتو ، بتاريخ ٢٨ مارس، أن انجلترا لم تحدد مطلقا فى أى وقت مضى أى جزء من وادى النيل تطالب به لمصر وأى جزء تطالب به لنفسها . وجوابنا على ذلك أن مصر قد تقدمت فى فتوحاتها بقواتها الذاتية لغاية الخرطوم . ولكن إبتداء من هذه النقطة كل فتح وكل ادارة قام بهما بيكر وغردون (كذا) . اذن تمتد منطقة النفوذ المصرية لغاية الخرطوم . وابتداء من هذه النقطة تبتدىء منطقة النفوذ الانجليزية التى تشتمل على «جميع حوض النيل غربا وجنوبا مع مديرية خط الاستواء ، وبحر الغزال ودارفورد وكردفان ، وشرقا جميع البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، باستثناء الأراضى التى حددتها انجلترا بوضوح فى معاهدة أبريل سنة ١٨٩١ وأقرت بأنها حماية ايطالية .

«ان فرنسا تطالبنا بالجلاء عن مصر . ولكننا لن نجلو عنها حتى نحتل فعلا المنطقة التى طالبنا بها لغاية حدود مصر . ومتى أصبحت مصر فى قبضة يدنا بمقتضى مركزنا على النيل ، عندئذ وعندئذ فقط نجلو بجنودنا » .

وفى السنة عينها أرسلت انجلترا ماكدونالد على رأس حملة ليسبق مارشان الى فاشودة من طريق أوغندة . وكانت فى الوقت نفسه تفكر فى ارسال حملة من الشمال بقيادة كتشنر للاستيلاء على الخرطوم وبحر الغزال فى الجنوب .

وقد تعذر على ماكدونالد اتمام مهمته بسبب ثورة السوادنيين التى سبق ذكرها .

أما حملة كتشنر فكان يجب أن تصل فى الميعاد لهزم فرنسا سياسيا فى فاشودة .

وكان اللورد كرومر ، فى يونية سنة ١٨٩٧ ، يعارض فى ارسال قوات بريطانية بسبب الأعباء المالية الباهظة التى تنشأ من الحملة وبسبب عدم صلاحية الجنود الانجليز من الناحية الجثمانية لحرب السودان .

« فان الجندى الانجليزى ليس عنده أقل استعداد ليكون أداة حرب فى جو كجو السودان . ولم تنتج أية فائدة من ارسال الأورطة الانجليزية فى الصيف الماضى فى دنقلة . ولا بأس أن نذكر أنه من بضعة أيام فقط حدث استعراض فى القاهرة بمناسبة عيد ميلاد الملكة ، وعلى الرغم من أن الجو لم يكن حارا بدرجة فوق العادة فقد سقط حوالى ١٢٠ جنديا وخرجوا من الصف من قوة تعدادها ١٨٠٠ . وقد يقول قائل ان البريطانيين قاتلوا فى السودان . وردى على ذلك ان التاريخ الحقيقى لمعارك سنة ١٨٨٥ لم يكتب قط ، ولا أعتقد أن أحدا يفكر فى اجراء التجربة من جديد » .

وهذا مايفسر لنا الأسباب التى من أجلها سيقع حمل الفتح الثانى بصفة خاصة على كاهل الجندى المصرى والمالية المصرية .

وعلى أية حال كانت الدوائر فى لندرة مترددة فى تحديد تاريخ قيام

الحملة : أيعجل بها فى سنة ١٨٩٧ لمواجهة التهديد الفرنسى ، أم تؤجل الى السنة التالية . وكان اللورد ولسلى من أنصار التعجيل .

وكان اللورد لانسدون Lansdowne وزير الحربية ، من جهته ، يعارض فى أى تقدم سابق لأوانه نحو الخرطوم .

وكان رئيس الوزارة سالسبرى يؤيد الرأى الأخير كما يتضح من كتاب كان بعث به الى لانسدون بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٩٧ :

« ان الشرين اللذين يتعادلان هما من ناحية ، المجهود الذى سيطلب من الجيش المصرى وجيش الملكة والذى تشير اليه فى كتابك ، ومن ناحية أخرى ، المصاعب السياسية الدولية التى قد تنشأ من وصول مكتشف فرنسى الى النيل قبل وصولنا نحن الى الخرطوم . على أن مثل هذا الخطر لا يخيفنى لأننا مهما كانت الظروف سنعرف كيف نواجهه » .

وبعد أن أكد سالسبرى أن أى احتلال فعلى (اشارة الى مارشان) لن يكون جديا قط قال مؤيدا فكرة التأجيل :

« يجب أن لايغيب عنا أننا بقضائنا على قوة الدراويش نقتل بأيدينا المدافع الذى يحتفظ لنا الآن بالوادى » .

وهذا هو النص الانجليزى لهذا الاعتراف الخطير :

It is to be remembered that by destroying the Dervish power we are killing the Defender who is holding the valley for us now.

وقد ورد فى مذكرات بلنت فى سنة ١٨٨٥ اعتراف من هذا القبيل هذا نصه :

« ٢٦ مارس (١٨٨٥) — توجد علائم على أن حملة سواكن قد قاربت النهاية ...

---

(١) Lord Lansdowne, A Biography by Lord Newton. 1929, p. 148

« تعشيت اليوم عند سدنى بكستون (عضـــو مجلس النواب) وجلست بجانب مدام كورتنى ، وكان على الجانب الآخر منى مدام بكستون التى حدثتنى أن اللورد هارتنجتون قد كتب أخيرا الى صديق له قائلا انه ليس فى وسعه أن يفهم لماذا يقاتلون المهدى مع أنه ، أى المهدى ، ثبت أنه الرجل الوحيـد الذى كان ينفـذ سياسة وزراء صـاحبة الجلالة [1] » .

هذان الاعترافان يلقيان كل الضـوء على السياسة الانجليزية فى السودان منذ بيكر (١٨٧٠) وغردون الى كتشنر واستعادة السودان (١٨٩٨) .

والمهم أن مصر لم تتنازل قط عن حقوقها فى جميع الممالك التى كانت تتألف منهـا الامبراطورية السودانية . ورد فى الكتاب الأزرق الذى أصدره اللورد سالسبرى فى سنة ١٨٩٨ عن مسألة فاشودة كتاب من بطرس غالى باشا وزير الخارجية جاء فيه :

« ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغب عن نظرها فى حين من الأحيان العودة الى استئناف احتلال الأقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة ذاتها لمصر . ومصر لم تنسحب من تلك الأقاليم الا عقيب قوة قاهرة . وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة .

« ولعلم الحكومة المصرية أن مسألة فاشودة فى هـذا الأوان هى موضوع مفاوضات بين بريطانيا العظمى وفرنسا ، فانها تكل الى أن أطلب من سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد اليها الأقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد أحمد » .

---

(١) Gordon At Khartoum, By W. S. Blunt, London, 1911, p. 404

الفصل الخامس عشر

حدود الامبراطورية الجغرافية

كلتا الخريطتين الخريطة التى وضعها أركان حرب الجيش المصرى فى سنة ١٨٧٨ ونشرها الأمير عمو طوسن فى كتـابه (مديرية خط الاستواء) والخريطة التى نشرها الدكتور أبت Abbate عن الاستكشافات الجغرافية فى عصر اسماعيل لا تخلو من نقص كبير .

ولعل أدق وصف لحدود السودان أو الامبراطورية السودانية قبل الثورة المهدية هو ما كتبه استيوارت فى تقريره لسنة ١٨٨٣ وما كتبه هارى جونستون فى كتابه (بريطانيا عبر البحار . أفريقيا) . وقد ذكرنا من قبل وصف استيوارت لكنا نعيده هنا لأن الوصفين يكمل بعضهما بعضا ويكونان معا صورة صحيحة لحدود السودان .

قال الكولونيل استيوارت : « ان البلاد التى يحتلها الآن المصريون ويطلقون عليها اسم (السودان) لهى بلاد كبيرة جدا مترامية الأطراف طولها من الشمال الى الجنوب — أى من أسوان الى خط الاستواء — نحو ٢٤ درجة أو ١٦٥٠ ميلا ، وعرضها من مصوع الى غربى دارفور نحو ٢٢ درجة أو ١٢٠٠ الى ١٤٠٠ ميل ، واذا ابتدأنا من نقطة برانيس على ساحل البحر الأحمر شرقا على خط موزاة الدرجة ٢٤ الى نقطة غير معينة فى صحراء ليبيا تعترضها الدرجة الثامنة والعشرون خط الطول ، ومن هناك يتجه خط الحدود جنوبا الى الغرب حتى الزاوية الشمالية

الغربية من دارفور فى نقطة تقع حوالى درجة ٢٣ من خط الطول ثم يتجه فى استقامة نحو الجنوب الى الدرجة ١١ أو ١٢ ، ثم يتجه جنوبا بشرق عبر مونبوتو وبحيرة نيانزا حتى يماس مدخل فكتوريا نيانزا ويصعد من هناك شمالا الى الشرق فيشمل اقليم هرر ثم يصل الى المحيط الهندى عند رأس جردفوى ويصير على ساحل البحر الأحمر حتى برانيس » .

وقد أضاف استيوارت بعد ذلك الملحوظة الآتية : « لقد رأيت من الأفضل أن أضع مديرية هرر ضمن حدود السودان ، لأن هرر ليست وحدها تابعة لحكومة السودان ولكننا لا نعلم الا القليل عن الجهات الواقعة بينها وبين السودان فمن المستحيل القول أين تنتهى مديرية معينة وأين تبتدىء أخرى .

« ان جميع المنطقة الواسعة فى جنوب الحبشة والممتدة من فكتوريا نيانزا الى المحيط الهندى تكاد تكون من الناحية العملية مجهولة تماما . وسكانها من جالا وسومال وآخرين لا يشجعون السائحين على ارتياد بلادهم » .

وقد أرفق تقرير استيوارت بخريطة رسمها ميسيداليا فى الخرطوم سنة ١٨٨٣ وهى مطابقة فى خطوطها الأساسية لوصف استيوارت . والواقع أن حدود السودان الغربية بناء على هذه الخريطة بعد أن تتجه جنوبا الى الغرب حتى الزاوية الشمالية الغربية من دارفور فى نقطة حوالى درجة ٢١ من خط الطول (لا ٢٣ كما يقول استيوارت) تتجه جنوبا فى خط مستقيم تقريبا لغاية ملتقى نهر امبومبو ونهر الأولة فى الأوبانجى ومن هناك تتجه جنوبا بشرق مع الأولة حتى منوبوتو ثم تمر بالجنوب الغربى من بحيرة أليبرت نيانزا — التى كانت تظللها الراية المصرية — حتى تصل الى ساحل فكتوريا نيانزا الشمالى .

وتعتبر خريطة بوختا الألمانى التى ظهرت فى كتابه (السودان تحت الحكم المصرى) أدق بكثير من خريطة ميسيداليا فى رسم حدود جنوب غربى السودان أو حدود بحر الغزال ومديرية خط الاستواء من ناحيـة حوض الكونغو ومجرى الأولة وامبومو اللذين يجتمعان فى الأوبانجى .

وعلى أية حال ان أهمية خريطة ميسيداليا وتحديد استيوارت تبدو فى وضع الأونيورو وأوغندة ضمن حدود السودان والاعتراف بأن مديرية خط الاستواء أو مديريات خط الاستواء كانت تمتد جنوبا حتى ساحل فكتوريا .

يضاف الى ذلك أن استيوارت وضع ضمنا المنطقة الواسـعة الواقعة فى جنوب الحبشة بين هرر وفكتوريا نيانزا — والتى لم تحتلها الحبشة بعد — فى منطقة النفوذ المصرية (كافا وبلاد الجالا والسومال) . وقد ذكرنا من قبل ان اسماعيل كان يريد خلق مواصلات منتظمة وفتح طريق نفوذ فى هذه المنطقة من هرر الى البحيرات . وحسب مصر أنها كانت فعلا تملك نقط ارتكاز قوية فى أطراف هذه المنطقة وكان نفوذها يوغل فيها تدريجيا .

وبناء على تحديد استيوارت وميسيداليا كان خط الحدود الجنوبى الشرقى ينتهى على المحيط الهندى الى نقطة قريبة من رأس جردفوى فى الشمال ، ولكن جونستون جعــل هــذا الخط ينتهى عنــد مصب نهر الجب .

قال هارى جونستون : « كان السودان المصرى يمتد غربا لغاية حدود وادای وحوض الكونغو ، وجنوبا لغاية أوغندة ، وشرقا لغاية الحبشة وبلاد الجالا . وعلى مسافة من ذلك كانت الامبراطورية المصرية تشمل جميع مملكة السومال من الشمال الى الجنوب حتى نهر الجب باستثناء بعض المين المنعزلة التى كان يحتلها سلطان زنجبار [١] » .

---

(١) هارى جونستون (بريطانيا عبر البحار . أفريقيـا) بالانجليزية (ص ٢٣١) .

وليس أدل على عبقرية اسماعيل من أنه حاول سبق أوروبا الى تقسيم أفريقيا وانشاء امبراطورية أفريقية فى حدودها الطبيعية والروحاونية ، فى حدود وادى النيل ومنابع النيل وممالكها وفى حدود العنصر العربى الذى أوغل فى أواسـط أفريقيا ، فكانت هذه الامبراطورية متماسكة متجانسة الى حد كبير من ساحل البحر الأحمر الى المحيط الهندى الى البحيرات وقد أسست انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٥ — ١٩٠٠) امبراطوريتها السودانية على القواعد التى رسمها اسماعيل وأنشأت خطها الحديدى من مونباسة الى بحيرة فكتوريا وجعلته يمر بين جبلى كينيا وكيليمانجارو طبقا لمشروع اسماعيل القديم الذى منعته من تنفيذه .

ولم تكن أهمية هذه الامبراطورية الروحانية تقل عن أهميتها المادية لأن مصر كانت تعمل على ترقية العناصر العربية المتأخـرة المنتشرة فى السودان وساحل البحر الأحمر وهرر وبلاد السومال ، وكانت فى الوقت نفسه تتوغل بحضارتها ولغتها ودينها فى بلاد الجالا والوثنيين بين السومال والبحيرات وفى بلاد الزنوج الوثنيين فى مديريات خط الاستواء ومنابع النيل .

وقد ارتكب اسماعيل غلطتين كبيرتين وهو يبسط حدود امبراطوريته الأولى الاسراف فى الاستعانة بالانجليز وأعوانهم من الأجانب والثانية حرب الحبشة (سنة ٧٦) . أما الأولى فقد درسناها فى هذا الكتاب وعرفنا نتائجها وأما الثانية فان الأحباش ليسوا زنوجا وثنيين يمكن ادماجهم وليسوا عربا فكان يجب والحالة هذه مراعاة عامل التجانس الذى هو العامل الأساسى فى كل سياسة بنائية ثابتة — وذلك بصرف النظر عن العوامل الأخرى — وقد ارتكبت الحبشة فيما بعد نفس الغلطة باحتلالها هرر الاسـلامية واخضاعها لنظامها وارتكبتها ايطاليـا حين أرغمت النجاشى منليك (فى مايو سنة ١٨٨٩) على قبول الحماية الايطالية ووافقت انجلترا بمعاهدة ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ التى عقدتها مع ايطاليا على وصل

حد السومال الجنوبى بالنيل الأزرق فدخلت أتيوبيا كلها وملحقاتها هرر وشوا وكافا فى منطقة النفوذ الايطالى ولكن انتصار الأحباش على الطليان فى عدوة سنة ٩٦ قضى على هذا التوسع الضخم .

وعلى أية حال لا يفوتنا أن نقرر بهذه المناسبة أن المالى الكبير كيف Cave ذكر فى تقريره الشهير الذى نشره فى سنة ١٨٧٦ : « ان السودان كما علمنا بلد غنى بثروته وسكانه والقمح الذى يغله ، وانه بعد دفع نفقات دارفوروتجريدة البحيرات يدخل فى الخزانة العامة دخل صاف يبلغ ١٥٠٠٠٠ جنيه .

« ولاشك أن احتلال دارفور وحملة البحيرات الاستوائية ليسا بالعمل الناجح فى التعبير التجارى ، وقد دخل الخديوى الى حد فى هذين المشروعين لالغاء تجارة الرقيق ، ويمكن القول ان حرب الحبشة قد فرضت عليه تقريبا . ومن المحتمل أن ينسحب فى أقرب وقت من الحبشة وخط الاستواء » .

ان حرب الحبشة قد فرضت عليه تقريبا كما فرض عليه الغاء تجارة الرقيق بتكاليفها العنيفة الباهظة وتعيين الأجانب وقد حاول الانجليز بطريقة جدية ابتداء من سنة ١٨٧٦ (وهى السنة التى ظهر فيها تقرير كيف) التطرق الى حد الامبراطورية الجنوبى (أوغندة ومنابع النيل وخط الاستواء) بعد ما تسربت اليها فى الداخل عوامل الضعف من جراء تجارة الرقيق والأجانب المشرفين على الغائها .

وقد ساعدت انجلترا بسياستها « الهجومية » المسلحة التى جرت عليها نحو مصر وامبراطوريتها منذ سنة ١٨٨٢ الدول الأخرى (ايطاليا وفرنسا وبلجيكا والحبشة) على انتهاج نفس السياسة والاعتداء على حدود مصر وحقوقها .

١ — ارتيريا — ذكرنا من قبل كيف تكونت ارتيريا . فقد اشترت

شركة ايطالية ميناء عصب سنة ١٨٦٩ من أحد الزعماء المحليين ثم اشترت الحكومة الايطالية الميناء من الشركة فى سنة ١٨٨٢. وبدأت توجد فيه ادارة منتظمة مباشرة . وكان الطليان يقولون عن توسعهم فى الساحل أنهم سيعملون بمساعدة انجلترا « على اصطياد مفاتيح البحر الأبيض فى مياه البحر الأحمر » . وقد احتلوا مصوع فى فبراير سنة ٨٥ واستخدموا جنود الحامية المصرية الباشبوزق فى بسط سلطانهم . واحتلوا فى نفس الوقت بيلول فى شمال عصب واستخدموا جنود حامية زولا الباشبوزق وأعلنوا فى سنة ١٨٨٨ ميناء زولا ضمن أملاك ايطاليا . وأخذوا بعد ذلك يبسطون حمايتهم على القبائل المجاورة حتى امتد نفوذهم من رأس قصار (جنوب سواكن) الى أوبوك (١١٠٠ كيلو متر على الساحل) . وفى مارس سنة ١٨٩٠ صدر مرسوم ملكى ايطالى نظم الممتلكات الايطالية على البحر الأحمر وسماها مستعمرة (ارتيريا) .

ومن ارتيريا كانت تفكر ايطاليا فى اخضاع الحبشة لسيادتها فأمضت مع منليك فى ٢ مايو سنة ١٨٨٩ معاهدة أوتشالى التى بسطت بها حمايتها على أثيوبيا . ولم تكن هذه الحماية وهمية الا فى أعين بعض الدول لأن معظم الخرائط والمعاهدات الانجليزية التى وضعت بعد ذلك التـاريخ بصـدد الاعتراف بمناطق النفـوذ كانت تدخل أثيوبيا كلها والممالك التابعة لها فى منطقة النفوذ الايطالية .

وفى نفس السنة التى أمضيت فيها معاهدة أوتشالى (١٨٨٩) أخذت ايطاليا تتوسع فى ارتيريا على حساب الحبشة فاحتلت كرن (أو سنهيت) مركز بوغوص ثم أغوردت ثم أسمره (يوليه) . وهذه المدينة الأخيرة فى موقع هام عند مصب المارب وعلى طريق مصوع — عدوة .

أما بوغوص فكانت مصر تحتل أطرافها منذ عهد محمد على وقد احتلتها كلها سنة ١٨٧٤ هى وأرض أيلات Ailet (وهذه الأخيرة مديرية واقعة

بين حماسين ومصوع) . وفى ٣ يونيه سنة ١٨٨٤ أرغمت انجلترا مصر بمقتضى معاهدة عدوة (بين مصر وانجلترا والحبشة) على التنازل للنجاشى عن سيادتها على الأراضى التى تحتلها قبيلة بوغوص . وقد تعهد الطليان باحترام هذه المعاهدة ولكنهم خرقوا نصوصها .

ولما انهزم الطليان فى عدوة (أول مايو سنة ١٨٩٦) أمضى الطليان مع منليك فى ٢٦ أكتوبر (١٨٩٦) معاهدة أديس أبابا التى ردت الى الحبشة استقلالها ورسمت بصفة مؤقتة الحدود التى تفصل ارتيريا عن الحبشة على خط مارب — بيليسا — مونا . وفى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ حدث الاتفاق النهائى واستقرت الحدود على خط سيتيت — تودلوك — مارب — بيليسا — وكان هذا التعديل لمصلحة ارتيريا — كما رسمت الحدود بين السودان المصرى الانجليزى وارتريا (مادة أضيفت بناء على تحريض انجلترا) . وقد ظلت أماديب وبوغوص منـــذ أواخــر سنة ١٨٨٩ ضمن حدود ارتريا الايطالية .

٢ — السومال الفرنسى — فى ١١ مارس سنة ١٨٦٢ عقد وزير خارجية فرنسا مع أبى بكر أحد مشايخ خليج تاجورة معاهدة تخول فرنسا ، نظير دفع مبلغ ٥٠٠٠٠ فرنك حق امتلاك ميناء أوبوك وقطعة أرض تمتد من رأس دميرة فى الشمال الى رأس على فى الجنوب . وتعهد أبو بكر ورؤساء الدناكل التابعين له أن يرفض أى عرض تتقدم به دولة أجنبية دون موافقة فرنسا .

ولكن فرنسا لم تعن مطلقا بتحديد هذه الأرض أو اقامة أى نظام فيها ولم يقم فيها أى وكيل فرنسى . وكانت مصر لا تعترف بأمثال هذه المعاهدات لأنها تعقد مع شيوخ غير مسؤولين فى بلاد واقعة تحت السيادة التركية أو المصرية . ولذلك بادرت مصر برفع رايتها عليهـــا توكيدا لحقوقها . وقد احتجت فرنسا على ذلك ســـنة ١٨٨١ ولكنها لم تفكر

الا فى سنة ١٨٨٣ فى استغلال أوبوك وتوسيع رقعتها لأن أوبوك بحدودها القديمة الضيقة لم يكن لها أى مستقبل تجارى . وقد دعا الحاكم الفرنسى لاجارد Lagarde جميع زعماء البلاد المجاورة الى طلب حماية فرنسا ، وتمكن فى سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ من عقد محالفات مختلفة معهم ترتب عليها امتداد الحماية الفرنسية على تاجورة وجميع بلاد الساحل من رأس على الى ما وراء أمبادو بالقرب من زيلع ، وبذلك أصبحت المستعمرة مصاقبة للمناطق التجارية فى الجنوب . وفى بداية سنة ١٨٨٨ استولت فرنسا على رأس جيبوتى وهى آخر نقطة جنوبية فى خليج أوبوك ولم تتردد فى احتلال دونجاريتا الواقعة على ساحل السومال بين زيلع وبربرة مما اضطر انجلترا الى الاتفاق مع فرنسا فى سنة ١٨٨٨ لحملها على ترك دونجاريتا نظير الاعتراف بمنطقة نفوذها .

وفى مايو سنة ١٨٩٦ صدر مرسوم فرنسى تقرر بمقتضاه وضع أرض أوبوك وحمايتى تاجورة وساحل السومال تحت ادارة موحدة قضائية ومالية ، وأطلق عليها من ذلك الوقت اسم ساحل السومال الفرنسى وملحقاته وصارت حاضرته جيبوتى بدلا من أوبوك لأن ميناءها أصلح كما أنها على رأس طريق أسهل وأقصر يصل الى الجالا وهرر .

٣ — السومال الانجليزى أو سوماليلاند . ويقع على خليج عدن وهو أهم مناطق السومال وفيه أشهر مينه زيلع وبلهار وبربرة .

٤ — السومال الايطالى — كان امتلاك أريتريا سببا فى عزل أثيوبيا عن البحر الأحمر ولم يبق لاثيوبيا حدود مفتوحة الا فى الجنوب ولكن الطليان عملوا على اغلاق هذا المنفذ الذى يصل أثيوبيا بالعالم الخارجى .

ذلك أن الحدود الجنوبية تولى وجهها شطر المحيط الهندى . وتقع بينها وبين الساحل بلاد الجالا وبلاد السومال . ويمتد ساحل السومال على المحيط الهندى من خليج تاجورة لغاية مصب نهر تانا على طول

٢٢٠٠ كيلو متر . ويقسم نهر الجب الساحل الى قسمين غير متساويين فى الشمال والجنوب : فى جنوب الجب توجد سلطنة ويتو وقسمايو وفى الشمال مين براوة ومركا ومقدشو (أو مين ساحل بنادر) وسلطنتا أوبيا وميجورتين . وتنتهى هـذه الأخيرة فى رأس جـردفون (أو جردفوى) .

وكانت مصر تحتل احتلالا فعليا السومال من خليج تاجورة لغاية رأس حافون على المحيط الهندى . وكان نفوذها يمتد لغاية الجب الذى احتلته فى أواخر سنة ١٨٧٥ ثم أخلتـه . وقد احتـل الانجليز فى سنة ١٨٨٤ منطقة السومال على خليج عدن ففكر الطليان فى احتـلال بقية الساحل وبلاد السومال خصوصا وان ساحل السومال هو المنفذ الطبيعى لبلاد الجالا وأثيوبيا الجنوبية نحو المحيط الهندى وخليج عدن . وكانت ايطاليا تطمع فى احتلال هرر وساحل السومال جميعه بمساعدة انجلترا .

وسرعان ما أمضت ايطاليا مع سلطان أوبيا فى فبراير سنة ١٨٨٩ صك الحماية . وفى ٧ أبريل من نفس السنة أعلن سلطان ميجورتين بدوره قبول الحماية الايطالية .

ثم رأت انجلترا وايطاليا أن تحددا منطقة نفوذهما على ساحل البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقى فوقعتا فى ٢٤ مارس سنة ١٨٩١ معاهدة أولى رسمت الحد الفاصل بين المنطقتين فى ساحل السومال : كان ذلك الحد يذهب صعدا مع الجب من مصبه على المحيط الهندى ، تحت خط الاستواء تقريبا ، لغاية درجة ٦ من خط العرض الشمالى . وقد تنازلت انجلترا لايطاليا عن المين الأربعة التابعة لزنجبار والتى أرغمت المصريين على اخلائها فى سنة ١٨٧٥) : براوة ومركا ومقدشو وورشيخ الواقعة فى شمال الجب ، ولم تحتفظ لنفسها على ساحل بنادر من مينه الا بمدينـة قسمايو كما احتفظت بمنطقة الجب .

بقى تحديد السومال الايطالى من ناحية الممتلكات الانجليزية على خليج عدن . كانت انجلترا تحتل الساحل من خليج تاجورة لغـاية درجة ٤٩ من خط الطول شرق جرينوتش ، وكانت الحماية الايطالية تمتد لغاية رأس حافـون شمالا على المحيط الهنـدى . وبين رأس حافون ودرجة ٤٩ من خط الطول يوجد الركن الأفريقى الشرقى الذى يهيمن عليه رأس جردفون . وقد تنازلت انجلترا لايطاليا بمعـاهدة ٥ مايو سنة ١٨٩٤ عن رأس جردفون وجميع المنطقة المحيطة به التى يبلغ طول ساحلها ٤٠٠ كيلو مترا (من رأس حافون لغـاية درجة ٤٩ من خط الطول شرقا) وبذلك أصبح ساحل السومال الذى تمتلكه ايطـاليا لغاية نهر الجب يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلو متر تقريبا .

٥ — أفريقيا الشرقية الألمانية : بدأت ألمانيافى سنة ١٨٨٥ تستولى على أملاك زنجبار فى أفريقيا الشرقية فاضطرت انجلترا الى امضاء معاهدة ٢٩ أكتوبر — أول نوفمبر سنة ١٨٨٦ مع ألمانيا : أصبحت بمقتضى هذه المعاهدة حقوق سيادة سيد برغش سلطان زنجبار مقصورة أولا على قطعة ممدودة على أرض الساحل من نهر مانتجانى لغاية كيبينى الواقعة عند مصب نهرتانا ولا يزيد عمقها فى الداخل عن عشرة أميال ، ثانيا على جزر زنجبار ومافيا وبمبا ولامو ، ثالثا على مين ساحل بنادر الخمسة . وقد نص على أن تكون سلطنة ويتو الواقعة فى شمال كيبينى تابعة لألمانيا .

ثم اتفقت الدولتان فى نفس الوقت على تحديد مناطق نفوذهما فى أفريقيا الشرقية ، فامتلكت ألمانيا الساحل من مصب روفوما الى مصب فانجا (حوالى ٨٠٠ كيلو متر) عدا سلطنة ويتو . كما أن جبل كيليمانجارو بكتلته الضخمة أصبح ضمن حدود أفريقيا الشرقية الألمانية التى كانت تمتد لغاية شرقى بحيرة فكتوريا نيانزا .

على أن أطماع جمعية الاستعمار الألمانية كانت ترمى الى بسط السيادة الألمانية على جميع بلاد السومال وعلى منابع النيل وممالكها . ومعلوم أن

بلاد السومال تمتد على ٢٠٠٠ كيلو متر من الساحل تقريبا وتوغل فى الداخل لغاية بلاد الجالا واثيوبيا . وكان يتزعم السومال من ناحيـة الساحل رئيسان مستقلان هما سلطان أوبيا وسلطان ميجورتين . وقد سبقت شركة الاستعمار الألمانية الطليان الى عقد معاهدات فى سنتى ١٨٨٥ و ١٨٨٦ مع سلطانى أوبيا وميجورتين اللذين تنازلا للشركة عن سيادتهما من ويتو الى حدود الممتلكات الانجليزية على خليج عدن .

وكان أنصار الاستعمار الألمانى يفكرون فى مد حدود امبراطوريتهم الافريقية من المحيط الهندى شرقا الى الاطلانطيقى غربا . فذهب الدكتور بيترز على رأس حملة الى أعالى النيل لانشاء محطات والاستيلاء تدريجيا على أوغندة والأنيورو وربطهما بساحل أفريقيا الشرقية الألمانية . وحاول فى الوقت نفسه أمين باشا ، بعد دخوله فى خدمة ألمانيا ، استرجاع مديريته القديمة .

ولكن الحكومة الألمانية خشيت مغبة المغامرات الافريقية والاصطدام بانجلترا فرفضت اعتماد المعاهدات المبرمة بين الشركة وشيوخ السومال ، وتنكرت للدكتور بيترز الذى كان نجح فى عقد معاهدة مع أوغندة ، كما أنها أعلنت أن أمين باشا كان يعمل تحت مسؤوليته هو وأن جميع أعماله وحركاته خارج الحدود الألمانية المعترف بها لا تعنيها .

وقد اكتفت ألمانيا ، فى سنة ١٨٨٩ بضم المنطقة الواقعة بين سلطنة ويتو ونهر الجب ، وأبلغت قرار الضم الى الدول فى أكتوبر ، فأسرعت ايطاليا الى احتلال ساحل السومال الذى رغبت عنه ألمانيا .

وفى أول يوليه سنة ١٨٩٠ وقعت ألمانيا وانجلترا معاهدة جـديدة تنازلت الأولى للثانية بمقتضاها عن سلطنة ويتو والمنطقة الواقعة بين ويتو وقسمايو التى ضمتها حديثا (١٨٨٩) . وبذلك دخلت هذه البلاد فى منطقة النفوذ الانجليزى . وفيما يتعلق بالحد الفاصل بين أفريقيا الشرقية

الألمانية وأفريقيا الشرقية الانجليزية فقد ظل تقريبا على حالته كما كان فى سنة ١٨٨٦ ولكنه أقصى عن شرق بحيرة فكتوريا . وبذلك أصبحت المنطقة الانجليزية المعترف بها تمتد مع الجب وتوغل حتى منابع روافد النيل الغربية . وقد اعترفت ألمانيا بالحماية الانجليزية على زنجبار وبمبا ، وكانت هاتان الجزيرتان خارج امتياز شركة أفريقيا الشرقية الانجليزية ، ذلك الامتياز الذى كان يشمل جميع أوغندة والأونيورو وقسما من كاراجوا وبحيرة ألبيرت نيانزا وقسما من بحيرة ألبيرت ادوارد والممالك الواقعة على سواحلها وكذلك مديرية خط الاستواء المصرية وقسما من دارفور وكردفان .

وقد علق على ذلك اسكوت كيلتى بقوله : « لاريب أن هذه المنطقة الهائلة يجب النظر اليها باعتبارها الى حد ما خيالية . وهى تشمل جزءا ضخما من السودان المصرى القديم ، ولئن كانت مصر قد تخلت عنه الا أن الخديوى قد يطالب به اذا ما نجحت شركة أفريقيا الشرقية الانجليزية فى احتلاله فعلا وتوطيد رفاهيته التجارية والصناعية . وفى نفس الوقت يجب أن لا ننسى مطلقا أنه طبقا لقرارات مؤتمر برلين لا يمكن ادعاء ملكية أية أرض مالم يسبقه احتلال فعلى [1] » .

وقد رأينا كيف تم هذا الاحتلال فى السودان والملحقات ، وبأى الوسائل ، وكيف تقاسمت انجلترا والدول الصديقة أو المنافسة الامبراطورية السودانية .

٦ — مديريات خط الاستواء وحدود الكونغو البلجيكى والكونغو الفرنسى .

(١) جاء فى تقرير كرومر لسنة ١٩٠١ : « ان حدود السودان الجنوبية لم تقرر بصفة نهائية وان غوندوكورو كانت تعد الحد الشمالى الأقصى

(١) كتاب (تقسيم أفريقيا) بالانجليزية ص ٣٣٤ طبعة سنة ١٨٩٣

لأوغندة ومونجالا الحد الجنوبى الأقصى للسودان على الضفة الشرقية للنيل . وبمقتضى معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين انجلترا والكونغو تنازلت انجلترا — مع احتفاظها بحقوق مصر فى حوض أعالى النيل — لحكومة الكونغو ، لمدة معينة ، عن القسم الأكبر من بحر الغزال وعن قطعة أرض صغيرة على ضفة النيل الغربية وسط الأراضى المصرية تسمى (حاجز لادو LADO ENCLAVE) واعترفت لها بمنطقة نفوذ فيها .

« ولم يقم البلجيكيون بأن احتلال فعلى فى هذه المنطقة ولكنهم بادروا الى احتلال لادو حوالى سنة ١٨٩٨ عقب حادث فاشودة فأذن الانجليز لهم بالبقاء بشرط أن لا يعتدوا على بحر الغزال . وكانت منطقة لادو تمتد على ١٥٠٠٠ ميل مربع (٥٢٠٠٠ كيلو متر مربع) وعدد سكانها ٢٥٠٠٠٠ » .

وبناء على اتفاق ٩ مايو سنة ١٩٠٦ بين صاحب الجلالة ملك الانجليز وملك الكونغو كان لهذا الأخير الحق فى ادارة لادو مدى الحياة . وفعلا لم تمض ستة شهور على موته حتى أعيدت منطقة لادو ، فى ١٦ يونيه سنة ١٩١٠ ، الى حكومة السودان .

وفى أول يناير سنة ١٩١٤ اقتطع من السودان القسم الجنوبى من منطقة لادو (١٤٠٠٠ كيلو متر مربع) فى غرب بحر الجبل (النيل) وضم الى أوغندة مقابل اضافة مركزى غندوكورو ومنيوت الى السودان .

وقد ساعد امتداد السودان نحو الجنوب حتى نيمول (بازاء دوفيلة) على تيسير الاشراف على جميع الجزء الصالح للملاحة فى النيل الأبيض من أول الخرطوم وكسبت أوغندة البلاد الغنية الواقعة فى غرب النيل وان كانت فقدت اقليم لاتوكا . أما غندوكورو الواقعة على بعد ٣٦ ميلا من مونجالا (عاصمة مديرية مونجالا أقصى مديريات السودان الحالى

وأشدها تأخرا) فانها أهملت من أجل مونجالا وأصبحت كأن لم تكن .
وعلى أية حال يستدل من خريطة أوغندة التى نشرها هارى جونستون فى كتابه الضخم عن (حماية أوغندة) الذى ظهر فى سنة ١٩٠٢ ان الحد الشمالى لأوغندة لم يكن غندركورو الواقعة بالقرب من خط العرض ٥ ولكن كيريندو القريبة من خط العرض ٦ على أن الذى يعنينا أن المؤلف نشر خريطة تبين المناطق الصحية وارتفاعاتها فكانت مناطق الدرجة الأولى وهى الصحية للغاية يتفاوت ارتفاعها من ٥٥٠٠ الى ٢٠٠٠٠ قدم ومناطق الدرجة الثانية ، وهى الصحية الى درجة ما يتفاوت ارتفاعها من ٣٥٠٠ الى ٥٥٠٠ قدم . ومناطق الدرجة الثالثة ، وهى غير صحية ، يتفاوت ارتفاعها من ٢٠٠٠ الى ٣٥٠٠ قدم . ومناطق الدرجة الرابعة وهى غير صحية ويبلغ ارتفاعها ٢٠٠٠ قدم أو أقل . وهذه المناطق الأخيرة أو الأراضى المنخفضة الموبوءة المصبوغة فى الخريطة بلون بنى . كانت لا توجد الا حــول بحيرة رودولف ، ولكن فى رقعة ضيقة جــدا ، وعلى ضفتى النيل ، ولكن فى رقعة واسعة جدا ، تبدأ عند نيمول ضيقة على الجانبين لا يزيد عرضها عن أربعة أو خمسة كيلو مترات فى كل ناحية ثم تتسع تدريجيا مع النيل شمالا ابتــداء من لابوريه حيث تبلغ من ١٠ الى ٢٠ كيلو مترا . ومن رجاف فغندوكورو الى حد أوغندة الشمالى تبلغ ١٠٠ كيلو متر على الضــفة الغربية و ٢٠٠ أو ٢٥٠ على الضــفة الشرقية . وتقع لاتوكا فى شرق غوندوكورو ورجاف أى فى صميم المنطقة الموبوءة . وهذا يبين لنا السبب الحقيقى فى النزول بحد أوغندة الشمالى الى نيمول والاستعاضة عن هذه المنطقة بالمنطقة الغنية الصحية الواقعة غرب بحر الجبل من نيمول الى نقطة قريبة من ماهاجى فى الشمال الغربى من بحيرة ألبيرت نيانزا هذا فيما يتعلق بحدود جنوب السودان من ناحية أوغندة . بقيت الحدود الجنوبية الغربية من ناحية الكونغو .

(ب) فى ٢٩ أبريل ســنة ١٨٨٧ أمضى اتفــاق بين الفرنسيين

والبلجيكيين أصبح بمقتضاه خط التباين بين منطقتى نفوذهما مجرى الأوبانجى ابتداء من ملتقى الكونغو لغاية نقطة التقاطع مع خط الموازاة الشمالى درجة ٤ . وبعد هذا الخط تعهدت دولة الكونغو بأن لا تحاول بسط أى نفوذ سياسى على الضفة اليمنى للأوبانجى وتعهدت حكومة فرنسا ، من جهتها ، بأن لاتتعرض للضفة اليسرى لهذا النهر تحت خط الموزاة المذكور .

وكان هذا الخط درجة ٤ هو أقصى خط موازلة قرره مؤتمر برلين فى سنة ١٨٨٥ ليكون حد الكونغو الشمالى . ويقول الفرنسيون أن الأوبانجى لم تكن بعد اكتشفت منابعه ومجراه حتى يمكن تنفيذ الاتفاق وتعيين الحدود بدقة ، وان المكتشفين البلجيكيين فى سنة ١٨٨٨ قد تمكنوا من اقامة الدليل على أن الأوبانجى بالقرب من خط الموازاة الشمالى درجة ٤ كان يتألف من اجتماع نهرين أحدهما أمبومو Ambomou والآخر الأوله Ouellé . وكان وكلاء دولة الكونغو يدعون أن مجرى النهر الرئيسى هو امبومو ، وكان الفرنسيون يقولون ان المجرى هو الأوله الذى كان أطول بلا نزاع من امبومو .

ومهما كان من الأمر فان البلجيكيين كانت أطماعهم تمتد الى حوض أعالى النيل فى مديرية خط الاستواء ومديرية بحر الغزال وتجوز الحدود التى رسمها لهم مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ والمعاهدة الفرنسية الكونغولية فى سنة ١٨٨٧ وقد وصلت تجريدة فان فركهوفن ، فى أوائل سنة ١٨٩٣ ، الى النيل واحتلت دوفيلة .

وفى نفس الوقت تقدمت تجريدات بلجيكية كثيرة الى الشمال فاحتلت زونجو وبانزيفيل وبانجاسو وياكوما (١٨٩١) ورافاى (١٨٩٢) وليفى بالقرب من ديم زبير (١٨٩٣) فى بحر الغزال وبلغت حدود دارفور ، فى سنة ١٨٩٤ ، وحفرة النحاس .

فبعد أن كانت حدودهم المرسومة درجة ٤ من خط العرض الشمالى أصبحت دوين درجة ١٠ أى على بعد أكثر من ٧٠٠ كيلو متر من شمال الأولة [١] .

وكان أكبر هم انجلترا فى ذلك الوقت سد طريق التوسع فى وجه فرنسا ومنعها من الوصول الى أعالى النيل قبلها فأراد الملك ليوبولد أن يستغل الظروف لتحل بلجيكا محل انجلترا وبتأييدها لتحقيق هذا الغرض وأراد الانجليز أن يستخدموا البلجيكيين ليكونوا حراسا لهم كالطليان على أن يستردوا منهم البلاد فى الوقت المنـــاسب . وسرعان ما أمضى الفريقان ، الانجليز والبلجيكيون اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ الشهيرة . أجرت انجلترا للكونغو بمقتضى هذه الاتفاقية وذلك بصفة دائمة ، القسم الواقع من مديرية بحر الغزال فى غرب خط ٣٠ جنوب جرينويتش . وأجرت بصفة مؤقتة (مدى حياة ليوبولد) حوض بحر الغزال الواقع بين خط درجة ٣٠ الجنوبى فى الغرب ، ومجرى النيل فى الشرق ، وخط الموازاة درجة ١٠ شمالا . وبذلك امتدت حدود الكونغو البلجيكى امتدادا هائلا من خط الموازاة ٤ الى خط الموازاة ١٠ شمالا ، وعلى النيل لغاية فاشودة شرقا . وصار وادى امبومو جميعه المتنازع عليه بين فرنسا والكونغو ضمن الحدود الجديدة .

وقد تنازل الكونغو لانجلترا عن قطعة أرض عرضها ٢٥ كيلو مترا ممتـــدة فى شمال تنجانيقا وملاصقة لأفريقيا الشرقية الألمانية . وكانت انجلترا تريد الانتفاع بهذه الأرض لمرور الخط الحديدى من الكاب الى القاهرة ووصل ممتلكاتها من الجنوب الى الشمال دون حائل .

وقد ثارت ثائرة فرنسا بسبب بحر الغزال ومسألة وادى امبومو .

---

(١) انظر كوشرى (المركز الدولى لمصر والسودان) ص ٣٩٠ — ٣٩١ (بالفرنسية) .

صحيح ان انجلترا قد احتاطت فى ملحق معاهدة ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بقولها : « بمناسبة تأجير بعض الأراضى فى منطقة النفوذ الانجليزية فى شرق أفريقيا يقرر الطرفان المتعاقدان أنهما لا يجهلان حقوق تركيا ومصر فى حوض النيل الأعلى » ، ولكنها فى الوقت الذى تحتفظ فيه بحقوق مصر وتركيا فى حوض النيل الأعلى تعلن أن حوض النيل الأعلى « فى منطقة النفوذ الانجليزية » وتتصرف فيه تصرف المالك .

وقد احتجت ألمانيا على هذه المعاهدة وأرغمت انجلترا وبلجيكا على سحب الشرط الخاص بامتياز قطعة الأرض الملاصقة لتنجانيقا . ثم جرت مفاوضات بين فرنسا والكونغو انتهت بتعهد الدولة المستقلة (الكونغو) فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ ، بأن لا تحتل أرضا فى شمال لادو كما اتفقتا على تقسيم وادى امبومو الى قسمين متعادلين : الضفة اليمنى لفرنسا واليسرى للكونغو . وتقرر أيضا أنه ابتداء من اندوروماN.DORUMA حيث ينبع نهر امبومو يكون للكونغو الحق فى أن يبسط نفوذه لغاية خط الموازاة درجة ٥ ونصف وعلى النيل لغاية لادو . وبذلك أصبحت دولة الكونغو تملك جميع الضفة الشمالية من نهر امبومو فى شمال خط الموازاة درجة ٤ ، وتملك ابتداء من اندوروما جميع البلاد لغاية خط العرض درجة ٥ ونصف الا أن بعض المواد الخاصة بحدود الكونغو الشرقية سمحت له بالتوسع من هذه الناحية الى ماوراء الخط الفاصل بين حوض النيل وحوض الكونغو وهو الخط الذى نصت عليه معاهدة ١٢ مايو الانجليزية الكونغولية . وقد بلغت مساحة الكونغو بعد هذه المعاهدات نحو ٢٢٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع .

حاولت فرنسا بعد ذلك احتلال الأراضى المكتسبة بمقتضى المعاهدات والتوغل فى بحر الغزال لغاية فاشودة وقد سبق مارشان كتشنر اليها كما هو معلوم ولكن فرنسا تراجعت أمام انجلترا واضطرت بمعاهدة ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ الى ترك بحر الغزال نهائيا والاعتراف بمنطقة

النفوذ الانجليزية فى السودان المصرى لغاية خط الموازة درجة ١٥ أى دارفور وكردفان وبحر الغزال .

على أن المهم أن الفرنسيين قد اقتطعوا من مديرية بحر الغزال جزءا كبيرا كما اقتطع البلجيكيون جزءا من بحر الغـزال وجزءا من مديرية خط الاستواء ، دون أن يشير الى ذلك أحد من مؤرخى الدولتين . وبذلك حدث تعديل كبير فى حدود السودان الجنوبية الغربية . يتضح ذلك من مقارنة الخرائط الجغرافية الحديثة بخريطة مديرية بحر الغزال القديمة وحدودها التى نشرها بوختا الألمـانى الذى صحب جونكر فى رحلاته فى كتابه عن (السودان تحت الحكم المصرى) وخريطة ميسيداليا التى أرفقت بتقرير استيوارت (١٨٨٣) وخريطة مديرية خط الاستواء التى نشرها فيتاحسان فى كتابه (الحقيقة عن أمين باشا) وخريطة بوختا وخريطة ميسيداليا .

وتبلغ مساحة ما استولى عليـه الفرنسيون من بحر الغزال حوالى ١٥٦٠٠٠ كيلو متر مربع وهى الأرض الواقعة شمال امبومو من اندوروما لغاية تفرع نهرى أومبومو والأوله من الأوبانجى .

وتبلغ مساحة ما استولى عليه البلجيكيون من مديرية بحر الغزال التى كان يحدها جنوبا نهر الأوله حوالى ٧٥٠٠٠ كيلو متر مربع بين الأوله وامبومو . وقد اقتطعوا من مديرية خط الاستواء فى غرب بحر الجبل وألبيرت نيانزا لغاية محطة حواش على الأوله (من أواسط مكراكا الى آخر مونبوتو) أرضا تبلغ مساحتها حوالى ٤٥٠٠٠ كيلو متر مربع .

٧ — حدود السودان الشرقية والحبشة : بعد ثلاثة أعوام من معاهدة ٢١ مارس سنة ١٨٩٩ الانجليزية الفرنسية التى سوت حدود السودان المصرى من ناحية الكونغو والصحراء حدثت تسوية الحدود المصرية من ناحية الحبشة . وهذه التسوية التى تمت فى ١٥ مايو سنة ١٩٠٢ بين

الحكومة الانجليزية والامبراطور منليك الثانى شملت الحد الذى يفصل بين السودان المصرى واثيوبيا على مسافة يبلغ طولها ١٤٠٠ كيلو مترا ، وقد رسم الخط الفاصل بحيث يترك للسودان جميع المراكز الضرورية لأمنه وتطوره . فبسطت اثيوبيا حدودها لغاية نهر السوباط واعترف بسيادتها على البلاد الواقعة بين نهرى بارو والجب . وبذلك استولى منليك فى الجنوب الشرقى من السودان على أرض تبلغ مساحتها ٣٦٠٠ كيلو متر مربع . والذى يزيد من قيمة هذه الأراضى أنها متصلة بالسوباط وهو نهر صالح للملاحة فى كل فصل . وفى نظير هذا التنازل حصلت انجلترا على امتيازات اقتصادية عظيمة منها تعهد منليك بعدم القيام بأى عمل من شأنه أن يحدث تغييرا فى النظام المائى للنيل الأزرق ونهر السوباط وبحيرة اتسانا ، ومنحه انجلترا حق مد الخط الحديدى الذى سيصل الكاب بالقاهرة فى أراضى اثيوبيا . وبذلك يمكن وصل أوغندة بالخرطوم بالسكة الحديد الممتدة فى سفح الهضبة الاثيوبية وتجنب طريق المستنقعات النيلى وبعبارة أخرى ربط السودان بأفريقيا الشرقية الانجليزية وانشاء مواصلات منتظمة من مونباسة الى الاسكندرية فى وسط امبراطورية ضخمة تهيمن عليها انجلترا [1] .

وقد اتسعت الحبشة من ناحية السودان بصفة عامة على حساب حدود السودان الشرقية كما اتسعت أريتريا على حساب حدود الحبشة الشمالية وحدود السودان الشرقية معا ولا يزال لهذا الاتساع المجحف صدى فى الرأى العام السودانى .

ذكرت جريدة « الرأى العام » السودانية فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٥ المناطق التى اقتطعت من حدود السودان الشرقية قائلة : « انها الأقاليم التى يسكنها جزء من قبيلة بنى عامر السودانيــة فى اريتريا ، وشرق

(١) أنظر كتاب (أفريقيا للاوربيين) تأليف الدكتور روير بالفرنسية (ص ٩٨) .

القلابات ، ومنطقة المتمة — التى يشهد اسمها بأصلها السودانى — ومنطقة قوبا التى تسكنها قبائل القمر والهمج السودانيـــة ، ومنطقة بنى شنقول المعروفة ، والتى هى ضرورية للسودان نظرا الى خصوبتها ووجود الذهب فيها ، وخاصة أنها كانت جزءا من السودان فى عهد الحكم التركى » .

* * *

ملاحظات عامة :

كانت دول أوروبا فى سنة ١٨٧٦ لا تملك فى أفريقيا الا بقاعا صغيرة مستطيلة على بعض نقط الساحل وكانت مصر تملك امبراطورية ضخمة متماسكة . وكان سلطانها يمتد على جميع ساحل البحر الأحمر الغربى ويمتد على المحيط الهندى لغاية رأس حافون واعترفت انجلترا بهذه السيادة (على ساحل البحر الأحمر وسواحل السومال) فى معاهدة ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ والواقع أن نفوذ مصر كان يشمل بلاد السومال كلها لغـــاية نهر الجب كما قلنا وكان يمتد فى الداخل الى بلاد الجالا فى جنوب الحبشة لغاية منابع النيل .

ولكن بين سنة ١٨٨٢ و ١٨٩٢ حلت انجلترا وايطاليا وفرنسا والحبشة محل مصر عنوة واقتدارا فنشأت مستعمرة اريتريا على ساحل يبلغ طوله ١٢٠٠ كيلو متر وكانت مساحتها حوالى ١٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع .
ويلى اريتريا السومال الفرنسى وتبـــلغ مساحته حوالى ٢٧٠٠٠ كيلو متر مربع .

ويلى السومال الفرنسى السومال الانجليزى وتبلغ مساحته حوالى ٢٥٨٠٠٠ كيلو متر مربع (وسكانه ٣٠٠٠٠٠) ويلى السومال الانجليزى السومال الايطالى وتبلغ مساحته (مع بلاد الجالا) حوالى ٦٠٠٠٠٠ كيلو متر مربع (وتعداد سكانه حوالى المليون) . وهذه المساحة الأخيرة

يدخل فيها منطقة وادى الجب وقسمايو التى كانت احتفظت بها أفريقيا الشرقية الانجليزية ثم تنازلت عنها لايطاليا فى سنة ١٩٢٤ ، وقد ظلت هذه المنطقة منفصلة عن السومال الايطالى لغاية سنة ١٩٢٦ ثم أدمجت فيه .

واستولت الحبشة على هرر سنة ١٨٨٧ وتبلغ مساحتها حوالى ٢٠٢٠٠٠ كيلو متر مربع (وتعداد سكانها حوالى ١٤٠٠٠٠٠) .

ثم تكونت على آثار السيادة المصرية فى خط الاستواء وأوغندة بين المحيط الهندى ومنابع النيل أفريقيا الشرقية الانجليزية وأوغندة . وصارت مساحة أوغندة فى الربع الأولى من القرن الحالى ٣٢٣٠٠٠ كيلو متر مربع .

وفى يولية سنة ١٩٢٠ ارتقت حماية أفريقيا الشرقية الانجليزية الى مرتبة مستعمرة من مستعمرات التاج وسميت مستعمرة كينيا . وبلغت مساحتها — منذ التنازل عن منطقة الجب وقسمايو لايطاليا (١١٣٠٠٠ كيلو متر مربع) — حوالى ٧٧٤٠٠٠ كيلو متر مربع . وكانت انجلترا بعد امتلاكها جبل كينيا تطمع فى امتلاك جبل كليمانجارو لأنه من خيرة الأصقاع لاقامة الأوربيين ولكن هذا الجبل كان على كره منها ضمن حدود أفريقيا الشرقية الألمانية . حتى نشبت الحرب الكبرى (١٩١٤) فاستولت على أفريقيا الشرقية الألمانية (مستعمرة تنجنيقا) وحصلت على انتداب من عصبة الأمم فى سنة ١٩٢٢ . وتبلغ مساحة مستعمرة تنجنيقا حوالى ١٢٣٨٠٠٠ كيلو متر مربع .

وقد استولت الحبشة — عدا هرر — فى سنة ١٩٠٢ على قسم من أراضى السوباط تبلغ مساحته ٣٦٠٠ كيلو متر مربع كما قلنا .

واستولى الكونغو البلجيكى على جزء من مديرية خط الاستواء وجزء من مديرية بحر الغزال على نهر الأولة تبلغ مساحتهما فى تقديرنا مالا يقل عن ١٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع فى أقصى الجنوب الغربى من السودان .

واستولى الكونغو الفرنسى على جزء من بحر الغزال على نهر امبومو تبلغ مساحته فى تقديرنا ١٥٦٠٠٠ كيلو متر فى أقصى الجنوب الغربى أيضا .

وأصبح أقصى حد جنوبى للسودان (من ناحية أوغندة) بلدة نيمول بجوار دوفيلة بعد أن كان على ساحل بحيرة فكتوريا الشمالى .

وبعد اقتطاع كل ما اقتطع وضياع الملحقات التى كانت وحدها تؤلف امبراطورية واسعة أصبح السودان المصرى منذ سنة ١٨٩٩ السودان المصرى — الانجليزى وتبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع أو ٣٤٣٧٠٠٠ كيلو متر مربع أى ثلث مساحة أوروبا وضعف ألمانيا وفرنسا مجتمعتين .

الفصل السادس عشر

المدنيتان فى أفريقيا

مدنية المصريين والعرب ومدنية الغربيين

كتب سيلفا هوايت فى كتابه عن « تطور أفريقيا » الذى ظهر فى سنة ١٨٩٢ ما نصه : « لقد تسلط تعدد الزوجات والرق على أفريقيا ، منذ القدم ، وهما من شر بلاياها ، ولا يمكن القضاء عليهما دفعة واحدة . ولكن يمكن من ناحية أخرى ، محو المشروبات الروحية والأسلحة فى الحال ، وهما أكثر وسائل النفوذ الأوربى انتشارا ، دون أن يتضرر الأفريقيون .

« وقد ثبت أن تجارة المشروبات الروحية البغيضة كانت لها ، على الساحل الغربى ، نتائج مريعة بين المتعاطين ، وهى تشل جهود المبشرين والقائمين بأعمال البر والاحسان ، وهى مقترنة فى نفوس السكان بالمسيحية كما أن تجارة الرقيق مقترنة فى نظرنا بالاسلام ، واننا نحتمل ولا نعمل على محو احدى البليتين بينما نعلن سخطنا ونعمل جاهدين على ابطال الأخرى ، وكلتاهما ، على كل حال ، عمل اجرامى فاضح . وان رياءنا فى مسلكنا ليشف عما تحته للأفريقيين أنفسهم . ولا نبالغ اذا قلنا ان كل تقدم فى أفريقيا مستحيل مالم تمح فيها هذه التجارة الفظيعة المزدوجة .

« وفى جنوب أفريقيا تراجع معظم السكان الأصليين الى الوراء على طول الخط أمام تقدم جنس أجنبى شديد قوى كالهولنديين والانجليز

أو أصبحوا عبيدا وفقدوا مقوماتهم بسبب الاندماج لأن الانتقال من البربرية الى المدنية كان طفرة ... وقد احتفظت قبائل الزولو وحدها بكيانها قدر المستطاع .

« وفى السودان أدى الاحتكاك بمدنية تطابق أحوال الطقس وعبقرية الشعب الى حدوث اندماج طبيعى بين الوثنيين والعرب . وفى هذه الحالة ساعدت ظروف البيئة على التقدم وفي بلاد أعالى النيل رأينا الدولة المصرية تتلاشى بعد أن دبت فى هيكلها عوامل الفساد ، وفى شرقى أفريقيا ، اضمحلت السيطرة العربية كذلك . وكانت الأثنتان تعيشان بتجارة الرقيق فلم تعملا شيئا أو لم تعملا الا القليل لتساعدا على تقدم المدنية بين السكان .

« صحيح ان مؤتمر محاربة الرقيق اجتمع فى سنة ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ، ووضع برنامجا للقضاء على هذه التجارة ولكن أوروبا وان تكن قد ذهبت فى سياستها الى حد تنظيم تجارة الأسلحة النارية الا أنها لم تجاوز ذلك الى الغاء تجارة المشروبات الروحية لأن الأسلحة كان يخشى أن تصوب الى الأوربيين فى حين أن المشروبات الروحية السامة تقتل الوطنيين » .

هذا ما قاله ذلك الكاتب الانجليزى ، ولابد أن نقرر بهذه المناسبة أن محاربة الرقيق ، تحت ستار الأغراض الانسانية ، كان يساعد أوروبا على بسط نفوذها وتشتيت النفوذ العربى المنافس ، ولم يكن الفساد العام أو سود الادارة هو الذى هار القوة المصرية فى أعالى النيل — كما يزعم جميع الانجليز المسؤولين — وانما مصدر الفساد والانهيار هناك هو سياسة الرقيق بالذات ، كما بيناه فى هذا الكتاب — تلك السياسة التى فرضتها انجلترا لبذر بذور الاستياء والفوضى وتحقيق المطامع الأوربية .

وفى شرقى أفريقيا ، أى فى الساحل وزنجبار ، كان سقوط السيطرة

العربية من جراء هذه السياسة نفسها . أما القول أن الدولة المصرية لم تعمل شيئا يساعد على تقدم الوطنيين فهذا مخالف للحقيقة والأعمال المصرية البحتة فى السودان ، من ١٨٢١ الى ١٨٧٧ ، وفى الأقطار المتطرفة من خط الاستواء الى ساحل البحر الأحمر الى بربرة وهـرر وساحل السومال شاهد على ذلك . ومما لا نزاع فيه أن امبراطورية محمد على فى آسيا وامبراطورية اسماعيل فى أفريقيا كانت أسباب الانهيار فى كلتيهما خارجية أى أن منشـأ الانهيار لم يكن الفساد الوطنى الداخلى ولكن الضربات الخارجية القاصمة التى كانت توجهها أوروبا من الخارج .

ولاشك أن العوامل الداخلية كانت وشيجة الصلة بالعوامل الخارجية لأن تسليف الأموال بالربا الفاحش وما يتبعه من خراب مالى وفرض رقابة أجنبية وتدخل مسلح كان خطة أوربية منظمة جرت فى فارس وفى مصر وفى تونس ، وقد ترتب على ذلك أن التطور الطبيعى التقدمى فى هذه البلاد الثلاثة ، وبالأخص فى مصر ، قد عيق وربك بفضل هذه السياسة التى كانت محاربة تجـارة الرقيق وتجارة المشروبات الروحية الرخيصة جزءا من برنامج تدخلها فى أفريقيا .

ولا نبالغ اذا قلنا أن فكرة المدنيـة والانسانية بعيـدة عن عقلية الاستعمار الأوروبى وأغراضه الاستغلالية الاستعبادية . وحسبنا هنا أن نشير الى ثورة مستعمرة لاجوس Lagos الانجليزية الواقعة على ساحل أفريقيا الوسطى الغربى حيث حاول الموظفون الانجليز وشركة نيجيريا الانجليزية افناء السكان بالمشروبات الروحية . وقد وجه الوطنيون سنة ١٨٩٦ الى البرلمان الانجليزى عريضة تحمل ١٢٠٠٠ امضاء من سكان لاجوس وايبادان وأبيوكوتا من مختلف الأديان جاء فيها : « بما أنه ثبت أن تجارة المشروبات الروحية السامة من جن وروم وخـلافهما التى أدخلت فى أفريقيا الاستوائية الغربية ، وفى جميع القارة ، تحدث فيها بلايا عظيمة فى الأجسام والعقول والأخلاق ، وبمـا أننا مقتنعون بأن

الوقت قد حان للقضاء بضربة حاسمة على هذه التجارة فاننا نحن الموقعين أدناه نتعهد بتأييد كل حركة تهدف الى الغائها فى أوروبا أو أفريقيا » .

وكانت حدثت عدة ثورات فى سنتى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ لأن الشركة كانت ترغم الأهالى على احضار محاصيلهم للمصانع الانجليزية ليأخذوا بدلها مشروبات روحية . وكان التجار الألمان والانجليز وغيرهم يتنافسون فى ارسال مقادير ضخمة من هذه المشروبات السامة لحمل الأهالى على تعاطيها . وقد بلغ ما أرسل الى نيجيريا من ميناءى روتردام وهامبورج سنة ١٨٩٧ حوالى ٢٢٠٠ طن من « الجن » وفى سنة ١٨٩٨ نحو ٣٢٠٠ طن [١] .

وقد كتب الدكتور بلايدين D. Blyden يقول : « بين سيراليون ومصر المسلمون هم الدولة الكبرى الوحيدة التجارية والفكرية والأخلاقية وقد ظلت القبائل المتوسطة بينهما أكثر من ثلاثة قرون تحت تأثير الاسلام الذى عمل منذ الفتح على تكييف حياة أذكاها الاجتماعية والسياسية والدينية . وان أتباعه يسيطرون على السياسة والتجارة فى كل أفريقيا الواقعة فى شمال خط الاستواء [٢] » .

وقد علق سيلفا هوايت نفسه على رأى الدكتور بلايدن بقوله : « حين ينتصر رجال أمثال الدكتور بلايدن للاسلام نرانا مضطرين للاعتراف بأن أولئك الرجال ومعارضيهم يقوم منطقهم على أسس متباينة . ولاشك أن حكم الدكتور بلايدن فى مسألة كهذه جدير بكل احترام خصوصا وان الدكتور بلايدن زنجى قح من كبار رجال السياسة والعلم ، وهو فوق ذلك مسيحى . وهو حين يقول ان الاسلام هو أذكى قوة فى السودان فانه بلاشك يقارنه بالوثنية و « الفتيشية » من ناحية

---

(١) انظر كتاب «أفريقيا السياسية فى سنة ١٩٠٠» .
L'Afrique Politique en 1900, Par Bonnefon pp. 176-188

(٢) Christianity, Islam And The Negro Race, p. 260

وبالمسيحية من ناحية أخرى لا بالمسيحية كما نعرفها بل بالمسيحية كما تبدو تعاليمها فى الواقع على ساحل أفريقيا الغربى . وبينا يرى المسيحيين فى أوروبا ينادون بالمذاهب العالية اذا أعمالهم على النقيض مما يعلنون ويقولون فهم يشجعون الرق ويزعمون الغاءه كما يشجعون تجارة المشروبات الروحية والأسلحة . وهو يرى الاسلام يحرم ويحض على عدم الاسراف فى الطعام أو الشراب ، وفى ذلك منجاة الوطنيين وصلاحهم ، ويرى فى الوقت نفسه معظم مبشريه « مبعوثى الاسلام » يطبقون تعاليم دينهم . ويرى الأوربيين يهبطون الى مستوى الوطنيين بينما يجتهد المسلمون فى النهوض بالوطنيين الى مستواهم [1] » .

تكلمنا فى أثناء البحث عن الادارة الانجليزية فى السومال وفى أوغندة وأشرنا هنا الى مساوئها فى نيجيريا وغرب أفريقيا وقد ذكر سيلفا هوايت فضائح ادارة البرتغال وبلجيكا وفرنسا فى كتابه . ووضع الألمانى (لودويج بارو) كتابا عن ليوبولد ملك البلجيك (المكروه) أظهر فيه فضائح الكونغو ومسلك ادارته الهمجى مع الوطنيين [2] .

ووضع انجليزى (موريل) كتابا عنوانه (عبء الرجل الأسود) أظهر فيه مساوىء الادارة الأوربية فى أفريقيا وسياسة الرجل الأبيض « الذى شق طرقا واسعة مملوءة بالدماء من أقصى أفريقيا الى أقصاها [3] » . وذكر المجازر وطرق الاستعباد والاستغلال الوحشية التى أدت الى فناء قسم كبير من السكان وكل ذلك فى سبيل الحصول على المطاط وسن الفيل وغيرهما مما تبتغيه الشركات الرأسمالية وحكوماتها .

ويمكن الاطلاع أيضا على كتب الكاتب الفرنسى أندريه جيد الخاصة

(١) ص ١٨١ و١٨٥ من كتاب سلفا هوايت (تطور أفريقيا) الطبعة الفرنسية . Silva White, Le Développement de L'Afrique

(٢) ظهرت طبعة فرنسية من هذا الكتاب :
Ludwig Bauer, Léopold Le Mal-Aimé Paris, 1935.

(٣) D. Morel, The Black Man's Burden

برحلاته فى أفريقيا ومشاهداته فى المستعمرات الفرنسية .

ولا بأس أن نذكر أن الأوربيين هم أول من أتجر بالرقيق فى أفريقيا وان هذه التجارة فى عهدهم كانت صحيفة سوداء فى تاريخ البشر . كتب جوزف كوبر الانجليزى : « ان تاريخ الاسترقاق قد مضى عليه الآن أكثر من ثلثمائة سنة وبناء على احصاء قام به كاتب فرنسى مدقق ان هـذه التجارة منـذ ثلثمائة سنة قد انتزعت من أفريقيـا أكثر من خمسين مليون رجل [1] .

« ولاشك أن الجرائم والفظائع التى تدل عليها هذه الأرقام تقع أولا على أمم أوروبا المسيحية التى جلبت هذه التجارة فى أفريقيا فى القرن السادس عشر [2] » .

وجاء فى كتاب من أمتع الكتب الحديثة عنوانه (غسق المدنيـة أو الغرب والشعوب الملونة) : « فى الوقت الذى اكتشفت فيه قارات جديدة (اشارة الى أمريكا) وجعل هذا الاكتشاف النفس الغربية الطموح تهز أجنحتها الى عالم اللانهاية فى الثروة المـادية نبتت فكرة استغلال الانسان لشبيهه الانسان فى سبيل تنمية ثرائه وزيادتها الى حد غيرمعلوم . وقد منح شارل الخامس أصدقاءه الفلامان فى أنفرس — سنة ١٥١٦ — الحق فى نقل وبيع العبيد السود فى أمريكا . ولكن انجلترا ستصير هى البلد الذى تزدهر فيه تجارة الرقيق وتصبح أزهى صناعة فى البلاد . وقد منح الكابتن هوكنز — وهو نخاس من الطراز الأول — النبالة

(١) ويرى بعض الباحثين أن عدد الزنوج الذين اقتنصوا واخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون لم يصل منهم سالما الى أمريكا وأصبح صالحا للعمل فى مزارعها أكثر من ٨,٥ مليون باعتبار أن من كل عشرة زنوج يموت تسعة فى البر من جراء الغزوات وفى البحر وهم مكدسون فى قاع الدفين وعند وصولهم بعد مالاقوا من العذاب الوانا .

(٢) صدر هذا الكتاب (الطبعة الفرنسية) سنة ١٨٧٦ وعنوانه (القارة الضائعة وتجارة الرقيق فى أفريقيا)

Un Continent Perdu, par Joseph Cooper Traduit par Ed. Laboulaye Paris, 1876.

« لأنه يرجع اليه الفضل فى تعريف البلاد (انجلترا) بتجارة جديدة » .
وقد نظم الكونت لايسستر والكونت يمبروك ، على قواعد رأسمالية واسعة ، تجارة الرقيق . وكان للانجليز فى سنة ١٧١٣ ، بمقتضى معاهدة دولية الحق فى احتكار مطاردة العبيد ونقلهم وبيعهم . وقد كانت تجارة الرقيق السبب فى انتعاش البحرية التجارية وارتفاع شأنها ، وفى انتشار الرخاء فى مين ليفربول وبريستول ولانكستر .

« وكان فى ليفربول أسطول مؤلف من ١٩٢ سفينة يستطيع نقل ٢٠٠٠٠٠ عبد فى السنة . وكان نصيب العبيد الكرباج والسلال وآلات التعذيب وغذاء البهائم وقبر فى المزبلة وكثيرا ما كان ينتفع بجثث الموتى للسماد . وكان نصيب المتمدينين المستعمرات : قطن وسكر وقهوة ومشروبات روحية . وقد صرح ميريفال Merivale (محاضرات عن الاستعمار والمستعمرات ، ١٨٤١) ان رخاء منشستر وليفربول قام بنيانه على دماء العبيد المتحجرة [١] » .

هذه لمحة الى آثار المدنية الأوربية فى أفريقيا فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر . أما القرن التاسع عشر فقد أرادت أوروبا أن تكفر عن سيئات الماضى وأعلنت حربا صليبية على تجارة الرقيق وقد بينا أنها كانت حربا سياسية تمهد لها سبيل التدخل فى شؤون القارة للاستيلاء عليها وعلى مواردها . وقد اشتركت الدول جميعا فى حروب الابادة والافناء التى شنت على العرب فى أواسط أفريقيا حتى تمكنت بأسلحتها وقوتها الصناعية من اخضاع السكان الأصليين وبلادهم . ولكن كانت نتائج الحروب الاستعمارية فى أفريقيا أشبه بالنتائج التى جرتها سياسة الاسترقاق فى القرون الثلاثة .

وها نحن نضرب مثلا واحدا من أمثلة الاستعمار الانجليزى الذى

---

(١) Arturo Labriola, Le Crépuscule de la Civilisation. L'Occident et les Peuples De Couleur. Paris, p. 53-54.

هو أرقى استعمار فى القارة وذلك فى ولاية بنان الواقعة فى مصب نهر النيجر Benin : « قرر الانجليز اخضاع هذا الشعب الذى حاول جهده أن يحمى استقلاله بمنع الأجانب من دخول المدينة . ولكن كان معلوما أن ملوك بنان يملكون مجموعات نفيسة من البرونز القديم صنع الزنوج . وذاع أن هناك كنوزا دفينة مخبوءة فى غرف تحت الأرض عند ملوك بنان وعلية القوم (الارستوقراطية) ، وكان طبيعيا أن يفكر الانجليز ، وقد ملكوا نيجيريا ، فى وضع يدهم على كل ذلك . فاستذرعوا بالحجة القديمة وهى حدوث « اهانة » لشخص بعض رعاياهم المقدس. وبناء عليه تقرر عمل « تجريدة تأديبية » وقد دافع الملك أوفيرامى ورئيس قوات بنان أولوجبوشيرى خير دفاع عن استقلالهم ضد الغزاة ولكن السهام والحراب وبعض البنادق القديمة ما كانت لتستطيع زمنا طويلا « الصمود » أمام مدافع ومتراليوزات صاحب الجلالة البريطانية . وقد سقطت مدينة بنان . ولكن ذلك لم يكف الانجليز لأن قطع البرنز والكنوز ظلت مخبوءة . عندئذ قر الرأى على تدمير المدينة . وقد زعم الانجليز أن الحريق التى التهمتها كانت قضاءا وقدرا ولكن « مذكرات جراح مع حملة بنان التأديبية » التى نشرتها مجلة الجمعية الجغرافية بمانشستر تسلم بواقعتين الأولى — أن اثنين من حمالى الحملة قد وضعا النار فى عشة من عشش السكان

Tow carriers of the expedition set fire to a hut

والثانية أن المدينة كلها كانت طعمة للنيران فى أقل من ساعة .

In less than an hour the whole place was strawn in ashes

مما يدل على أن الحريق قد أضرمت نارها فى وقت واحد فى أماكن متعددة . وقد هلك مئات من السكان فى هذا الحدث المريع . ثم شرع القوم فى سلب ونهب البرونز وأدوات الزينة المصوغة ، ولكنهم لم يعثروا على كنوز من الذهب المصبت ، عدا الكنوز الفنية . فعول الانجليز على

الانتقام وبعد اجراءات قضائية هازلة خلعوا الملك أوفيرامى ونفوه ، وفى ٢٧ يونية سنة ١٨٩٧ شنقوا أولدجبوشيرى ، البطل الذائد عن مدينة بنان . وبذلك انتهت هذه الدولة التى عمرت من أربعة الى خمسة قرون وذهبت معها مدنيتها وفنها . ولا شك أن تدمير بنان يحتل صفحة خاصة فى تاريخ الجرائم التى ارتكبها الانجليز فى مستعمراتهم .

« تلك هى (المدنية) التى جلبتها أوروبا للسود فى أفريقيا [1] » .

وقد فقد الكونغو البلجيكى فى ظرف ثلاثة وعشرين عاما مالايقل عن عشرين مليون رهط قضت عليهم السياسة الغاشمة التى جرى عليها البلجيكيون ومليكهم ليوبولد .

وبالجملة ان الأوربيين قد حاولوا محو السكان ومحو مدنيتهم القديمة القائمة ومحو المدنية الجديدة المدنية المصرية العربية التى كانت أنسب المدنيات اليهم والتى كانت رحمة ونعمة اذا قيست بمدنية الغرب التى صارت نقمة .

(١) « غسق المدنية » ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ .

الخاتمـــة

حدثت « فوضى » فى مصر فى شكل ثورة سياسية فى سنة ١٨٨١ . وقد كان التدخل الانجليزى سببا فى أن هذه الثورة السلمية فى بدايتها قد خرجت عن جادتها وتحولت فى سنة ١٨٨٢ الى ثورة مسلحة استذرعت بها انجلترا لاحتلال مصر . وفى نفس السنة (١٨٨٢) حدثت فوضى فى السودان فى شكل ثورة دينية . وقـد استذرعت انجلترا باحتـلالها مصر لتشجيع هذه الفوضى على الاتساع والدوام خمسة عشر عاما كاملة تنشر البؤس والموت والخراب فى أرجاء السودان . ثم نصبت انجلترا نفسها وصية على مصر وانتزعت منها السودان وجميع ممتلكاتها بعد أن أرغمتها على اخلائها بالقوة .

جرت انجلترا على سـياسة الاضعاف والتحطيم المنظم نحـو مصر منذ ولاية محمد على لغاية معاهدة لندرة (١٨٤٠ — ١٨٤١) . وكانت هذه المرحلة الأساسية الأولى . وكان افتتاح قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ بداية المرحلة الثانية . وقد كان تعيين بيكر (١٨٧٠) بناء على ايصاء ولى عهد انجلترا ايذانا بتغلغل الاضطراب السياسى والاقتصـادى فى أفريقيا الوسطى .

كتب هارى جونستون بمناسبة افتتاح قنـاة السويس فى كتابه : (بريطانيا عبر البحار ، أفريقيا) : « فى سنة ١٨٧١ عبرت القناة ألف باخرة انجليزية فختم على مصير مصر . وبان كالصبح فى أعين جميع الساسة المستنيرين فى الامبراطورية البريطانية أنه اذا لم تتمكن مصر من المحافظة

على استقلالها كدولة ضعيفة محايدة وجب أن لاتقع تحت سيطرة دولة ما تملك من المنعة والقــوة مايكفى لتحدى بريطانيــا العظمى واغلاق قناة السويس [1] » .

وقد صاغ نفس الفكرة فى أسلوب مختلف اللورد نورثبروك اذ كتب باعتباره رئيس البحر (الأميرالية) الى بيرنج (فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢) بعد ضرب الاسكندرية بالقنابل واحتلال مصر : « حتى ولو كانت الهند منفصلة فانها تخسر أكثر من انجلترا بسد القناة وتعطيل حركة المرور فيها . وانى لا أسلم بأن زيادة بواخرنا الخ تتوقف على القناة . فالأمر بعكس ذلك . لأن خط الكاب من وجهة النظر البحرية هو أفضل الخطوط .. فلو كانت الهند مملكة منفصلة أكان فى مقدورها أن تغفل مصــالحها الحيوية فى سلم مصر ؟ أليس من الخطر عليها أن تقوم فى مصر دولة قوية معادية ، وما الذى يحول دون ذلك ؟ وهل هناك مايتعارض مع منطق النظرية القائلة بأنه لو ترك عرابى ورجال على شاكلته وكانت لهم السيطرة لقامت فى مصر دولة اسلامية مهاجمة ذات شأن أو أن دولة أوربية أخرى كانت تتدخل ، كما تدخلنا ، ولكن بدون أغراضنا الشريفة (كذا) وبفكرة احتلال الشرق ؟ لا شك أن مصالح انجلترا والهند معا تتطلب أن لاتتمكن أمة أخرى من الهيمنة على مصر [2] » .

وبذلك كتب على مصر أن تظل منذ ابتداء القرن التاسع عشر ضعيفة مستضعفة وأن لا تؤدى رسالة المدنية كاملة فى آســيا أو فى أفريقيا من البحر الأبيض الى البحر الأحمر والمحيط الهندى .

وقد حاربت انجلترا محمد على وألبت عليه الدول وحرمته من ثمار انتصاراته وحاولت طرده من مصر بواسطة الباب العالى وأوقعت اسماعيل

(١) Harry Johnston, Africa p. 942

(٢) Thomas George Earl of Northbrook. A memoir, By Bernard Mallet 1908 pp. 166-170.

فى الارتباك المالى فلما رأته فى سنة ١٨٧٩ يؤيد الحركة الوطنية الناشئة ويؤلف حكومة قوية لانقاذ البلاد خلعته ووضعت مكانه أميرا ضعيفا (توفيق) فلما ثار العرابيون ونجحوا فى تأسيس حكومة دستورية قوية ضربت الاسكندرية بقنابلها واحتلت البلاد وأرغمتها على التخلى عن السودان والملحقات لتضمن بذلك أن لا تجد مصر فى الداخل والخارج عناصر القوة والعزة والسلطان وأن تظل فى حدودها الضيقة خاضعة لها .

وقد بلغت مصر أوج محنتها وضعفها بين سنتى ١٨٨٢ و ١٨٩٨ لأن انجلترا أصبحت تهيمن عليها وتمسك بخنقها من طريق القناة ومن طريق النيل معا ، وبدأ مستقبل مصر يضطرب بين هذين الطريقين المائيين .

تكلم سدنى بيل عن وحدة الوادى ، قال : « لا يمكننا بعد اليوم اعتبار احتلالنا مصر كمعبر لنا فى طريق الهند فحسب .. ليست مصر فى الواقع الا جزءا من مملكة النيل الواسعة . وهى فى اتجاهها نحو الجنوب من الاسكندرية الى السويس لا يحد أفقها الا منابع النيل . ولاشك أنه مع الزمن سيصبح المصريون قادرين على حكم مصر . ولكن أشد الناس تفاؤلا ليس فى وسعه أن يتنبأ عن الزمن الذى يصبحون بعده قادرين على حكم السودان . أما صيحة « السودان للسودانيين » فهى أدعى للسخرية .

وهناك أمر واضح كل الوضوح : وهو أن أراضى النيل تؤلف كلها بلدا واحدا . ولا يمكن تجزئة السيادة . فلا بد من يد واحدة قوية تسيطر على ذلك البلد جميعه » .

ولتبرير « وضع اليد » هذا على وادى النيل كله (من أوغندة فالحبشة فالسودان) يقول الكاتب : « لنا مصلحتنا التجارية المباشرة فى امتلاك وادى النيل ، كما ان مصر لا تزال فى طريق الهند » .

ثم يذكر أخيرا واجبات انجلترا كدولة متمدينة نحو شعوب النيل :

« من خمسين عاما مضت وضع أحد البحارة الانجليز الممتازين [1] بعد أن قام برحلة الى الخرطوم والأبيض كتابا عن هذه الرحلة عنوانه « جولة عبر الصحراء النوبية » قال فيه : « لقد رسمت يد الواحد القهار على الصحراء أنها ستكون خط الاتصال مع الأمم النائية . وهذه المهمة لم تنجز بعد . وستكون الصحراء الطريق لنشر المدنية فى أفريقيا ، ولكن لن تكون أمة شرقية ولن يكون دين محمد السبيل الى ذلك ، وانني أحد الذين يعتقدون ويؤمنون بأن الله قد خص انجلترا بهذه المهمة . ولا شك أن حكومة انجليزية وطائفة من الانجليز فى وسعهما القيام بهذا العمل . عندئذ تنشأ المدائن فى أصوان والخرطوم وتنفذ منها المدنية الى داخل البلاد من أقصاها الى أقصاها » .

والواقع أن مصر الحديثة قامت بهذه المهمة خير قيام وبنت المدائن وعمرتها ونشرت المدنية فى أواسط القارة السوداء . وقد تمكنت مصر باعتبارها دولة شرقية عربية أفريقية من بسط مدنية تتلاءم مع أحوال هاتيك الشعوب وحاجاتها لا مدنية سطحية بل مدنية بعيدة الغور تتغلغل فى نفسية الشعب وفى لغته وفى دينه وفى تطوره .

وقد رأينا كيف شجعت انجلترا الفوضى وفصلت السودان وممالك السودان المتطرفة عن مصر فوقفت حركة النمو الطبيعى فى هذه البلاد وأضعفت مصر فى نفس الوقت ووضعت استقلالها فى حدود ضيقة جغرافيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا . فأيا كان الاستقلال أصبح لزاما عليها أن تحسب ألف حساب للخطر الانجليزى الذى يتهددها من ناحية القناة ومن ناحية النيل ابتداء من منابعه أى من جميع النواحى وفى جميع المناطق التى يتألف منها الفضاء الحيوى للنفوذ المصري المتجانس .

---

(١) سير وليام بيل بطل اللواء البحرى فى حرب القرم .

ويمكن تقسيم تاريخ السودان الى أربعة عصور : يرجع الأول منها الى مصر الفرعونية وفيه تقدمت المدنية المصرية أعمال الفتح وتغلغلت فى داخل أفريقيا حتى البحيرات الاستوائية .

وفى العصر الثانى ، وهو عصر التغلغل العربى الاسلامى فى شمال أفريقيا ، وفى شمالها الشرقى ، وفى السودان (بما فيه دارفور والممالك المحيطة ببحيرة تشاد) . وقد كان للمدنية العربية أثر ثورى خصوصا فى الشمال : فى مصر من ناحية وفى الجزائر وتونس ومراكش حيث اندرج البربر فى العرب كما اندرج الزنوج جنوبا (السودان) .

أما العصر الثالث ، الذى هو فى الواقع تتمة للثانى ، فقد توسطهما زمن انحطاط وتدهور أعقبه ظهور مصر الحديثة العربية فى السودان وفى الشمال الشرقى لأفريقيا حيث كانت له نتائج بينات وفى أثناء ذلك العصر (فى السودان من سنة ١٨٢١ الى سنة ١٨٨٢ وفى مديرية خط الاستواء لغاية سنة ١٨٩٨) ظهرت شخصيات سودانية قوية من أصل زنجى تعربت وتنقلت فى مدارج الحضارة المصرية كآدم باشا الدنكاوى الذى كان القائد العام للقوات العسكرية فى السودان وغيره وأخذت عملية اندماج العنصر الأسود فى العنصر العربى تخطو من جديد خطوات واسعة فى أواسط أفريقيا . على أن النفوذ المصرى الذى كان يوغل من الشمال ، من طريق النيل ، نحو الجنوب والبحيرات فاتحا ومؤسسا ومنظما كان يسايره فى الوقت نفسه ، من طريق الساحل شرقا ، نفوذ التجار العرب الذين تغلغلوا فى أوغندة والأونيورو وحوالى البحيرات وسبقوا مصر والأوربيين اليها .

وقد أحدثت مصر فى بلاد السومال وهرر انقلابا ثوريا من ناحية المدنية لاشك فيه .

وينقسم العصر الرابع الى ثلاثة عهود الأول عهد الحكومة المختلطة أو

حكومة الأوربيين : بيكر وغردون فى أفريقيا الوسطى (١٨٧٠ - ١٨٧٣ و ١٨٧٤ - ١٨٧٦) وغردون فى السودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩) . الى هذا العهد ترجع أسباب ومقدمات الثورة المهدية . والثانى (١٨٨٢ - ١٨٩٨) وهو العهد الذى أرغمت فيه انجلترا مصر على التخلى عن السودان وجميع ملحقاته وتمكنت من فصم عرى الوحدة الكبرى التى انتظمت البلاد الأفريقية وأخذت تتسع كل يوم على حساب الهمجية والوثنية ، وحدة اللغة والثقافة التى هيمنت فى قلب أوغندة نفسها فى أيام امتيزا حين كانت اللغة العربية لغة جميع رؤساء الجيش الرسمية وكان نفوذ مصر فيها نفوذ الدولة الحامية . وكان معظم سكان الأونيورو يفهمون العربية وكان كاباريجا مليكها نفسه يحسن التكلم بها .

وقد تمكنت انجلترا فى سنة ١٨٩٩ بعد اعادة الفتح وعمل اتفاقية السودان من وضع قدمها فى السودان ، الذى أصبح من ذلك الوقت (السودان الانجليزى المصرى) وكانت تريد ضمه الى ممتلكاتها ولكنها رأت من الأوفق لمصالحها مشاركة مصر فى ادارته لأنها كانت بحاجة فى عصر الانتقال الى عساكر مصر وأموال مصر ونفوذ مصر الأدبى حتى توطد سلطانها وتنفرد به . ومتى نجحت بمعونة مصر فى اصلاح اقتصادياته ، وتأليف جيش من الوطنيين ، واكتساب نفوذ محلى واسع عملت على قطع آخر صلة تربط السودان بمصر . وهذا ما حدث فى سنة ١٩٢٤ على أثر مقتل السردار السير لى ستاك فى القاهرة .

وقد استذرعت انجلترا بهذه الجريمة الفردية لطرد الجيش المصرى والموظفين المصريين من السودان . ومن ذلك الوقت كلما اضطرت الظروف انجلترا الى تخفيف وطأتها على مصر حاولت أن تجد العوض فى تطبيق سياسة انفصالية بين مصر والسودان أشد وطأة . والتاريخ يعيد نفسه فانه بعد أكثر من نصف قرن عادت انجلترا الى السياسة التى رسمها غردون بين سنتى ١٨٧٧ و ١٨٧٩ أى الى سياستها القديمة التى

كان ينفذها غردون وأعوانه الأجانب وكانت ترمى الى استقلال السودان الذاتى و تعيين موظفين انجليز ووطنيين مكان المصريين (السودنة) وفصل جنوب السودان عن شماله ، والتحقير من شأن كل ماهو مصرى فى أعين السودانيين حتى تتمكن من صدع هذه الوحدة الروحانية السامية التى تتألف منها ومن الوحدة الجغرافية الأساس الذى يرتكز عليه ذلك الاتحاد الأزلى بين شعبى الوادى . وانه لمن الصعب التسليم بأن أمة آتية من أقصى الشمال تدعى لنفسها الحق فى تمدين شعب فى الجنوب غريب عنها فى وضعه الجغرافى وفى جنسه وثقافته وبيئته .

ومهما كان من الأمر فان سياسة ادماج الزنوج فى أفريقيا تلك السياسة السطحية التى جرى عليها المبشرون والمستعمرون الأوربيون لم تأت ولن تأتى بنفس نتائج الادماج العربى من حيث الحضارة والتأثر بها . وهذه حقيقة واضحة جلية .

وقد كان ادماج العرب أو المصريين للعنصر الزنجى أو الأسود ، ذلك الادماج الذى يرمى الى تجـديد الشخصية وخلقها من جـديد وتحريرها فى شكل من الأشكال ، لا الى افنائها أو استعبادها ، عقبة كؤودا فى طريق المستعمرين . ولذلك فانها كانت السبب الحقيقى الأول لحروب المحو والافناء التى أثارتها الدول فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر ضد العرب تحت ستار الانسانية ومحاربة النخاسة والنخاسين .

وقد جرت أوروبا على سياسة التقسيم فى أفريقيا دون أن تحسب أقل حساب لمصالح المدنية والعوامل الأدبية الرفيعة . وكانت لا تعنى بالتفكير الا فى مصالحها المادية والسياسية . فكل فكرة انسانية وكل مطمح عال كانت تخف موازينه أمام « المواد الأوليـة » ومستلزمات التفرد بالجاه والسلطان .

ولا ريب أنه على الرغم من المنافسات والخلافات التى تحدث بينها

كان ممثلو الدول فى ظروف كثيرة يعلنون تضامن أوروبا فى أفريقيا للاحتفاظ بهيمنتها فيها والقضاء على جميع الحركات الثورية « الضارة » التى تتهددها .

وما كانت مصر والسودان لتستطيعا الافلات من تطبيق ذلك القانون الصارم . وكان اتفاق سنة ١٩٠٤ مظهرا من مظاهر هذه السياسة . وغير خاف أن أصل ذلك الاتفاق المنافسة الانجليزية الفرنسية التى بلغت مأزمها فى فشودة . وكانت التسوية تتعلق بمراكش ومصر (ومع مصر مسألة النيل) وقد تقايضت الدولتان نفوذهما على حساب الشعوب .

وما كادت انجلترا بعد هذا الاتفاق تصبح مطلقة اليد فى النيل حتى تفرغت لتوطيد مركزها فى مصر والسودان فضربت الذلة والاستعباد عليهما معا .

كتب واليس بدج Wallis Budge فى سنة ١٩٠٧ فى مقدمة كتابه « السودان المصرى » يقول « والحق يقال ان السودانيين ليس فى استطاعتهم أن يحكموا أنفسهم ولن يستطيعوا ذلك قبل أجيال .

« ان مهمة الادارة فى مصر وفى السودان اللذين هما فى الواقع ونفس الأمر بلد واحد وأرض واحدة هى من الصعوبة بمكان الخ » .

كانت انجلترا بالأمس تنادى بوحدة البلدين التى لا انفصام لها ولكنها اليوم ، وقد أصبحت مصر تحاول تحقيق حريتها الكاملة لا تريد الاعتراف بهذه الوحدة الأزلية بل تعمل على جعل السودان مستقلا عن مصر لا عن انجلترا . والمنطق يقتضى أن تعكس الآية ليتحقق استقلال السودان بالنسبة لانجلترا لا بالنسبة لمصر وأن تحترم هذه الوحدة التى صارت مصر والسودان من جرائها « بلدا واحدا وأرضا واحدة » .

وعلى أية حال ان هذا « الاستقلال » هو غاية هذه السياسة العاتية التى عرفت كيف تجد فى المهدية العنصر الأول من عناصر التفرقة والفصل بين شعبى الوادى .

القسم الأول

المراجع العربيـــة المطبوعة

اسماعيل سرهنك باشا — حقائق الأخبار عن دول البحار (الجزء الثانى) .

نعوم بك شقير — تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته فى ثلاثة أجزاء . القاهرة سنة ١٩٠٣

سلاطين باشا — السيف والنار فى السودان . تعريب جريدة البلاغ . هذه الترجمة غير مأخوذة عن الأصل الألمانى أو الترجمة الفرنسية الصحيحة ولكن عن الترجمة الانجليزية التى قام بها ونجت باشا وهى ترجمة محرفة مشوهة ناقصة وفيها زيادات مغرضة لا توجد فى الأصل .

محمود طلعت — غرائب الزمان فى فتح السودان . الكتاب الأول سنة ١٣١٤ هـ .

ابراهيم باشا فوزى — كتاب السودان بين يدى غردون وكتشنر . جزءان . سنة ١٣١٩ هـ .

ميخائيل شاروبيم بك — الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث (الجزء الرابع) . سنة ١٩٠٠ م . سنة ١٣١٨ هـ .

داود بركات — السودان المصرى ومطامع السياســة البريطانية (١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤ م) .

عبد الرحمن الرافعى بك — مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال (تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢) . القــاهرة (١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م)

مكى شبيكه — السودان فى قرن (١٨١٩ — ١٩١٩) . القاهرة (١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م) .

دكتور محمد فؤاد شكرى — الحكم المصرى فى السودان (١٨٢٠ — ١٨٨٥) . القاهرة سنة ١٩٤٧ .

(الشيخ محمود القبانى) — السودان المصرى والانكليز .

مجموعة رسائل لأحـد أدباء العصر . مطبعة الأهرام بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ .

أمين سامى باشا — تقويم النيل .

(وفـد السودان) — مآسى الانجليز فى السودان . القـاهرة (١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م) .

(محزون) — ضحايا مصر فى السودان وخفايا السياسة الانجليزية . الاسكندرية (١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) .

سمو الأمير عمر طوسن — تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها الى ضياعها . فى ثلاثة أجزاء . الاسكندرية (١٣٥٥ هـ — ١٩٣٧ م) .

— المسألة السودانية (١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م) .

— بطولة الأورطة السودانية فى حرب المكسيك (١٣٥٢ هـ — ١٩٣٣ م) .

الأستاذ محمد أحمد الجابرى — فى شان الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله . دار الفكر العربى . سنة ١٩٤٧

BIBLIOGRAPHIE

I.—SOURCES

Notre principale source a été, outre les mémoires inédits de Nubar Pacha qui sont du plus haut intérêt, les Archives du Palais d'Abdine au Caire et les Archives du Foreign Office à Londres, que nous avons consultées jusqu'à 1890 environ. A part la correspondance consulaire il y a dans le "Public Record Office" un fonds très important relatif aux Revendications de souveraineté dans la mer Rouge, l'Afrique, et l'Arabie (*claims to souvereignty in the Red Sea, Africa and Arabia*). C'est une mine de documents de premier ordre.

II.—BIBLIOGRAPHIES

La première bibliographie sur l'Egypte et le Soudan, a été publiée à Londres, en 1886-1887 par le prince Ibrahim Hilmy: *The Literature of Egypt and the Sudan, from the earliest times to the year* 1885 *inclusive*; 2 vols.

Cette remarquable bibliographie est établie d'une façon scientifique et fourmille de renseignements et de détails précis.

Sur le Soudan en général il faut consulter une récente et importante bibliographie: *A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan from the Eearliest Times to* 1937, par R.L. Hill (Sudan civil Service) London, 1939.

Pour Harrar et l'Afrique Orientale. le savant Autrichier Philipp Paulitschke a publié une bibliographie à la fin de son étude: *Die Geographische Erforshung der Adal-Lander und Harar's in Ost-Afrika* (Leipzig, 1888).

Il existe aussi une bibliographie très intéressante, quoique ancienne, sur l'Afrique: *Bibliographie des ouvrages relatifs à l'Afrique et à l'Arabie*. Catalogue méthodique; par Jean Gay, 1875.

Les bibliographies publiées par les Italiens sur l'Ethiopie, à une date relativement récente, ne sont pas sans rapports directs avec les questions du Soudan, de la mer Rouge, de Harrar et de l'Afrique orientale et présentent, par conséquent, un grand intérêt pour les savants et chercheurs.

III.—PUBLICATIONS OFFICELLES

Les livres bleus et les livres jaunes ainsi que tous les rapports, mémoires et documents officiels publiés sur l'Egypte, le Soudan, et l'Afrique en général, complètent le travail des archives et la documentation "officielle".

IV.—OUVRAGES DIVERS

On trouve dans les bibliographies sus-mentionnées la liste complète des ouvrages relatifs au Soudan et à l'Egypte dans ses rapports avec le Soudan. Nous donnons ici seulement la liste des principaux ouvrages consultés par l'auteur.

A.—Le Soudan :

Bernard Allen, GORDON AND THE SUDAN. London, 1931

Lytton Strachey, EMINENT VICTORIANS (Chapitre intitulé THE END OF GENERAL GORDON). C'est moins une étude qu'un portrait, très vivant du reste. Une traduction sommaire sous le titre: LA FIN TRAGIQUE DE GORDON PACHA, a paru dans la REVUE DES DEUX MONDES, du 15 avril et du 1er. mai 1931.

Victor Cherbuliez, PROFILS ETRANGERS (Charles Gordon).

Miss Gordon, LETTRES OF GENERAL C.G. GORDON TO HIS SISTER London, 1888.

Slatin Pacha, FEUER UND SCHWERT IM SUDAN (1879-1895), Leipzig, Brockhaus, 1896.

Une traduction française de cette étude a paru au Caire. en 1898: G. Bettex, Slatin Pacha, FER ET FEU au Soudan.

Achille Biovès, UN GRAND AVENTURIER DU XIX° SIELE; GORDON PACHA. PARIS, 1907.

Blunt (W.—S.), GORDON AT KHARTOUM. 1911.

Bougler (Dimetrius), LIFE OF GORDON, 1896.

Gordon (sir H.—W.), EVENTS IN THE LIFE OF CHARLES GEORGE GORDON, 1886.

Wilkins (W.—H.), THE ROMANCE OF ISABEL, LADY BURTON.

Jules Cocheris, SITUATION INTERNATIONALE DE L'EGYPTE ET DU SOUDAN. PARIS, 1903.

P. Crabitès, GORDON, THE SUDAN AND SLAVERY. LONDON 1931.

De Malortie, HERE, AND EVERYWHERE.

W. Loring, A CONFEDERATE SOLDIER IN EGYPT, 1884.

Dye, MOSLEM EGYPT AND CHRISTIAN ABYSSINIA.

THE PERSONAL PAPERS OF LORD RENDEL, 1931.

Prof. Adolf Hasenclever, AGYPTENS IM 19 JAHRHUNDERT (1798-1914).

Dr. Abbate Pacha, LE SOUDAN SOUS LE RÈGNE DU KHEDIVE ISMAIL. Notes d'une décade historique (1868-1878). Le Caire, 1905, 47 pages.

Harry Johnson, BRITAIN ACROSS THE SEAS, AFRICA, London, 1911.

Sidney Peel, THE BINDING OF THE NILE AND THE NEW SUDAN, London, 1904.

Wallis Budge, THE EGYPTIAN SUDAN; 2 vols. London, 1904.

SUDAN NOTES AND RECORDS. Cette revue remarquable qui paraît actuellement à Khartoum est à consulter depuis sa première année 1918.

M. Sabry, L'EMPIRE EGYPTIEN SOUS MOHAMED-ALY ET LA QUESTION D'ORIENT. (1811-1849). PARIS, chez chez P. Geuthner. 1930.

M. Sabry, L'EMPIRE EGYPTIEN SOUS ISMAIL ET L'INGERENCE ANGLO-FRANÇAISE (1863—1879.) Paris, 1933.

Prokesch-Osten, GESCHICHTE DES ABFALLS DER GRIECHEN, 5 vols. Les trois derniers sont des recueils de documents en français. Wien, 1867.

ALFRED LYALL, THE LIFE OF THE MARQUIS OF DUFFERIN AND AVA, 2 vols. London, 1905.

J. Scott Keltie, THE PARTITION OF AFRICA. London, 1893.

Major F.R. Wingate, MAHDIISM AND THE EGYPTIAN SUDAN. London, 1891.

Sir Harold MacMichael, THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN. London, 1934.

Arnold Toynbee, SURVEY OF INTERNATIONAL AFFAIRS, 1925. Vol. I. (THE ISLAMIC WORLD SINCE THE PEACE SETTLEMENT).

A.B. Wylde, '83 TO '87 IN THE SOUDAN, 2 vois. London, 1888.

Richard Buchta, DER SUDAN UNTER AGYPTISCHER HERRSCHAFT. 1883-1885. Leipzig, 1888.

Josef Ohrwalder, AUFSTAND UND REICH DES MAHDI IM SUDAN. Innsbruck, 1892.

Sir Harry Johnston, THE NILE QUEST. A Record of Exploration of the Nile and its Basin. London, 1903.

Lord Newton, LORD LANSDOWNE. A Biography. London 1929.

Sir Samuel Baker, THE NILE TRIBUTARIES OF ABYSSINIA. London, 1871.

H. C. Jackson, OSMAN DIGNA. London, 1926.

Emile Banning, LE PARTAGE POLITIQUE DE L'AFRIQUE, les transactions internationales les plus récentes (1885-1888) Bruxelles, 1888.

Van Ortroy, CONVENTIONS INTERNATIONALES, définissant les Limites actuelles des Possessions, Protectorats et Sphères d'influence en AFRIQUE. Paris, 1898.

Sir Edward Hertslet, THE MAP OF AFRICA BY TERATY, 3 vols. London, 1896.

E.—L. Bonnefon, L'AFRIQUE POLITIQUE EN 1900. Paris, 1900.

Jean Darcy, CENT ANNEES DE RIVALITES COLONIALES. L'AFRIQUE. Paris, 1904.

Dr. Gustav Nachtigal. SAHARA UND SUDAN, 2 vols. Berlin, 1881.

Karl W. Kumm, THE SUDAN, LONDON, 1907.

A. Billot, LA FRANCE ET L'ITALIE (1881-1899), 2 vols. Paris, 1905.

Gaston Dujarric, L'ETAT MAHDISTE DU SOUDAN. Paris, 1901.

Lieut-Colonel Count Gleichen, THE ANGLO-EGYPTIAN SUDAN 2 vols. London, 1905.

A. Silva White, LE DEVELOPPEMENT DE L'AFRIQUE. (Traduit de l'anglais). Bruxelles, 1894.

F.L. James, THE WILD TRIBES OF THE SOUDAN. London, 1884.

Henry Russell, THE RUIN OF THE SOUDAN. London, 1892.

H. Pensa, L'EGYPTE ET LE SOUDAN EGYPTIEN. Paris, 1895.

H. Déhérain, LE SOUDAN EGYPTIEN SOUS MEHEMET ALI. Paris, 1898.

George Foucart, UN VOYAGE D'ETUDES AU SOUDAN ANGLO-EGYPTIEN (1913-1914.) Marseille, 1916.

A. Egmont Hake, JOURNAL DU GENERAL GORDON, Siège de Khartoum (Traduit de l'anglais par M.A.B. avec notes et documents inédits). Paris, 1886.

THE JOURNALS OF MAJOR-GEN. C. G. GORDON AT KHARTOUM Introduction and notes by Egmont Hake. London, 1885

Borelli Bey, LA CHUTE DE KHARTOUM. 1893.

H. C. Jackson, BLACK IVORY. or The Story of El Zubeir Pasha, Slaver and Sultan. As Told By HIMSELF. Translated. Khartoum 1913.

Arturo Labriola LE CREPUSCULE DE LA CIVILISATION. L'Occident et les Peuples de couleur.

George Padmore HOW BRITAIN RULES AFRICA London 1936.

E.D. MOREL. THE BLACK MANS' BURDEN. 1920.

Ludwig Bauer. Leopold Le Mai-Aimé. Paris. 1935.

Joseph Cooper. UN COTINENT PERDU OU L'ESCLAVAGE EL LA TRAITE EN AFRIQUE (1875). Traduit de l'anglais per Laboulaye. Paris, 1876.

André Gide. VOYAGE AU CONGO. PARIS, 1927.
LE RETOUR DU TCHAD. Paris. 1928.

G. Douin. HISTOIRE DU RÈGNE DU KHEDIVE ISMAIL. TOME III. L'EMPIRE AFRICAIN. (Trois parties parues. 1863-1876). Le Caire. 1941.

Dr. Rouire. L'AFRIQUE AUX EUROPÉENS. Paris. 1907

B.—L'Equatoria et l'Afrique Centrale :

Hill (George Birbeck), COLONEL GORDON IN CENTRAL AFRICA (1874-1879). London, 1884.

Douglas Murray and Silva White, SIR SAMUEL BAKER. A. MEMOIR. 1895.

Romolo Gessi, SETTE ANNI NEL SUDAN EGIZIANO. 1890—SEVEN YEARS IN THE SUDAN. Lonndres, 1892.

Schweitzer (Georg), EMIN PASCHA, BERLIN, 1898.
EMIN PASHA, His Life and work compiled from his journals, letters, scientific notes and from official documents. With an introduction by R. W. Felkin. Londres, 1898, 2 vol.

Schweinfurth (Dr. G.) et Ratzel (Dr. F.). EMIN PASCHA. Eine Sammlung von Reisebriefen und Berichten aus den ehemal Aegyptischen Aequatorial Provinzen und deren Grenzalendern. Herausgegeben. Leipzig, 1888.

Casati (Gaetano), DIECI ANNI IN EQUATORIA E RITORNO CON EMIN PACHA. Milan, 2 vol.

—DIX ANNEES EN EQUATORIA, LE RETOUR D'EMIN PACHA ET L'EXPÉDITION STANLEY. Traduit de l'italien par Louis de Hessen. Paris, 1892.

Sir Samuel Baker, ISMAILA. Londers, 1875, 2 vol.
—ISMAILIA. Récit d'une expédition dans l'Afrique centrale pour l'abolition de la traite des noirs. Traduit par H. Vattemare. Paris, 1875.

Colonel Chaillé-Long, L'EGYPTE ET SES PROVINCES PERDUES 1892.

Colonel Chaillé-Long, MY LIFE IN FOUR CONTINENTS, 2 vol. 1912.

Junker (Dr. W.), REISEN IN AFRIKA (1875-1886); 3 vols. 1889. TRAVELS IN AFRICA; *traduction anglaise par* H Keane, 3 vols. London, 1890.

Vita Hassan, DIE WAHRHEIT UBER EMIN PASCHA. Berlin, 1893.

Schweinfurth (Dr. George), AU COEUR DE L'AFRIQUE (1868-1871) Traduction française, par Mme H. Loreau. Paris; 2 vol. L'édition anglaise de cet ouvrage, IN THE HEART OF AFRICA, parut en 1873; l'édition allemande, IM HERZEN VON AFRIKA en 1874.

Harry Johnston, THE UGANDA PROTECTORATE, 2 vols. London 1902.

Captain F.D. Lugard. THE RISE OF OUR EAST AFRICAN EMPIRE 2 vols. London, 1893.

Major Austin, WITH MACDONALD IN UGANDA. London, 1903.

The Rev, John Roscoe, THE SOUL OF CENTRAL AFRICA. London, 1922.

Charles Michel, VERS FACHODA. 1900. On trouve dans cet ouvrage des détails for intéressants sur la Harrar et l'Ethipie en 1897-1899.

Sir Gerald Portal, THE BRITISH MISSION TO UGANDA IN 1893. London, 1894.

Rev. C.T. Wilson and R.W. Felkin, UGANDA AND THE EGYPTIAN SOUDAN, 2 vols. London, 1882.

MACKAY OF UGANDA. (Mackay, Pioneer Missionary of th: Church Missionary Society in Uganda). By His Sister. London 1890.

A. J. Mounteney-Jephson, EMIN PASHA AND THE REBELLION AT THE EQUATOR. A story of nine months' experiences in the Last of the Soudan Provinces. London, 1890.

F. Alexis, LA BARBARIE AFRICAINE ET LES MISSIONS CATHOLIQUES DANS L'AFRIQUE EQUATORIALE (Contenant particulièrement les actes des martyrs nègres de l'Ouganda). Paris, 1981.

A.-J. Wauters, Stanley au secours d'Emin Pacha, Paris, 1890.

C.—**La mer Rouge, la Somalie et le Harrâr :**

Cap. Sir Richard Burton. FIRST FOOTSTEPS IN EAST AFRICA OR AN EXPLORATION OF HARRAR, Londres, 1856, 2 vol.

Ralf. E. Drake-Brockman, BRITISH SOMALILAND. Londres 1912.

Gabriel Ferrand. LES COMALIS, Paris 1913.

F. L. James. THE UNKNOWN HORN OF AFRICA. AN EXPLORATION FROM BERBERAH TO LEOPOLD RIVER Londres. 1888.

R.—P. Azais et R. Chambard. CINQ ANNEES DE RECHERCHES ARCHÉOLOGIQUES EN ETHIOPIE, PROVINCE, DE HARAR ET ETHIOPIE MERIDIONALE. Paris, Geuthner 1931, 2vol.

Gabriel Ferrand. NOTES SUR LA SITUATION POLITIQUE COMMERCIALE ET RELIGIEUSE DU PACHALIK DE HARAR. Bulletin de la Société de Géographie de l'Est, 1886, Nancy.

Antonio Cecchi. SPEDIZIONE ITALIANA NELL'AFRICA EQUATORIALE DE ZEILA ALLE FRONTIERE DEL CAFFA, 3 vol. Rome 1886-87.

Ing. L. Robecchi Bricchetti. NELL'HARRAR. Milan 1896.

E. Littmann, HARAR (raticle dans l'Encyclopédie de l'Islam).

Mohamed Moukhtar. NOTES SUR LE PAYS DE HARRAR. Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie du Caire, 1876.

P. Paulitschke. LE HARRAR SOUS L'ADMINISTRATION EGYPTIENNE (1875-1885). Bulletin de la Société Khédiviale de Géographie du Caire, série No. 10, Mars 1887.

P. Paulitschke, HARAR, FORSCHUNGSREISE NACH DEN SOMAL UND GALLA LAENDERN Ost-Afrikas, Leipzig 1888..

Jules Borelli. ETHIOPIE MÉRIDIONALE, Paris 1890.

Bonola Bey. L'EGYPTE ET LA GEOGRAPHIE, Le Caire 1889.

RED SEA AND GULF ADEN PILOT, 1921, (Instructions Nautiques).

D. D. Sacconi IL GOVERNO EGIZIANO E LE TRIBU GALLA E SOMALI, L'ESPLORATORE, Anno 8, 1883, p. 169.

Mgr. Taurin Cahagne. LES MISSIONS CATHOLIQUES, No. 621, 29 avril 1881. No. 630, 1er juillet 1881.
Autour d'Harar, No. 677, 26 Mai 1882; No. 776, 2 Juin; No.679, 9 juin.

Gabriel Simon, VOYAGE EN ABYSSINIE ET CHEZ LES GALLAS RAIAS, Paris, 1885.

Dr. Philipp Paulitschke, DIE GEOGRAPHISCHE ERFORSCHUNG DER ADAL-LANDER UND HARAR'S IN OST-AFRIKA, Leipzig, 1888.

Dr. Philipp Paulitschke, ETHNOGRAPHIE NORDOST-AFRIKAS, Die Materielle culture der Danakil, Galla und Somal,

Gustavo Chiesi, LA COLONIZZAZIONE EUROPEA NELL, EST AFRICA (Italia-Inghilterra-Germania). Roma, 1909.

X. Rochet, d'Héricourt, VOYAGE SUR LA COTE ORIENTALE DE LA MER ROUGE, DANS LE PAYS D'ADEL ET LE ROYAUME DE CHOA, 2 vols. Paris 1841.

M. Guillain, DOCUMENTS SUR L'HISTOIRE LA GEOGRAPHIE ET LE COMMERCE DE L'AFRIQUE ORIENTALE, publiés par ordre du Gouvernement, en 3 vols. (2 vols. de texte et un Atlas in-folio) Paris, 1856.

Dr. Carl Peters, DIE DEUTSCHE EMIN-PASCHA-EXPEDITION. Leipzig, 1891.

Dr. F. Stuhlmann, MIT EMIN PASCHA INS HERZ VON AFRIKA, Berlin, 1894.

Mustafa Amer. SOME UNPUBLISHED EGYPTIAN, MAPS OF HARRAR, BULLETIN DE LA SOCIETE ROYALE DE GEOGRAPHIE D'EGYPTE. Avril 1937.

فهرس الكتاب

الكتاب الرابع

ممالك السودان المتطرفة

(١٨٨١ ـ ١٨٩٨)

الكتاب الخامس

كتب المؤلف الأدبية

١ ــ أدب وتاريخ ــ صــدر فى سنة ١٩٢٧ وقد طبع بمطبعة دار الـكتب المصرية (نفدت طبعته) ،ويقع فى٣٤٠ صفحة ٠ وهو مقسم الى كتب : الكتاب الأول : محمود سامي البارودى ٠ الـكتاب الثانى : اسماعيل باشا صبرى ٠ الـكتاب الثالث : تاريخ الحركة الاستقلالية فى ايطاليـا ٠ الـكتاب الرابع : الفصول (مختارات من مقالات المؤلف التى ظهرت فى الصحف من سنة ١٩١٣ لغاية سنة ١٩٢٧) ٠

وقد نشرت في مقدمة الـكتاب الأول الخـاص بمحمود سامى البـارودى رسالة من أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقى بك هذا نصها :

سيدى الأستاذ صبرى :

أحبب بك مهــديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت توالينا بالطرف من أدبك ، وتوافينا بالتحف من كتبك ، وجعل الله لهذه الآثار وأمثالها من نتائج القــرائح فى مصر نماء وبركة ، فى رأس مال الأمة ، من حضــارة مستقبلة ، ودولة مؤمــلة ، ومكان بين الممالك ومنزلة ، فما رأس أموال الأمم الا وســائل الأدب السليم ، وذرائع العلم الصحيح ، وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان ، وكل علم صحيح فهو علم كل أوان ٠ سألتنى عن رأيى فى رسالتك الجليلة فان كان له من القيمة ما زعمت فهو رأى الغــواص فى الجمــانة ، والبستانى فى الريحانة والتجر فى معتقة الحانة ، ترجمة كلها حسن وأحسن ما فيها المــترجم ، وتحلية كلها روعة وأروع ما فيها المحلى ، منكوب كريم اجتمــع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكة من جاه يطويه ، ونعيم يذويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه ٠ جاورته بحــلوان الشهور الطوال يشــد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ٠ فاذا الجار كريم ، واذا الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه ، وهكذا كان رحمه الله اذا جرى ذكر الحوادث العرابية توارى بالاطراق حتى يمصك المتكلم ٠ سأله مرة صبرى باشا : هل له مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا ، قال : وما منعــك ؟ قال علمى بأن الغضب فى طبــاعى وخــوفى من أن يملكنى عنــد بعض الذكريات فيبغى القــلم على الرجال ٠ فقــال حامد بك جلوصي وكان ممن ضــم المجلس ، صــدقت ، ألست القــائل (ونغضب فى شبروى نقــير فنشتد) فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يغضبنى مثــل حديث

الثورة فلنخض فى غيره . وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ انه كان له غنى عن الاشارة الى مواقف المرحوم البارودى فى الحوادث العرابية فان ذلك من مسابقة التاريخ ما فيه ، ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يضل الأعقاب ، ويحرف مواضع التبعات من الرقاب .

٢ يولية سنة ١٩٢٣ المخلص

شوقى

* * *

٢ ـ **الشوامخ . الجزء الأول : امرؤ القيس** . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

٣ ـ **الجزء الثاني : الشعر الجاهلي خصائصه وأعلامه** . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

٤ ـ **الجزء الثالث : ذو الرمة** . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦

٥ ـ **الجزء الرابع : أبو عبادة البحترى** . طبع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦

وثمن الجزء الواحد من الأجزاء الثلاثة الأول ٣٠ قرشا . وثمن الجزء الرابع ٤٠ قرشا .

وانا نجتزىء هنا بنشر رسالة من شاعر القطرين خليل مطران بك الى المؤلف بمناسبة صدور الجزء الأول :

حضرة الصديق الكريم الدكتور محمد صبرى بك .

بعد التحية والاكرام ـ

الداء الذى ساورنى فى هذه الأيام عاقنى عن أداء واجب الشكر لما أتحفتنى به من التحفة الغالية وأعنى بها النسخة من كتابك « الشوامخ » .

وما زلت الى هذا اليوم غير قادر على بذل أى مجهود فكرى يعتد به غير أننى بوجه اجمالى موجز أرى أن الشعر كلما اتصل بالفطرة كان من الفن الأصيل ، وكلما بعد عنها أفضى الى التعمل ، وهو فن آخر أى فن الصناعة ، وشتان بين الأصل والنقل وبين الابداء والمحاكاة .

ألم تر الى شعر هوميروس كيف بقى عند الفرنجة بمنزلة الينبوع الصافى الذى استقى منه جميع أدبائهم على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم وأهوائهم ونزعاتهم .

ولقد تكلف الفرنجة ما تكلفوا ليفهموا هوميروس وليقتبسوا من لغته القديمة المجهولة ما اقتبسوا ونحن لم نتكلف ولا نتكلف شيئا لنفهم أمرا

القيس وأضرابهمن أيام الجاهلية فيغيبون عنا ونحكم عليهم لا لهم .

ولولا أنك جئت تفهمنا معانى امرىء القيس ولولا الدكتور طه حسين بك وما جهد ليشرح به آيات الشعر الجاهلى الصادق النسب ولولا آخر كتاب للأستاذ عباس محمود العقاد فى جميل بثينة لبقيت كنوز الشعر الجاهلى بعيدة عنا نأخذ منها عن الأجانب ما نأخذ ولا نفقه أن لها عندنا أصلا كريما جديرا بأن نعنى به .

بعد كتابة ما تقدم على علاته أوجه اليك ثنائى الخالص عليك بأبيات جرت على قلمى حين فرغت من مطالعة كتابك وهى :

بعد ألف وبعد بضع مئات	أنصفت عبقرية الضليل
نضى الستر عن جلال امرىء ال	قيس بسفر من البيان جليل
رد صبرى ألواحه فتجلت	من خفاء آيات فن جميل
واذا الحسن ند عنه حديث	طلب الحسن فى العتيق الأصيل
آفة الفن جهله كيف والأع	لام تطوى ما بين جيل فجيل
انما الرأى ما أبنت وهل أب	لغ مما أقمته من دليل

١٨/٤/٤٤

المخلص

خليل مطران

كتب المؤلف التاريخية

وضع المؤلف عدة كتب بالفرنسية أهمها الكتابان اللذان أشار اليهما فى المقدمة وكلاهما يقع فى حوالى ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ٠ وقد نفدت طبعتهما : الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية ، والامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل والتدخل الانجليزى ــ الفرنسى ٠

(آراء النقاد والعلماء فى الكتاب الأول)

(عصر محمد على)

(١) **مجلة ريفى دى فرانس** عدد أول يولية سنة ١٩٣٠ : « هذا الكتاب الضخم يسجل أهم حقبة فى تاريخ المسألة الشرقية ، تلك الحقبة التى تمكن فيها محمد على بمساعدة ابنه ابراهيم من النهوض بمصر ٠ وقد كان الخيط الذى اهتدى به فى بحثه هو تحليل شخصية محمد على فتمكن بهذه الطريقة من تجديد ذلك التاريخ تجديدا شاملا مع أنه كان من قبل موضوع دراسات طويلة وكان الغموض والتعقيد يكتفانه من كل جانب ٠

(٢) ــ **مجلة مدرسة الدراسات الشرقية** بلندرة ٠ المجلد السادس القسم الأول ٠ سنة ١٩٣٠ ٠ بقلم هنرى دودويل : لا شك أن المؤلف قد اضطر الى عمل مجهود ضخم لتأليف هذا الكتاب الكبير ٠ وقد انتفع بعدد لا يحصى من الوثائق والمستندات المستخرجه من مصادر متنوعة جدا ٠ وقد يكثر من ذكرها باسهاب ولكن بفن ٠ ولا جدال فى أن أهمها وأعلاها قيمة الرسائل المتبادلة بين الباشا الكبير وابنه ابراهيم ومنتخباته من رسائل وزارة الخارجية النمسوية فهذه كلها جديدة للجميع ٠ وهذا هو السبب الذى من أجله يلقى ذلك الكتاب ضوءا كبيرا جديدا على حياة محمد على السياسية ٠

(٣) ــ **جريدة البورص اجبسيان** بالقاهرة ٠ مقال بقلم المؤرخ الفرنسى جيمار بتاريخ أول يولية سة ١٩٣٠ : « سيطالع القراء بشغف الموازنة التى خطتها يد صناع بين محمد على وابراهيم ، موازنة خرج فيها الدكتور صبرى على الأساطير الموروثة واجترأ أحيانا على تفضيل الابن الجسور على الأب المفرط فى المراقبة والحذر ٠

ولا بد من دراسة طويلة جدا لتحليل كتاب الدكتور صبرى تحليلا كاملا .. وحسبنا أن نقول أن الكتاب الذى نحن بصدده عمل ضخم جبار اضطر المؤلف الى الاطلاع على مجموعة هائلة من أوراق المحفوظات الخطية ومن المستندات المطبوعة . وأهم من ذلك انه بحث جديد بكل معانى الكلمة لأنه أتى لنا ، فى مسائل كان يعتقد البعض أنها أصبحت مستنفدة، بنظرات بكر لامعة .

(٤) ـ **مجلة تاريخ المستعمرات الفرنسية** . فصل كتبه المؤرخ الكبير شارل رو السفير القديم ورئيس شركة قناة السويس وأحد أعوان هانوتو (عدد يناير ـ فبراير سنة ١٩٣١) :

« ان أول مزية لصبرى هى الطريقة التى صاغ بها موضوعه المحدد بالدقة فى العنوان . وقد بلغت الأزمة الطويلة ، التى لزمت المسألة الشرقية ، أوجها فى سنة ١٨٤٠ . وكانت أهميتها السياسية ترجع فعلا الى تطورات الامبراطورية التى أسسها محمد على وكانت مصر نواتها قبل أن ترجع الى جياته الشخصية . ولا شك أن تكوين هذه الامبراطورية ، العربية فى جوهرها ، هو الذى حرك المسألة الشرقية فى أعنف أشكالها وساق الى حلها حلا ـ ان لم يكن كاملا فقد كان جزئيا بسعة ـ ولكن أوروبا فى ذلك الوقت بأستثناء فرانسا ، لم تكن راضية عنه .

« كان رد الفعل عند الدول الأوروبية ازاء ذلك الحادث ذى الأهمية الدولية الكبرى ،وكان تقطيع أوصال الامبراطورية المصرية وبالأحرى تدميرها هما المظهر المحزن لتلك الأزمة التى بلغت نهايتها فى سنة ١٨٤١ .

« ذلك هو الضوء الذى تبدو فيه الحوادث فى كتاب صبرى . الذى يصف موضوع النزاع لا باعتباره خلافا حول أطماع تابع وحقوق متبوع فحسب بل باعتباره قبل كل شىء خلافا حول نظرية سياسية جديدة ونظام قديم عفى عليه الزمن .

« وتتجلى مزية أخرى لصبرى فى تنوع مستنداته وكثرتها . ولما كانت مصادر المحفوظات الرسمية للمدة من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤١ لم تفتح للجمهور الا من عهد قريب نسبيا فان كتاب صبرى فى مقدمة الكتب التى تمكن فيها صاحبها من مقارنة الوثائق التى أودعت فيها حكومات كثيرة فكرتها السياسية.وهذه المستندات، التى لم يسبق نشر معظمها ،قد ساعدته على الاتيان بجديد فى موضوعه على الرغم من كثرة تعرض الباحثين له من قبل وهذه أولى فضائل هذا الكتاب فى نظر المشتغلين بتاريخ الشرق .

« وليس فى مقدورنا فى حيز هذا النقد المحدود متابعة المؤلف فى

تحليله السياسات المختلفة التي تصادمت في غضون هذه الأربعين سنة ٠ ولكن مما لا ريب فيه أن هذا التحليل قد صحح أوضاعا وآراء كثيرة ؛ محمد على نفسه وانجلترا وفرانسا ٠ هذه « الأشخاص » الثلاثة التي لعبت دورا رئيسيا في الحوادث التاريخية الطويلة قد عرف صبري كيف يكشف عن سياستها واتجاهاتها المختلطة المتعددة الوجوه وهي كثيرا ما تختلف عن الأوضاع التي صبتها في قالبها وصقلتها التقاليد المطبوعة بطابع البساطة والتي لا ترى الأمور الا من ناحية واحدة ٠

« لقد فاتح محمد على انجلترا وتقرب اليها ووضع آماله في مساعدتها لتحقيق استقلاله ٠ وجعلته انجلترا يتعلق بذلك الوهم ويعتقد انها لا تمانع في أن يحقق استقلاله بمصر ويبسط سلطانه على الشام ٠ أما فرنسا فانها لم تطلق له العنان وجعلته يحس « الشكيمة » وخففت من غلوائه دون أن يمنعها ذلك من تأييده بكل قوة في اللحظة الحاسمة ٠

« وقد أظهر صبري تطورات وتقلبات عوامل هذا النزاع «الدراماطيقي» الذي وضع على البساط مصير الشرق بل وسلم أوروبا ومصالح دولها الحيوية ٠

« وطبيعي في أزمة طويلة كهذه ذات نتائج لا تحصى لم يكن في مقدور سياسة أي رجل وبالتالي سياسة أية حكومة أن تظل في خطة واحدة ، في وحدتها التي جمدتها فيها بغير هوادة الصور الاصطلاحية في التاريخ السطحي٠وقد كان استمرار الهدف لكل دولة يحول دون الاستمرار المطلق في الوسائل كما يتصورها خطأ المراقبون الذين لم يؤتوا من العلم الا قليلا ٠

« وقد برز وجه محمد على في كتاب صبري بملامح تكذب الأسطورة التي جرت في أثناء حياته نفسها حول مغامراته الهوجاء ومواقفه العنيدة ٠ وتؤلف الوثائق التي استعملها مؤرخه شخصية سياسي قد لا يتردد في المخاطرة الكبرى ــ وهو ماكانت تقضي به ظروفه وخططه في سبيل الوصول الى غايته ــ ولكنه مع ذلك كان يقدر كل خطوة يخطوها ولا يلقي بكل أوراقه ٠ ففي حروبه في سبيل السلطان وفي حروبه ضده كان ينظر دائما بعين يقظة صوب أوروبا ، وكانت أوروبا نصب عينيه كلما تحركت أطماعه ولكن هذه الأطماع كان فيها من الروية والتبصر ما لا يبدو لأول وهلة » ٠

(٥) ــ **مجلة الأدب المستشرقة** (التي تصدر في ليبزج) ٠ سنة ١٩٣١ عدد ٧ ٠ بقلم هازنكليفر الأستاذ بجامعة جيتنجن :

« دراسة كبيرة رائعة مؤسسة على مواد محفوظات واسعة جدا ٠٠ ومن

الممكن طبعا نقد نقط تفصيلية ولكن بما أن المسألة لا تخرج عن نقط تفصيلية فانى أتحامى التعرض لها ازاء عمل كهذا قد أحكم بناؤه الى أقصى حد ٠ »

«٦» ــ **ريفى بليه** ٠ (باريس) ٠ أول أغسطس سنة ١٩٣١ ٠ بقلم بول فايل :

« كتب صبرى تاريخ حياة محمد على ودرس فى حدودها جميع المسألة الشرقية من سنة ١٨٢٠ لغاية سنة ١٨٤١ وخصوصا الأزمة الأوروبية من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤١ ٠ فما أحفل هذا الكتاب بالوقائع المستقاة من مصادر المحفوظات الخطية وما أعظم أمانة المؤلف العلمية فى التعليق والشرح وما أجمل رصانة أسلوبه ؟ وهوما سيتبينه القارىء نفسه حين يطالع ذلك الكتاب الكبير الذى يرسم صورة كلها حياة للعاهلين الباشا وابنه ابراهيم ، مؤسس امبراطورية سورية زائلة ومؤسس دولة مصرية كفل لها البقاء ٠

« وقد رفع الأديب الكبير صبرى لذكراهما هذا العمل الضخم الذى هو خير ما تطيب له نفساهما » ٠

«٧» ــ **مجلة الجمعية الأسيوية** (لندرة) ٠ يناير سنة ١٩٣٢ بقلم الكولونيل الجود :

« قد يكون هذا الكتاب طويلا جدا للقارىء المتوسط ولكن العلماء سيذكرون للمؤلف جلده فى البحث فى محفوظات القاهرة وباريس ولندرة وفينا ٠ وحسب الدكتور صبرى أنه لم يخف أى شىء هام على بصره النافذ ٠ والكتاب فى مجموعه قد كتب بروح نزيهة جادة عادلة ٠

(٨) ــ **مجلة بوليبيليون** الباريسية ٠ عدد مايو سنة ١٩٣١ ٠ بقلم هنرى جيران :

« منذ قرون عدة لم تلعب مصر فى تاريخها دورا هاما كالدور الذى لعبته فى عصر محمد على خصوصا من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٠ وهى الحقبة الحاسمة فى تاريخ الأزمة الشرقية ٠

« كانت هذه الحقبة الهامة من التاريخ الحديث غامضة فى بعض نواحيها ان لم تكن مجهولة فكشف عنها المؤلف : مثال ذلك المفاوضات الطويلة التى جرت بين شارل العاشر ومحمد على لعمل حملة مشتركة ضد داى الجزائر قبل حملة سنة ١٨٣٠ ، وكذلك الأغراض والمرامى الحقيقية التى كانت تنطوى عليها معاهدة أونكيار ــ اسكيليسى المعقودة بين روسيا وتركيا فى سنة ١٨٣٣

« وليس فى مقدرونا أن نوفى حقها من الثناء تلك الدقة فى الحكم على السياسة الأوروبية ازاء الحكومتين التابعة والمتبوعة ، المتنازعتين على السيادة فى الشرق •

« ان الوثائق الكثيرة جدا المستخرجة من المحفوظات الكبرى مترجمة أو منقولة فى صلب الكتاب (لا فى الهامش كما يفعل الكثيرون) تكشف لنا عن اضمحلال الباب العالى ونهضة محمد على وما فيها من عزيمة وذكاء ، ومناصبة انجلترا له العداء الطويل ممثلة فى شخص بالمرستون وبونسنبى ، مستعينة فى صراعها بالدول الكبرى ، ما خلا فرانسا التى لم تستطع – بفضل تمسكها بنظرية (خير الأمور الوسط) التى كانت عزيزة على لويس فيليب – الا أن تكفل لوالى مصر الحكومة الوراثية فى وادى النيل •

(٩) **مجلة المستعمرات الايطالية** التى كانت تصدرها وزارة المستعمرات الايطالية • عدد نوفمبر سنة ١٩٣٠ :

« ان هذا الكتاب عمل جليل فى تاريخ المسألة الشرقية الشهيرة التى طال بحثها ولكن دراسة صبرى يبرز فيها طابع خاص لأسباب عديدة أولها : نجاحه فى الكشف عن بواطن واتجاهات سياسات انجلترا وفرانسا وروسيا والباب العالى ازاء مصر كشفا لا هوادة فيه بفضل الوثائق التى استخرجها من وزارات الخارجية المختلفة ••• ومنها الرسائل التى مكنته من تحليل شخصية العاهلين واظهارها فى ضوء جديد ••• ألخ ألخ ••

« بالجملة فان هذا الكتاب فى مجموعه جديد فى أسلوبه وأسانيده وطرائقه »

(١٠) **مجلة لاروس الشهرى** • عدد يناير سنة ١٩٣١ • بقلم روبير ديفورك :

« هذا كتاب عظيم جدا وقد درس فيه صبرى مؤسس الامبراطورية المصرية : وهو تاريخ عهد أولا ولكنه أيضا تاريخ سياسى (ديبلوماطيقى) لمرحلة من أهم مراحل القرن التاسع عشر ولمسألة من كبريات مسائل التاريخ التى لا نزال نحس آثارها الى اليوم •

(١١) **وكتب جورج دوان فى كتابه (حرب الشام الأولى)** • « الذى ظهر بالفرنسية فى سنة ١٩٣١ » :

« • • على أن التاريخ العام لذلك العصر قد كتبه الدكتور صبرى (الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية) بأسلوب يدل على نبوغ يطيب لنا أن نتحنى له اجلالا • »

(آراء النقاد والعلماء فى الكتاب الثانى)

(عصر اسماعيل)

(١) ـ مجلة العالم الاسلامى • الانجليزية • عدد ٢٥ يولية سنة ١٩٣٤ :

« أظهر المؤلف فى هذا الكتاب ما اتصف به من دأب وتبسط فى العلم فى كتابه الأول الخاص بتاريخ محمد على وهو يمشى قدماً فى اقامة ذلك الصرح الرفيع فى تاريخ مصر السياسى »

(٢) مجلة مدرسة العلوم الشرقية • بجامعة لندن عدد ١٠ فبراير سنة ١٩٣٤ :

« ان كتاب الدكتور صبرى عمل بنى على البحث وانه مدعم بالوثائق وانه ـ سوى فيما يتعلق بمسائل السياسة الأجنبية ـ قائم على الانصاف والاتزان •

(٣) ـ مجلة العلوم الدينية • التى تصدرها جامعة استراسبورج • سنة ١٩٣٤ :

بعدما أشار صاحب المقال الى عصرى عباس واسماعيل والى الصراع الجبار الذى دار فيهما حول « المصالح » بين فرنسا وانجلترا من ناحية وبين هاتين الدولتين ومصر من ناحية أخرى والى أن دور المحفوظات قد انفتحت على مصاريعها للمؤلف قال : « وبذلك أمكنه الكشف عن حقائق كثيرة كانت مجهولة ••• ومهما كان من الأمر فان هذا الكتاب قيم بلاشك وهو أول تاريخ لمصر فى ذلك العهد »

(٤) مجلة الاللستراسيون الفرنسية • عدد ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٣ :

بعدما أشار الناقد الى النزاع الاستعمارى بين دول أوروبا فى أفريقيا والى اتساع مصرفى وادى النيل والسودان والصومال وهرر وأغندة وغيرها وعلاقة مصر بالمشاكل الأفريقية وما اكتنف هذه العلاقة من عناصر متشابكة لاحصر لها مالية وسياسية واقتصادية قال : « ان المؤلف قد فصل لنا هذه الحوادث ونفخ الحياة فى ذلك التاريخ القريب منا بقوة الاسلوب وتوخى أقصى حدود الدقة فى أسانيده »

(٥) ـ مجلة بوليبليون الفرنسية • سنة ١٩٣٣ :

بعدما أشار الناقد الى عصر اسماعيل وفضائحه المالية التى أخذت منها بنصيب شركة قناة السويس قال : « ان الصفحات الخاصة بغردون ليست أقل الصفحات امتاعا فى ذلك الكتاب الممتلىء روعة من أى النواحى نظرت اليه • •

« ان هذا الكتاب ليس أقل من سابقه وهو يضفى على صاحبه أكبر الفخر »

(٦) ــ مجلة الجمعية الجغرافيــة بباريس • عدد ديسمبر سنة ١٩٣٣ :

« ان صبرى العالم المصرى قد أخذ على عاتقه كتابة تاريخ مصر من محمد على الى اليوم ••• وان هذا الـكتاب الذى هو عمل ضخم مدعم بالمستندات الـكثيرة من وضع مؤرخ مصرى يفتح لنـا فى تاريخ مصر المرتبط بتاريخ أوروبا سبلا جديدة ، لم تطرق من قبل ، عظيمة الشأن »

(٧) مجلة الشهر (ليموا) • عدد ١٠ يناير سنة ١٩٣٤ :

« ان هذا الـكتاب الفخم الذى وضعه الأستاذ العلامة صبرى يثبت لنا أن الفضــائح المالية لم يخل منها بلد ولا زمان ••• وقد أظهر صبرى بقوة أن فرنســا فى ذلك العصر لم تكن أســلم طوية من انجلترا وقد برر المؤلف رد الفعل الذى حدث فى مصر وقتئذ ضد الدول الأوربية التى كان أكبر همها التغرير بمصر وسلبها ونهبها •

« ولا ريب أن هذا الكتاب عظيم الشأن من كل النواحى » •

(٨) مجلة الدراسات التاريخية بباريس • عدد يوليه سنة ١٩٣٤ :

« هــذا كتاب رائع جــدا مدعم بمستندات رصينــة معظمها لم يســبق نشره • وهو يبحــث فى عصر هام من تاريخ مصر والتــوغل الأوربى فى أفريقيــا وهو ليس تاريخا ســياسيا كما يصفه المؤلف فحسب بل تاريخــا اقتصــاديا واستعماريا يجــدد فى نواح كثــيرة موضوعا كنا لا نعرفه حق المعرفة • وقد ظهرت شخصية غردون الغامضة فى جلاء رائع وبانت مسألة قناة السويس فى جميع بواطنها الخافية » •

(٩) مجلة افريقيا الفرنسية • عدد فبراير سنة ١٩٣٥ :

« ان الوثائق التى أتى بها المؤلف تظهر فى صورة غير مشرفة الوسائل التى لجأ اليها دلسبس للتحايل على ابتزاز المال من الخديوى اسماعيل • وقد بسط المؤلف المراحل السياسية المختلفة بقوة نفاذة وبانت ملامح جديدة فى شخصية غردون الغامضة » •

(١٠) مجــلة الآداب المستشرقة التى تصــدر فى ليبزج • بقلم الأســتاذ هازنكليفر بجامعة جيتنجتن • عدد ٥ من سنة ١٩٣٥ :

« ان هذا الكتاب الثانى ليس أقل روعة وشأنا من الأول وانه مثله تماما فى توخى الدقة فى البحث وفى براعة العــرض والبنــاء وفى تنوع فصــوله ومناحيه » •

(١١) المجلة الامريكية التاريخية• بقلم هوسكنز الأستاذ بجامعة تفتس:

« ان الـكتاب فى مجموعه قد كتب بدقة واحكام وبطريقة علمية رائعة منزهة عن كل مأخذ • وفى الكتاب وجهات نظر جديدة لهــا شأنها وحسبه أنه يفيض ضــوءا جــديدا على مرحــلة هامة من تاريخ التــدخل الاوربى فى أفريقيا » •

تحت الطبع

في السياسة والأدب والاجتماع ـ سيشتمل هذا الكتاب على أهم المقالات والأبحاث التى نشرها المؤلف فى عشرين عاما من سنة ١٩٢٧ لغاية سنة ١٩٤٨ ٠ وسنزيد عليها فصولا قديمة لم تنشر فى كتاب (أدب وتاريخ) وفصولا جديدة لم تنشر مطلقا ٠

